

جزئيات

في

السيرة النبوية

عرض وتحليل

صالح الطائي

جزئيات في السيرة النبوية عرض وتحليل

صالح الطائي

بغداد

اسم الكتاب : جزئيات في السيرة النبوية - عرض وتحليل

تأليف : صالح الطائي

الطبعة : الاولى ٢٠١٠

الناشر : دار ميزوبوتاميا - العراق - بغداد - شارع المتنبي

البريد الالكتروني : **mazinlateef_٢٠٠٥@yahoo.com**

فهرس المحتويات

٩	إيضاءات بين يدي البحث
١٢	شكر وتقدير
١٣	المقدمة

الفصل الأول

١٧	السيرة من محاولات الكتابة إلى محاولات الدرس
١٩	كتابة السيرة
٢١	التضمن
٢٦	حقيقة قول "اصح سيرة"

الفصل الثاني

٣٧	عصر الجهل، وعصر العلم، وبين العصرين
٣٩	جزيرة العرب
٤٣	الجغرافيا الديموغرافية المكية
٤٧	الجغرافية السياسية المكية (الجيوپولتيكا)

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الطور المدني الحروب والغزوات ، آلية بناء أو بناء الآليات ١١١

الفجوة القاتلة والثقة بالنصوص ١١٣

الموروث والعدوان والحرب : ١١٩

الأذن بالقتال وتاريخه : ١٢٠

حقيقة دموية الإسلام ١٢٤

منهج تعاقب الارتباطات ١٣٠

الحروب الإسلامية ١٣٥

الفصل الخامس

السرايا والغزوات والحروب الإسلامية ١٤١

غزوة ودان ١٤٣

غزوات المسار الأول الجديد ١٤٥

غزوة أحد : ١٤٥

غزوة الخندق (الأحزاب) ١٥٤

غزوات المسار الثاني ١٥٨

موقف رواة السيرة من علي ١٦٠

سفارات وخيانات ١٨٢

العلاقات المجتمعية ١٩٤

الإسرايليات المدسوسة ١٩٧

قصص زيجات النبي في الغزوات ٢٠٠

غزوة بني لحيان ٢٠٨

غزوة بني المصطلق ٢١٠

غزوة الحديبية ٢١٥

غزوة خيبر ٢١٩

الاختلاف بشأن المحرمات والتشريعات ٢٢٢

ظاهرة الغل ٢٣٠

٢٣٢	عمرة القضاء
٢٣٣	غزوة مؤتة
٢٣٥	فتح مكة
٢٣٧	التوظيف التخصصي
٢٤٧	غزوة حنين
٢٤٩	غزوة الطائف
٢٥٠	الصحبة والصحابة
٢٥٤	الإمامة والاستخلاف
٢٦٠	غزوة تبوك
٢٦١	المنافقون والمعتضون
٢٦٧	ووضعت الحرب أوزارها
٢٧٥	آخر الحديث
٢٨٤	مقاييس التقييم
٢٨٧	المصادر والمراجع

بسم الله الرحمن الرحيم

إيضاءات بين يدي البحث

جاء في إحدى خطب الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام إيضاءات فيها وصف صادق وجميل لحال الأمة في ماضيها وحاضرها ومستقبلها، وأسباب تبدل وضعها من حال إلى حال، أراها تصب في مصلحة ما توصلت إليه في هذا البحث من نتائج، لذا رأيت أن أقدم للبحث بهذه الخطبة البليغة الرائعة:

{ } إني وإن لم أكن عمّرت عمر من كان قبلي، فقد نظرت في أعمالهم وفكرت في أخبارهم وسرت في آثارهم حتى عدت كأحدهم بل كأني بما إنتهى إلي من أمورهم قد عمّرت مع أولهم إلى آخرهم، فعرفت صفو ذلك من كدره ونفعه من ضرره فاستخلصت لك من كل أمر جليله وتوخيت لك جميله وصرفت عنك مجهوله



فأنظر حيث كانت الأملاء مجتمعة والأهواء مؤتلفة والقلوب معتدلة والأيدي مترادفة والسيوف متناصرة والبصائر نافذة والعزائم واحدة. ألم يكونوا أرباباً في أقطار الأرضين وملوكاً على رقاب العالمين



فأنظر إلى ما صاروا إليه في آخر أمورهم حين وقعت الفرقة وتشتت الألفة واختلفت

الكلمة والأفئدة، تشعبوا مختلفين، وتفرقوا متحاربين، قد خلع الله عنهم لباس كرامته
وسلبهم غضارة نعمته ، وبقي قصص أخبارهم فيكم عبرة للمعتبرين منكم { {
نهج البلاغة / الكتب والرسائل / رقم ١٣

الإهداء

سيدي رسول الله صلى عليك الإله

أضعُ بينَ يديكَ الكريمَتينِ الطيبتينِ سِفْريَ المتواضعِ هذا، وأسأَلُ اللهَ العزيزَ القديرَ،
أنْ ينالَ رضاكم، وقبولكم، وأنْ يكونَ شفيعيَ لديكم، لكي تشفعوا لي يا سيدي، بأنْ
يجعله اللهُ يومَ الدينِ في ميزانِ حسناتي... وميزانِ حسناتِ كلِّ المخلصينَ للإسلام

الواحد

فإني لم أبغ من وراءه إلا رضا سبحانه وتعالى

صالح

شكر وتقدير

لا يسعني ألا أن أتقدم بالشكر الجزيل والعرفان بالجميل لكل من ساعدني في إنجاز البحث وإخراجه بهذا الشكل وهم كثيرون أخصوص منهم:

زوجتي العلوية الطيبة المجاهدة التي جعلت من عيونها رديفا لعيوني ومن صبرها رافدا لصبري فكان لها جهدا مشكورا في كل بحث أكملته، وجهدا مضاعفا في هذا البحث...

الدكتور علي رضا فروتن طبيب العيون النبيل البارِع الذي عمل المستحيل وأدخلني الردهة مرات عدة، عسى أن يعيد لي بعضاً من نظري الذي سرقه المخربون...
مكتبة واسط المركزية العامة بمديرها وكافة موظفيها لما أسدوه لي من عون وتيسير لإنجاز هذا البحث...

وإلى كل من يعمل بصدق على لم شمل الأمة والتقريب بين مكوناتها. والتفكر بما يطرحه الآخر بدون شد عصبي، وأحكام مسبقة. فإن كان حقاً أخذ به. وإن كان باطلاً أرشده للصواب. وهداه للعدول عنه

والحمد والشكر لله على هذه الحال وعلى كل حال

المقدمة

لا شك في أن التاريخ أحد أغنى ما وصلت إليه البشرية في مجال المعارف الكتابية لأنه حفظ لنا في وعائه كل تجارب الأقدمين ووضعتها بين أيدينا على طبق ننهل منه الخبرة والتجربة والعبرة والعبرة ونستقي منه الدروس الرائعة وطرق التعامل والسلوك والحوار. فالتاريخ خزين معرفي أوعبت فيه الأمة كل خبراتها الحياتية ليساهم في تسريع النمو الثقافي والحضاري والعقائدي والتمدني للأجيال اللاحقة. وكرد للجميل على الأجيال اللاحقة أن لا تتخذل أجيالها السابقة بأن تترك الإفادة من هذا الخزين، أو تصبح أدنى مما كان يأمله فيها الأقدمون.

والأمم تمنح تاريخها عادة نوعاً من القدسية والاحترام الذي يتناسب مع أهميته العمرية والموضوعية والعقائدية. أما نحن العرب والمسلمين فإن تعاملنا معه يختلف عن تعامل الأمم الأخرى بسبب طغيان روح الشك على علاقتنا به، بعد أن واجهنا أنواعاً مختلفة من التلاعب الذي قام به الرواة والمدونون الأوائل محفوظة في طياته ومنتشرة في أصول عقائد بعض أهله، مما أوهى إيماننا به، من دون أن ننظر إلى وجهه المشرق المملوء أملاً وتفاؤلاً.

إن السيرة النبوية المطهرة أجمل ما في تاريخنا، وأجمل ما في السيرة حوادثها وأقوالها وأحاديثها والحالة العامة لذلك الجيل العظيم من الصحابة الكرام الذين آمنوا بالنبى

ونصروه وآزروه وهاجروا وقتلوا معه لنشر الإسلام في أصقاع الدنيا، وإخراج الأمم من جاهليتها إلى نور الإيمان والوحدانية. وتلك الروح التألفية التوحيدية التي كانت تجمع المسلمين حتى بدوا كجسد واحد إذا أشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى. وكان المفروض بهذا السفر العظيم أن ينتقل للأجيال كما هو نظيفا صادقا يتناسب مع قدسية صاحبه الرسول الأكرم وصحابته النجباء الكرام، ولكن الحركات السياسية والدوافع القرايية والولاءات المذهبية والطائفية والمجاميع التخريية أثبت إلا تقويض ذلك البناء الشاهق والصرح العظيم بما أدخلته عليه من المستحدثات الهجينة والتحريفات الغربية حتى بدلت ملامحه الأولى وأظهرته بحلة جديدة لا يليق به ارتدائها، وعلى مر الأجيال لم يكن لنا حول ولا قوة لتصحيح هذه الطوارئ والقضاء على آثارها المدمرة بسبب مجموعة كبيرة من الموانع والعوارض. أما اليوم وبعد أن وصل العالم إلى ما هو عليه من التقدم والرقى، وبعد أن وصل الفهم الفردي الشخصي والجماعي العام إلى مستوى عال من النضوج والتفتح، فأجد أن إعادة النظر في بعض جزئيات السيرة النبوية وتصحيحها وتنقيتها من رواسب فيضانات التشويه وهجمات التحريف بات من الضروريات الملحة التي يفرضها الواقع العالمي الحالي، هذا الواقع الذي لا يؤمن إلا بالماديات، ويتعامل مع الغيبات واللاهوتيات بالدرجة نفسها التي يتعامل بها مع عرض الأزياء ودعايات المشروبات، لدرجة أن يعرض فلما انتقاديا لاذعا ضد الإسلام ورسوله باسم حرية الفكر المزعومة.

لذا أجد أن هذا البحث لا يعدو كونه مجرد محاولة بسيطة لرسم جزء من الخارطة التصحيحية التي تحتاج إليها السيرة النبوية في هذا الوقت بالذات، لكي نغلق الأبواب التي يحاول النفاذ من خلالها من يريد الطعن بالإسلام وعقيدته ورسوله الكريم، وأرجو أن أكون قد وفقت في ذلك، فإذا ما لقي هذا العمل قبولا وتلقفته النوايا الحسنة

والضمان الآمنة المطمئنة، فإنه سيعمل على ترادف الأيدي وتناصر السيوف ضد من يضمّر للإسلام الواحد شراً، أما إذا عُمِلَ كما عُمِلَتْ أشباهه من قبل، فإنه لن يكون سوى صفحات تضاف لملايين الصفحات التي شغلنا أنفسنا بتسويدها عبر تاريخنا الطويل والتي زادت في تباعدنا وفرقتنا بدل أن تلم شعثنا وتوحد عزائمنا وتعيد لنا مجدنا يوم كنا أرباباً في أقطار الأرضين وملوكاً على رقاب العالمين

الفصل الأول

السيرة من محاولات الكتابة

إلى محاولات الدرس

يتناول هذا الفصل دراسة المحاولات الأولى لكتابة السيرة النبوية العطرة، ومحاولات تضمينها بعض الآراء الدخيلة، وحقيقة الإدعاء القائل أن سيرة بن هشام هي أصح كتب السيرة

كتابة السيرة

تقول الروايات أن كتابة السيرة النبوية الطاهرة تمت في وقت قريب من عصر البعثة المباركة بدلالة أن ابن هشام الحميري المعافري المتوفى سنة ٢١٣ أو ٢١٨ هجرية على اختلاف الروايات هذب سيرة محمد بن إسحاق المطلبى المتوفى سنة ١٥١ أو ١٥٣ هجرية على اختلاف الروايات أيضا، والذي كان قريب عهد بكبار التابعين، ومن هنا جاء الإدعاء القائل إنها (اصح) السير، ولاسيما وأنهم يقولون إن ابن هشام لم يأخذ بكل الروايات التي وردت عن طريق ابن إسحاق، وإنه رد بعض الروايات التي لم تثبت صحتها عنده.

وكانت كتابة السيرة أول اتجاه حقيقي لكتابة التاريخ الإسلامي بخاصة والعربي عموما حيث اندفع الكاتب الإسلامي لتوثيق سيرة وغزوات النبي بدوافع دينية، فكانت كتابة السيرة بداية كتابة التاريخ الإسلامي، ثم لما تبلور مفهوم علم التاريخ البدائي في عقولهم وعرفوا أهمية وأثر المدونات التاريخية قاموا بإعادة كتابة ما سبق وأن كتبوه لكي يتواءم مع مستجدات عصرهم الذي صادف أنه كان عصر اغتصاب السلطة حيث جاء في مقدمة السيرة الحميرية أن عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي الذي حكم للمدة ٩٩ - ١٠١ هجرية رأى كثيرا من العلماء يموتون من غير أن يخلفوا شيئا من مروياتهم واجتهاداتهم وخشي أن تضيع علوم المسلمين وتذهب أخبار رسولهم فكتب إلى أبي بكر بن حزم نائبه في الإمرة والقضاء على المدينة: أنظر ما كان من حديث رسول الله فأكتبه

فاني خفت دروس العلم وذهاب العلماء^١ وأمر كذلك محمد بن مسلم بن شهاب الزهري فدون كتابا في ذلك بعدها قام عروة بن الزبير بكتابة السيرة وكذلك فعل الزهري وعبد الله بن أبي بكر (أبو بكر الذي أمره الخليفة ابن عبد العزيز بكتابة الروايات) وموسى بن عقبه مولى آل الزبير (توفي سنة ١٤١ هـ) ومعمار بن راشد (توفي سنة ١٥٠) ثم جاء محمد بن إسحاق وعزم على كتابة السيرة فقام زياد بن عبد الملك ألبكائي وهو راوية ابن إسحاق بكتابتها له، وجاء ابن هشام فأخذ بما كتبه ألبكائي. كما ويقول كاتب المقدمة أنه ليس من شك عند أحد من الناس أن الكتاب الذي وضعه ابن إسحاق أكبر من هذا الذي بين أيدينا وأوفر مادة وأكثر.^٢

ندرك من هذه الخلاصة أن السيرة كانت قصصا دفاترها عقول الرجال الذين يتداولون سردها كباقي القصص التراثية في مجالسهم الخاصة والعامة، ولم تكن هناك نية حقيقية لكتابتها وتدوينها حتى ما بعد سنة ٤١ هجرية، وحتى عندما رغب معاوية بن أبي سفيان أول خليفة أموي في كتابة شيء من التاريخ لم يفكر أبدا بكتابة السيرة النبوية وإنما أرسل باستدعاء عبيد بن شربة من صنعاء اليمن ليكتب له أخبار الماضين من ملوك اليمن من العرب البائدة وغيرهم^٣. وربما تعد هذه البادرة من الأمور النادرة لتعامل الدولة الأموية مع التاريخ والاهتمام به، ولذا أعتقد أنها لم تستند إلى غايات تاريخية بحثة وإنما كانت غايتها سياسية بهدف الإفادة من تجربة الماضين وطرق تعاملهم في بناء كيان الدولة الجديدة.

أما بعد هذه المرحلة فكانت هنالك محاولات فطرية لكتابة السيرة تمثلت بكتابة

١. السيرة الحميرية ١ / ٧ - ٨ .

٢. السيرة الحميرية ١ / ١١ .

٣. موسوعة التاريخ الإسلامي، محمد هادي اليوسفي، ١ / ١٥ .

فصول محددة لا تتجاوز البضع صفحات عن أحد مواضيعها ذات العلاقة غالباً بالكاتب نفسه الذي كان يوثق ما له علاقة بمن يمت له بصلة القربى الإثنية أو العقيدية. وقد كانت هنالك مجموعة من هذه المحاولات تكاد محاولة عروة بن الزبير المتوفى سنة ٩٢ هجرية أن تكون أولها، تلتها محاولة أبان بن عثمان بن عفان المتوفى سنة ١٠٥ هجرية، ثم وهب بن منبه المتوفى سنة ١١٠ هجرية، ثم عاصم بن عمر بن قتادة المتوفى سنة ١٢٠ هجرية، ثم شرحبيل بن سعد الشامي المتوفى سنة ١٢٣ هجرية، ثم عبد الله بن أبي بكر بن حزم المتوفى سنة ١٣٥ هجرية، ثم موسى بن عقبة المتوفى سنة ١٤١ هجرية، ثم معمر بن راشد المتوفى سنة ١٥٠ هجرية، ثم جاءت محاولة محمد بن إسحاق المتوفى سنة ١٥١ هجرية، ثم كاتبه زياد بن عبد الملك البكائي المتوفى سنة ١٨٣ هجرية، ثم محمد بن عمر الواقدي المتوفى سنة ٢٠٧ هجرية، ثم جاءت محاولة عبد الملك بن هشام المتوفى سنة ٢١٨ هجرية^١، وتعد محاولة محمد بن إسحاق من أنضج وأوسع المحاولات المعروفة ربما لأنها جمعت تقريباً كل المحاولات السابقة في مؤلف واحد من خلال المناقلة التي قام بها.

التضمين

وتبعاً لهذه المناقلة والتداول تم تضمين قصص السيرة والمغازي قصصاً جديدة تهدف إلى خلق ثقافة مجتمعية جديدة، وتؤسس لقناعات سياسية جديدة، خاصة في العصر الأموي الأول، وهنا يلاحظ على الأمويين أنهم لم يهتموا بكتابة التاريخ مثل اهتمام العباسيين به، ولكنهم اهتموا ببعض جوانب السيرة والمغازي لأنهم كانوا يبحثون عن الأمور المقبولة لدى العامة لتوظيفها في سعيهم لشرعنة نظامهم، أو لتمجيد آبائهم، إضافة إلى أنهم كانوا بالأساس من أبناء المجتمع الأول الذي لا زال عبق عطر النبوة

١. موسوعة التاريخ الإسلامي، محمد هادي اليوسفي، ١ / ١٧.

وضوع الرسالة فواحاً في أرجائه ، والناس متعلقة ومشدودة لكل ما يمت له بصلة ، ولذلك نجد الدكتور محسن عبد الحميد يدعي أن الإسلام هو الذي ولّد الحركة الفكرية التي حدثت فيما بعد والتي أرادت أن تلتمس من القرآن الكريم أسس انطلاقها في المجتمع^١ حيث أرى أنه أخرجها من محدودية الخصوص إلى دنيا العموم بلا قرينة صادقة لأن الحركة الفكرية الأموية أرادت أن تلتمس من القرآن الكريم ما يمكن أن يدعم سعيها لبناء نفسها ونظامها فاستغلت قدسية القرآن وما في القرآن لشرعنة جلوسها على قمة الهرم الإسلامي في مجتمع يرفض هذا الجلوس ولا يرضى به ، ولما كانت السيرة هي أقرب المروي والمكتوب إلى قلوب العامة فإن اختلاق القصص وإضافتها إليها سيسهم حتماً في إضفاء الشرعية المطلوبة ، أي تطويع الخاص لدعم العام.

ثم مع تقادم الأيام لم تعد الناس تلتفت لهذه الدخائل التي فرضت نفسها بالقوة والجبر لتتحول فيما بعد إلى جزء مهم من أجزاء السيرة. وحينما جاء ابن إسحاق لكتابة السيرة لم تكن عنده المقدرة على فرز الروايات الصحيحة عن الدخيلة. فدون ما سمعه من الرواة بدون تمحيص أو امتحان. بل هنالك روايات في كتب الحديث النبوي وكتب الرجال تؤكد بما لا يقبل الشك في أن ابن إسحاق وفي سبيل إخراج مؤلفه بحلة قشبية كان أحد المساهمين في خلق هذه الفوضى من خلال قيامه بدفع الأحاديث النبوية والأموال لشعراء عصره ليضعوا له شعراً يضمّنه السيرة على اعتبار أنه من شعر رجالها الأقدمين ، بدلالة ما قاله أبو بكر بن أبي داود في حديثه الذي أخرجه ابن كثير: حدثني بن أبي عمرو الشيباني، سمعت أبي يقول: رأيت محمد بن إسحاق يعطي الشعراء الأحاديث يقولون عليها الشعر. وكذلك قال أبو بكر الخطيب: روي أن ابن إسحاق

١. تطور تفسير القرآن ، الدكتور محسن عبد الحميد.

كان يدفع إلى شعراء وقته أخبار المغازي ويسألهم أن يقولوا فيها الأشعار ليلحقها بها^١. فلما جاء ابن هشام حاول تنقية السيرة من الدخائل الشعرية، وأسقط بعضها فعلا ورد البعض الآخر وله في هذا الشأن أقوال مختلفة منها (هذا ما صح لي من هذه القصيدة وبعض أهل العلم بالشعر ينكر أكثرها)^٢ وقوله (وأكثر أهل العلم بالشعر ينكر هذه القصيدة لابن الزبعرى، أو قوله: (وأكثر أهل العلم بالشعر ينكر هذا الشعر لحمة)^٣ وقوله (قال ابن إسحاق: وقال علي بن أبي طالب في يوم بدر.... وقال ابن هشام: ولم أر أحدا من أهل العلم بالشعر يعرفها ولا نقيضها)^٤

أما في الجانب الآخر فمن المؤكد أن ابن هشام لم ينجح سوى بتسقيط بعض الدخائل الشعرية، والدخائل العامة الأخرى، والأمور المفضوحة التي لا تملك صفة الإقناع والإبداع، أما غالبية الدخائل المهمة والمؤثرة ومنها الإسرائيلية وما على شاكلتها من الروايات فقد بقيت محتفظة بمراكزها وبقدسياتها، حتى انطلت حقيقتها على أغلب الناس، خصوصا بعد أن جاء أهل الحديث وأخذوا من السيرة ما فيها من أحاديث نبوية وقصص وضمنوها لصحاحهم وسننهم ومسانيدهم. ثم بعد أن جاء شيوخ المذاهب واستندوا إليها في استنباط الأحكام الفقهية. ثم أن ابن هشام قام بتسقيط بعض الأمور انتقائيا وليس وفق طريقة علمية مدروسة ومنهجية حيث جاء على لسانه قوله: (وأنا إن شاء الله مبتدئ هذا الكتاب بذكر إسماعيل بن إبراهيم.... وتارك بعض ما ذكره ابن إسحاق في هذا الكتاب مما ليس لرسول الله فيه ذكر ولا نزل فيه من القرآن

١. ميزان الاعتدال للذهبي ٣ / ٤٧٠.

٢. السيرة ١ / ٢٠٤.

٣. السيرة ٢ / ٢١٤ - ٢١٥.

٤. السيرة ٣ / ١٢.

شيء، وليس سببا لشيء من هذا الكتاب، ولا تفسيراً له ولا شاهداً عليه^١ وما نبتغيه من هذه الدراسة أمران، الأول هو التأكد من صحة بعض الأخبار الواردة في السيرة، والتأكد من صحة تأويل وتفسير الأوائل لها. والثاني هو التأكد من صحة الإدعاء القائل أن سيرة ابن هشام المعافري التي أخذها عن ابن إسحاق المطلبي وقام بتهذيبها هي (أصح) السير لأن ثبات هذه الصحة يستوجب تغيير الكثير من المعتقدات والأفكار، خاصة ونحن نعرف أن المماحكة السياسية التي وقعت بعد ٤١ هجرية أنتجت فيما أنتجت آراء جديدة فيها الكثير من البعد عن نهج الإسلام الأول، وقد احتاجت إلى مجهود كبير من قبل القائمين عليها لترسيخ مفاهيمها لدى المسلمين الذين كانوا غير بعيدين عن عصر البعثة، فكيف بمن يبعد عن عصر البعثة خمسة عشر قرناً؟

كل المؤشرات التي بين أيدينا تدل على أن السلطة الأموية المغتصبة للحق نجحت بشكل متميز في مسعاها لإحداث التغيير العقائدي والفكري في المجتمع الإسلامي نتيجة الأداء السياسي العالي الذي كانت تتميز به. وبه نجحت في قلب المراتبية في المجتمع وفي الحياة العامة للأمة، مما ساهم في خلق فهم جديد للفكر الديني تختلف مبانيه عن الفكر الأول. ولم ينجح التأسيس الجديد في منح الشرعية للقيادة الجديدة فحسب، وإنما نجح في التأثير على المحاولات التي قام بها المسلمون في جمع الحديث النبوي وكتابة السيرة ووجهوا هذا المسعى جهة تخدم تطلعاتهم وتصب في مصلحتهم، كما ونجحوا في تنظير فقه فيه الكثير من الحداثة والاختلاف عن الفقه الأول أيضاً.

في هذه الأجواء المشحونة بالحراك الذي كان من تداعياته الطبيعية بروز ظاهرة التناحر والتدافع، تم خلق كم كبير من الأقوال المبتدعة، ونسج الكثير من القصص ذات

١. موقع إسلام الإلكتروني التابع لوزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد السعودية قسم السيرة.

الدافع السياسي، ومنحها القدسية المطلقة، وإدخالها في أصل السيرة. وكان لرجال الإسرائيليات المبرزين مثل كعب بن باع وعبد الله بن سلام وتميم الداري ووهب بن منبه وزيد بن الصليت ويعقوب اليهودي راوية ابن إسحاق وغيرهم أثرا بارزا في بث إسرائيلياتهم وقصصهم الخرافية في داخل الفكر الديني بعد أن وجدوا من يدعمهم من داخل المجتمع الإسلامي ذاته بدافع الطيبة والتسامح والجهل على الأغلب، وبدوافع أخرى منها الدافع السياسي أو الدافع التخريبي في بعض الأحيان، وبدوافع سوف ندعي أننا نجهل أسبابها، لأننا لا نريد أن نضغط على الجرح لكي لا يُخرج صديده، ومنها مثلا قيام ابن إسحاق بالأخذ عن اليهود وتضمين رواياتهم وقصصهم للسيرة النبوية وامتناعه عن الأخذ مثلا عن الإمام محمد الباقر عليه السلام الذي كان معاصرا له، مع ما كان يتمتع به الإمام من شهرة بالوثاقة والألمعية والمقدرة الفكرية.

وقد فشلت قصة تضمين كتاب السيرة النبوية لكتبهم بالكثير من قصص لإسرائيليات بين العامة والخاصة، وجاءت قصص هذا التلاعب على لسان علماء الجرح والتعديل

فقد قال أبو داود الطيالسي: حدثني بعض أصحابنا قال: سمعت ابن إسحاق يقول: حدثني الثقة.

فقليل له: من؟

قال: يعقوب اليهودي^١

وقال ابن أبي فديك: رأيت ابن إسحاق يكتب عن رجل من أهل الكتاب.

وقال يحيى: العجب من ابن إسحاق يحدث عن أهل الكتاب^٢

١. ميزان الاعتدال للذهبي ٣ / ٤٧١.

٢. المصدر نفسه ٣ / ٤٧٠.

وقال ابن المديني: لم يضعه عندي إلا روايته عن أهل الكتاب^١
وقد أخذ المسلمون الأوائل من هذا ومن ذاك باعتراف الجميع، مما يعني أن إطلاق
كلمة (أصح) أو (صحيح) على هذا المؤلف أو ذاك يجب أن لا تتم جزافاً وتسرعاً، ولا
مبالأة وولاء. وأنا قد نكون جد متسرعين عندما نجزم بالكلية المطلقة على أن هذا الأمر
صحيح مائة بالمائة. وأن ذاك الأمر خطأ بالنسبة نفسها.

حقيقة قول 'أصح سيرة'

كذلك الحال بالنسبة لمن يريد سبر غور الحقيقة وتوضيح حقيقة التلاعب، فهو لا
يمكن أن يحكم بطلان هذا الرأي أو ذاك، ويحكم على هذا الكتاب أو ذاك بالكذب بدون
دليل علمي دامغ ومقنع إذا ما أراد أن تكون أحكامه واقعية وغير متحيزة أو ولائية،
لتنال درجة المقبولية والوثاقة لدى الغير.

أما بخصوص مبالغة البعض وقولهم أن سيرة ابن هشام هي أصح السير الموجودة
فأقول أن هذا الحكم متسرع كثيراً وغير دقيق كلياً. لعدة أسباب منها:

١. أن مجرد الرواية عن شخص آخر يعني انعدام المشاهدة العيانية للحدث وبالتالي
يجعل الخبر المروي تحت سطوة وسلطة الراوي الأول (المشاهد) يتحكم به كيفما يشاء
ويهوى، وبما أن مدارك الناس ومستوى ذكائهم وفهمهم وحفظهم ودرجة استيعابهم
تختلف من شخص لآخر فلا يعقل أن يتطابق قولان أو رأيان تطابقاً كاملاً، حتى أن
ذلك يبدو من المستحيلات لأنه كما يقول أحد الفلاسفة: (كل شيء في هذا الكون
غريب إلا أنت وأنا وحتى أنت أكثر مني غرابية). فدماغ الإنسان كما يقول علماء
التشريح يتألف من عشرين مليون عصب تحسسي مقسمة إلى مجاميع حسب الواجبات

١. تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني، ٦ / ٣٩.

الموكولة لها، وكل مجموعة منها مسئولة عن وظيفة محددة بل أن كل عصب منها مخصص لوظيفة خاصة لا تشبه سواها، والبشر يتميزون في استخدام هذه المجاميع العصبية فبعضهم يستخدم جزءاً صغيراً من مجموعته المسئولة عن الفهم والإدراك مثلاً، والقسم الآخر يستخدم كامل المجموعة العصبية مما يحدث التمايز بين البشر، هذا التمايز الذي يعزوا العلماء سببه إلى سوسيولوجيا التلقي عند الإنسان، ولذلك يعرف المختصون بدراسة السنة النبوية أن الأحاديث النبوية التي سمعها الصحابة الكرام من فم النبي الأكرم مباشرة جاءت على لسانهم مختلفة النص والأسلوب وحتى المضمون في بعض الأحيان بما رقى بالحديث الواحد إلى معارضة نفسه في بعض المواضع، وتجد ذلك بوضوح شديد في كتاب المستدرك على الصحيحين للحاكم الحسكاني، والذي قسمه إلى أبواب منها (جواز التبول واقفاً) و(عدم جواز التبول واقفاً) وما شابهها وهي كثيرة جداً. فكيف بقصة تنتقل بين شفاه مجموعة كبيرة من البشر مختلفي الأطوار والمشارب الولاءات، يتناقلونها فيما بينهم كواحدة من ذكرياتهم العزيزة لا أكثر؟

٢. لم يأخذ ابن هشام سيرته عن ابن إسحاق مباشرة كما لم يأخذ ابن إسحاق سيرته عن طريق حضور حوادثها مباشرة. فأبن إسحاق الكاتب الأول أخذ رواياته عن مجموعة من التابعين وتابعي التابعين، الذين كانوا قد أخذوها إما من الصحابة مباشرة أو ممن سمعها من الصحابي الذي حضر واقعتها مباشرة فرواها عنه، كما في قول ابن هشام (قال ابن إسحاق: حدثني ابن شهاب الزهري عن سنان بن أبي سنان الدؤلي عن أبي واقد الليثي)^١ وفي سلاسل رجال السند هؤلاء الكثير من الضعفاء والمتروكين والمدسوسين والسياسيين. ثم جاء من أخذ عن ابن إسحاق مثل زياد بن عبد الملك البكائي، ويونس بن بكير الشيباني، ومحمد بن فليح، وإبراهيم بن سعد بن إبراهيم بن

١. على سبيل المثال ينظر السيرة ٤ / ٧٢ حيث يتكرر هذا القول في أماكن أخرى غيرها.

عبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن إدريس، وسلمه بن الفضل الأسدي^١، وأخيراً جاء ابن هشام واخذ عن هؤلاء. وهذه المناقلة تشبه مناقلة قطعة ثلج بين مجموعة أيادي في العراء حيث تؤثر عليها حرارة الأيدي، والشمس المحرقة فتذيب قسما منها، كما وتسقط عليها بعض الشوائب والأوساخ خلال الطريق فتعلق بها وتختلط مع مائها وتصبح جزء من كتلتها، فضلا عن أن أيدي الناقلين تترك عادة بصماتها وأثرها عليها فتغير بعض ملامحها وشكلها وتنحتها بشكل جديد يختلف كثيرا عن شكلها الأول.

٣. إن مجرد رد ابن هشام لقسم من روايات ابن إسحاق ورفضها يؤكد وجود الدخائل فيها ولكنه لا يذكر الأسباب التي دعتهم لاختلاق هذه الدخائل وتضمينها لأصل السيرة. كما لم يذكر المعيار الذي اتبعه في رفض أو قبول الروايات، والسبب الذي أوجب رد بعض هذه الروايات وإبطالها.

٤. إن مجرد قيام ابن هشام بعملية الاختيار يعني أن هناك انتقائية قد فرضتها مجموعة دوافع منها سطوة الولاء، لأن من سوء أو من حسن حظ ابن هشام انه عاش في عز تنامي الولاءات وتنوعها في المجتمع الإسلامي الأول. ونحن نعرف أن الولاء للجماعة يفرض في أحيان كثيرة على الكاتب أو الراوي أو المحدث أن يغض الطرف عن أمور صحيحة لا تدعم نهجه أو لا تتفق معه، أو أنها تدعم نهج من يعتقد أنهم يسعون لتوهين نهجه.

٥. إن ابن إسحاق الذي كان الأساس في كتابة السيرة والمصدر الأوحى للكثير من الأحاديث النبوية- لان السيرة كانت الأساس والمصدر الذي اعتمده الكتاب الذين كتبوا السنة النبوية- كان كثير التخليط في رواياته على رأي الكثير من الاختصاصيين^٢

١. موقع إسلام الإلكتروني التابع لوزارة الأوقاف السعودية، قسم السيرة.

٢. ينظر ص ٢٨ من كتاب الإسلام لألفريد جيوم هامش بقلم المترجمين محمد مصطفى ود. شوقي اليماني.

والتخليط ليس بالأمر الهين، وهو الذي يطلق عليه العلماء اليوم اسم الخلط التاريخي أو المغالطة التاريخية ويقصد به الخلط بين التواريخ أي بين حدث ما ينتسب لحقبة تاريخية وحدث آخر ينتسب لحقبة أخرى، أو الخلط في الأسماء والتواريخ والأرقام والمواقع الجغرافية وأمور كثيرة أخرى تفقد النص التاريخي مصداقيته وتشوه الحقائق أو تقلبها، وفي عقيدتي أرى أنه لا يجوز شرعا وعرفا أن يؤتمن على سيرة النبي الأكرم من هو مصاب بآفة التخليط، فالتخليط هو التحريف بأجلى صورته.

٦. هذا بالإضافة إلى أن ابن إسحاق، مطعون ومتهم بالتدليس والدجل والكذب:

فقد قال ابن معين: ليس بحجة.

وقال النسائي وغيره: ليس بالقوي

وقال الدارقطني: لا يحتج به

وقال سليمان التيمي: كذاب.

وقال هشام بن عروة: كذاب.

وقال عنه عبد الرحمن بن مهدي: دجال من الدجاجلة. هنا أعتقد أن عبد الرحمن

استعمل صفة (الدجاجلة) وليس (الدجالين) التي هي الأصح لغويا إيغالا في النكاية!!

وقال أحمد: هو كثير التدليس.

وقال يحيى بن القطان: أشهد أن محمد بن إسحاق كذاب.

وقال يحيى بن معين: ليس بذاك^١

وقال النسائي: ليس بالقوي^٢ بل أن النسائي أورد اسمه في كتابه الضعفاء والمتروكين

وقال بالحرف الواحد: محمد بن إسحاق ليس بالقوي^٣ وكذلك ابن حبان أورد اسمه في

١. ينظر ميزان الاعتدال للذهبي ٣ / ٤٧٠ - ٤٧٢.

٢. تهذيب التهذيب، العسقلاني، ٦ / ٣٩.

٣. كتاب الضعفاء والمتروكين، النسائي، ص ٢٣٠.

كتابه "المجروحين من الحديثين والضعفاء والمتروكين" وأورد آراء مجموعة كبيرة من المختصين بالحديث بشأنه منها قول وهيب: سمعت هشام بن عروة يقول: محمد بن إسحاق كذاب، وعن حسين بن عروة قال: سمعت مالك بن أنس يقول: محمد بن إسحاق كذاب وقال أحمد بن محمد: قلت لأبي عبد الله: ما تقول في محمد بن إسحاق؟ قال: هو كثير التدليس، وقال عبد الملك: سمعت يحيى بن معين قال: محمد بن إسحاق ضعيف^١ كما أخرج عن عمر بن وجيه ألوجيهي: روى عنه: ابن إسحاق، كان فيمن يروي عن المشاهير، فلما كثر في روايته عن الثقة [هكذا في الأصل]، والصحيح الثقات [ما لا يشبه حديث الأثبات حتى خرج عن حد العدالة إلى الجرح فأستحق الترك^٢ أما سبط الشافعي فقال في كتابه "التبيين في أسماء المدلسين": محمد بن إسحاق بن يسار الإمام المشهور صاحب المغازي ممن أكثر منه [أي التدليس] خصوصاً عن الضعفاء^٣

هنا - وللأمانة العلمية- أقول أن هنالك آراء أخرى لمختصين آخرين تتناقض مع الآراء السابقة كلياً منها ما أورده الذهبي عن يحيى بن كثير: سمعنا شعبة يقول: ابن إسحاق أمير المؤمنين في الحديث، وقال: هو الصدوق، وقال ابن المديني: لم أجد له سوى حديثين منكرين^٤

وتجد مثل هذه الأقوال في أغلب الكتب المختصة، بل وتجد للشخص الواحد مجموعة آراء متناقضة في راو واحد كما في النص الذي أورده ابن حجر العسقلاني عن ابن أبي خيثمة قال: سمعت ابن معين يقول: محمد بن إسحاق ليس به بأس، وقال مرة: ليس

١. كتاب الضعفاء الكبير، العقيلي، ٤ / ٢٤ - ٢٨.

٢. كتاب المجروحين من الحديثين والضعفاء والمتروكين، محمد بن حبان، ص ٨٦.

٣. التبيين لأسماء المدلسين، سبط بن العجمي الشافعي، ص ٤٧.

٤. ميزان الاعتدال، الذهبي، ٣ / ٤٦٩.

بذاك، ضعيف، وقال مرة: ليس بالقوي^١ فهي ثلاثة أقوال متباينة في شخص واحد.

٧. إن مصادر السيرة فضلا عن كونها لم توثق إلا في القرن الثاني للهجرة وهو قرن المذهبية والصراعات السياسية وقيام دولة بني العباس وزوال دولة بني أمية، فإنها تم انتقائها من أتموجات خاصة من الرواة الذين طعموها بتوجهاتهم السياسية والعقائدية، وكما هو واضح أو سيتضح لاحقا من خلال هذا البحث، وربما لهذا السبب لا تجد لعلي وفاطمة والحسن والحسين في صحيحي البخاري ومسلم اللذان اعتمدا على السيرة ورواياتهم في كتابة قسم كبير من صحيحيهما سوى مجموعة بسيطة من الأحاديث، كما لا تجد حتى ولو حديثا واحدا لآلاف مؤلفة من الصحابة الآخرين الذين زاد عددهم عن مائة وخمسين ألف صحابي كما تقول بعض الروايات، بينما تجد لأبي هريرة مثلا ٥٣٧٤ حديثا، ولأم المؤمنين عائشة أكثر من ٢٨٥٠ حديثا، ولعكرمة مولى ابن عباس المشهور بالكذب والذي عزره (علي) أحد أبناء عبد الله بن عباس، وعروة بن الزبير الذي ولد في أواخر خلافة عمر، وعبد الملك بن مروان الذي ولد بعد الهجرة بثمانية عشر شهرا والمسور بن مخزومة الذي ولد بعد الهجرة بستين وجاء المدينة مع أهله في السنة الثامنة للهجرة وغيرهم عددا مهولا من الأحاديث، كما وتجد أن كل الذين نجح ابن حجر في إحصائهم من الصحابة في الإصابة الذي هو من أهم وأكبر الكتب المؤلفة في هذا الشأن كان ١٢٣٠٨ صحابيا من النساء والرجال فقط بينما تقول النقول أن عدد الصحابة الذين حجوا مع النبي في حجة الوداع زاد على مائة وعشرين ألف صحابي وصحابية^٢.

مما يعني أن سبعة أثمان عدد الصحابة بقي مغيبا عن الأمة التي لا تعرف عنه شيئا. وأن ما جاء عن الثمن الآخر فيه الكثير من الدس والتزييف والتحريف. نعم توجد أسباب

١. تهذيب التهذيب، العسقلاني ٩ / ٣٨.

٢. ينظر الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني.

كثيرة منعت بعض الصحابة عن التحدث بالسنة النبوية أو رواية الحديث ، ولكن ليس من المعقول أن يقتصر عدد المتحدثين بها على هذه القلة.

إن أهمية هذا العدد المحدود تبدوا أكثر وضوحا عندما نعرف مثلا أن عروة بن الزبير ومحمد بن شهاب الزهري لهما كتابين في السيرة^١ اعتمد عليهما وعلى روايتهما ابن إسحاق بشكل مباشر. وسوف تجد أثر هاتين الشخصيتين وأثر آرائهما بارزا فيما أورده ابن إسحاق ومؤثرا لدرجة أنه أفقد بعض فصول السيرة مصداقيتها خصوصا منها ما يخص الإمام علي بن أبي طالب الذي كانا يريان أنه (حاشاه الله) كان على غير ملة رسول الله حيث روى الزهري أن عروة بن الزبير حدثه قال : حدثتني عائشة قالت : كنت عند رسول الله إذ أقبل العباس وعلي فقال : يا عائشة إن هذين يموتان على غير ملتي، أو قال ديني !!

وروى الزهري أيضا عن عروة عن عائشة حدثته قالت : كنت عند النبي إذ أقبل العباس وعلي فقال : يا عائشة إن شرك أن تنظري إلى رجلين من أهل النار فانظري إلى هذين قد طلعا، فنظرت فإذا العباس وعلي بن أبي طالب^٢

المهم أن هذه الانتقائية المسيّسة، والتداولية المقننة والمنهجية تبعا لمنهاج التفاضلية السياسية أصبحت الأساس الأوحده الذي يعتمد عليه كل من يحاول البحث أو الكتابة فيما يخص السيرة سواء كان مؤيدا أم معارضا لهذه المنهجية وهذه الانتقائية حيث نجد أثر ما طرحه ابن إسحاق بارزا بشكل كبير حتى عند ابن كثير الذي كتب كتابه في السيرة في القرن الثامن الهجري^٣

١. راجع السيرة الحميرية ١ / ٨.

٢. طريق النجاة في الرد على الشبهات عن نهج البلاغة، ص ٤٦.

٣. السيرة النبوية ، إسماعيل بن كثير .

٨. إن الأعم الأغلب من الذين اهتموا برواية الحديث النبوي وقصص المغازي هم مجموعة خاصة ومحددة من أبناء وموالي بعض الصحابة المبرزين الذين اشتغلوا في العمل السياسي، أو كانت لهم حركات مجتمعية ناشطة أكثر من غيرهم. مثل عروة بن (الزبير بن العوام) وعبد الملك بن (مروان بن الحكم) وأبان بن (عثمان بن عفان) وإبراهيم سعد بن إبراهيم بن (عبد الرحمن بن عوف) وموسى بن عقبة (مولى آل الزبير). دون غيرهم من باقي المسلمين أو أبناء الصحابة الآخرين مما يعني أن طرق تفكير هؤلاء وما يؤمنون به ويعملون على إظهاره للأمة هي التي فشت وانتشرت في السيرة وقصصها دون سواء. بمعنى أن هنالك إعادة تشكيل وترسيم قد تمت لمحتوى ومضمون السيرة النبوية. وأن ما فيها يمثل وجهة نظر فئة معينة دون سواها من الفئات الإسلامية والسياسية الأخرى. وبتشخيص أدق أن ما فيها يمثل وجهة النظر الرسمية الانتقائية للوقائع والأحداث. أي وجهة نظر الدولة. وما كانت تريد السياسة للناس أن يعرفوه. والمسموح لهم التفكير فيه فقط. أما وجهة النظر الشعبية ووجهات نظر الفئات الأخرى فقد غيبت بالكامل، ولذا لا تجد لها ذكرا. أما إذا صادف وأن اقتضت الظروف ذكرها لدعم موقف ما أو لأي سبب آخر فإنها ترد عادة مشوهة أو مبتورة أو محرفة أو ناقصة، وما شابه ذلك من الحالات.

من هنا أجد أن كتب السيرة النبوية الموجودة اليوم بين أيدينا، على عظيم أهميتها، وريقها، وفائدتها العقائدية والتاريخية، وما تمثله كمصدر إشعاع فكري وعقائدي. ينبغي أن لا تمنح قدسية مطلقة مستقاة من قدسية النبي (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) وفضائل الصحابة الكرام (رضوان الله عليهم). لأن إسباغ هكذا قدسية عليها يفقدنا فرصة الوصول إلى الحقيقة، لتصحيح بعض ما تتفق غالبا على عدم صحته، والذي كان السبب في بث ما بيننا من خلاف وفرقة وتباغض. تماما كما أفقدتنا نظرية عدالة الصحابة ومنع الخوض فيما شجر بينهم فرصة معرفة الأسباب التي دعت لأن يكون

الخلاف بينهم بكل تلك السعة والشمولية التي امتدت آثارها لتصلنا بعد كل هذه السنين. وكما أفقدنا الولاء المفرط فرصة النظر بعلمية وحيادية لبعض مواقف أولئك الرجال العظماء الأفاضل الذين كانوا قرييين من النبي الأكرم لأنهم مثلاً من رجال الجانب الآخر وليس من رجالنا وكأن أمرهم لا يهمنا، فخسرنا الإفادة من تجاربهم الثرة العظيمة، وأسسنا بدلاً لذلك لقواعد ومناهج العداء والإقصاء.

ومن خلال عملي في هذا البحث عرفت أن هنالك دعوات مشابهة لدعوتي هذه ولكنها بقيت من دون تفعيل، ربما لأننا تعلمنا أن نتكلم أكثر من أن نعمل، منها دعوة الرجال الذين حققوا سيرة ابن هشام والتي جاء فيها: (ولعل النظر إلى تراث السالفين ولا سيما ما يتصل بعلم السيرة نظرة فيها الكثير من التقديس. وهو الذي حال دون هؤلاء وهؤلاء أن يقفوا من هذا العلم موقفاً فقدناه في جميع المؤلفين المتقدمين على اختلاف طبقاتهم فلم نر منهم من عرض لما تحمله السير بين دفتيها من أخبار تتصف بالبعد عن الحقيقة فنقدها وأتى على مواضع الضعف منها)^١ رغم أن هذه المواطن الضعيفة كانت السبب في بث الخلاف في المجتمع الإسلامي، هذا الخلاف الذي انعكست نتائجه على مجمل الخلافات التي نشبت بين المسلمين فيما بعد. والتي لا زلنا عالقين في أجوائها منذ خمسة عشر قرناً. لأننا أوقفنا كل جهدنا على أمور ومسائل لا تحل، بينما يرى الفيلسوف (سالبوري) أن الإنسان عنده الكثير ليعمله بدلاً من الإنكباب على مسائل لا تحل^٢. إن الله سبحانه أعطانا الوعاء الذي يمكن أن نجتمع فيه المعارف، وإذا لم نسع ورائها لنصطادها ونجمعها فيه فإنه سيبقى فارغاً للأبد، بل ويصبح عبئاً ثقيلاً علينا ننوء بحمله دون أن نستفيد منه!

١. موسوعة التاريخ الإسلامي، محمد هادي اليوسفي، ١ / ٤١.

٢. الفلسفة الوسيطية، أدوار جونو، ص ٩٠.

وأجد أن خير طريقة لجمع المعارف ولاسيما ما يخص السيرة النبوية المطهرة، ومجتمع عصر البعثة، ذلك المجتمع المميز الرائع، هي في الخوض بالجزئيات الصغيرة للأحداث سعياً للوصول إلى كلياتها، فعن طريق دراسة هذه الجزئيات المتناهية في الصغر كل على حدة تتمكن من دراسة المجتمع الكبير، وهذا ما يؤكد أهميته علماء الاجتماع، ومنهم المرحوم الدكتور الوردي الذي يقول: (المعروف في الطريقة الاستقرائية الحديثة أنها تبدأ بدراسة الجزئيات لكي تتوصل إلى فهم الكليات العامة)^١. وخير طريقة لدراسة هذه الجزئيات هي بالرجوع إلى ما جاء في كتب السيرة عنها، وبالأخص منها سيرة ابن هشام المعافري، ثم مقارنة ذلك ومقارنته مع ما جاء في كتب الحديث والتاريخ، وكتب التشريعات العقائدية، والعلوم الحديثة، والمنطق، والعقل.

أما الغاية المرجوة من هذا البحث فهي إستغلال نتائجه على قلتها للدعوة للتعاون والإفادة من معطيات العلوم الحديثة لتفكيك المشاكل التاريخية العالقة بيننا، والحكم على صحتها بالقناعات العلمية وليس بالقناعات الروحية فقط، لأن الفكرة الإسلامية الحديثة ستظل متخلفة عن المسائل الحقيقية طالما أنها تكتفي بأن تواجه المواقف التاريخية والاجتماعية بالقناعة الروحية^٢

١. دراسة في طبيعة المجتمع العراقي، د. علي الوردي، ص ٨.

٢. الإسلام بين الأمس والغد، لوي غارديه ومحمد أركون، ص ١٧٤.

الفصل الثاني

عصر الجهل، وعصر العلم،

وبين العصرين

يتناول هذا الفصل لمحة قصيرة عن العصر الجاهلي و حضارات جزيرة العرب و أديانها قبل البعثة وأثنائها، سبب تسمية ذلك العصر بالجاهلي، جغرافية مكة السياسية، الحصار الإقتصادي الذي فرض على المسلمين وتأثيراته، أبو طالب وخديجة، هجرة الطائف وهجرة الحبشة، ورأي العلوم الحديثة في ذلك كله

جزيرة العرب

يقينا أن عالم جزيرة العرب قبل البعثة الشريفة لم يكن جاهلا غبيا كما يتصوره البعض. وبقينا أن في الجزيرة وحواليها كانت هناك حضارات وتاريخ وتمدن. وإن ما كان يحدث بينها آنذاك يكاد يشبه كثيرا ما يقع اليوم بين الحضارات والجماعات والأديان. وقد كان الجنوب العربي مهدا لحضارات عظيمة أقامها السبأيون والمعينيون والقتبانين قبل ولادة السيد المسيح بأكثر من ألف عام^١ حيث قامت دولة (عاد) وعاصمتها (ارم) التي ورد ذكرها في القرآن الكريم ودولة (المعنيين) أيضا. أما في الشمال الغربي فقد قامت دولة (ثمود) التي قال عنها القرآن الكريم ﴿وَتُحَدِّثُ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِئِ﴾. وفي الحجاز قامت دولة (الجرهميين) كما قامت دولتي (طسم) و(جديس) في اليمامة^٢

هذا وقد وثق القرآن الكريم بعض جوانب وأخبار هذه الحضارات وشعوبها كما في إشاراته إلى سد مأرب، وبلقيس ملكة سبأ مع نبي الله سليمان عليه السلام الذي حكم قبل ميلاد السيد المسيح (٩٦٠ - ٩٣٥ ق.م)^٣ وعليه أجد أن (جيوم) كان موفقا في استنتاجه

١. ينظر الإسلام، الفريد جيوم، ترجمة محمد مصطفى ود. شوقي اليماني، ص ٤ - ٥.

٢. ينظر المجتمع العربي والإسلامي، د. عبد الحميد بخيت، ص ٦٤ - ٦٥.

٣. ينظر اليهود وعلم الجناس، د. الفيل ص ٨٣.

الذي يقول فيه : (ومن الصعب أن نفترض أن شعباً قد رست أصوله في شمال الجزيرة العربية وجنوبها.. والذي كان منظماً تنظيمياً قبلياً وسياسياً ، وله قوة حربية ملحوظة.. لم يكن له تاريخ تليد.. ومن المفروض أن نتوقع العثور على ذكر له في الوثائق التاريخية القديمة ، ولكننا لم نجد إشارة إليه بهذا الاسم)^١ إن عدم وجود إشارة واضحة لحقيقة هذه الحضارة المفقودة دفع الكثير من الكتاب والمؤرخين إلى إنكار وجود الحضارة من الأساس ، والإدعاء بأن بداية تحضر العرب كانت متزامنة مع قدوم الإسلام ، ومن هؤلاء جرجي زيدان في كتابه تاريخ التمدن و (رينان) الذي ادعى انه لا مكان لبلاد العرب في تاريخ العالم السياسي والثقافي والديني قبل ذلك الانقلاب المفاجئ الخارق للعادة الذي صار به العرب امة فاتحة مبدعة. يقصد الإسلام. وكان المستشرق الفرنسي غوستاف لوبون أحد الذين اعترضوا على هذه الإستنتاجات القاصرة واتهم هذه الآراء بالفساد فقال بعد مقدمة اعتراضية طويلة : ومما نبصر من خلاله ازدهار حضارة العرب الغابرة التي نسيها الناس في الوقت الحاضر^٢

وهناك من المفكرين المبرزين من نجح في تحديد تواريخ تقريبية للحقب الحضارية العربية. ولو أنني أضنه قد بالغ كثيراً لغايات إرضائية سياسية تتواءم مع طموحات حكام عصرهم. مثل الدكتور اليهودي الذي أشهر إسلامه أحمد نسيم سوسة الذي يرى أن حضارة العرب مرت بثلاث مراحل خلال تطورها التاريخي تبدأ الأولى منها في حوالي ٤٠٠٠ سنة ق.م^٣ وهو رأي بعيد جداً عن الواقع. ويتعارض مع بعض الأخبار التي تحدد عمر الإنسان الحالي بما لا يزيد على عشرة آلاف عام. بل إن المؤرخ أحمد سوسة

١. الإسلام ، الفريد جيوم ، ص ١ - ٢.

٢. حضارة العرب ، غوستاف لوبون ، ص ٩٧.

٣. حضارة العرب ، أحمد سوسة ، ص ١٥.

يذهب لأبعد من ذلك فيدعي : إن العرب في مرحلة تطورهم الثانية نجحوا باختراع الحروف الهجائية (الأبجدية) فقال : ومن المتفق عليه أن الكنعانيين الذين هاجروا من جزيرة العرب واستقروا في فلسطين كانوا أول من استعمل الحروف الأبجدية في الكتابة بحدود عام ١٨٥٠ ق.م^١

أما حوالي جزيرة العرب وقريبا منها فكانت هنالك حضارتان عظيمتان وعريقتان بلغتا شأنا عظيما من التقدم والرقى وهما الحضارة الفارسية والحضارة الرومانية حيث كانت اذرعهما تمتد إلى عمق الأرض العربية وتبسط سطوتها وقوتها بالقسر والإكراه فكان مقر الفرس في المدائن وقاعدتهم تمتد حتى الحيرة قرب الكوفة، أما الروم فكان مقرهم في دمشق الشام.

كما كانت الديانتان اليهودية والمسيحية تشغلان حيزا مهما من حواضر الجزيرة ولهما حواضر خاصة بهما في يثرب والطائف وغيرها. فنتج عن هذا الوجود والتماس تلاقي فكري بينهما وبين مجتمع الجزيرة العربية أدى إلى اعتناق مجموعات من العرب لهاتين الديانتين.

أما باقي سكان الجزيرة الذين كانوا يعبدون الأصنام فأنهم بحكم معارفهم لم تكن قدرة الله خافية عنهم وهو ما أشار إليه الفريد جيوم بقوله : ولا شك مطلقا في انه {أي الله سبحانه} كان معروفا للعرب الوثنيين في مكة على أنه أعظم ما في الوجود^٢

فإذا كان هذا صحيحا، لماذا إذا يسمى ذلك العصر بالعصر الجاهلي؟ وهل أن التسمية جاءت من الجهل ضد العلم، أم ماذا؟

وأقول جوابا، أن المقصود بهذه التسمية هو الزمن الذي سبق الدعوة الإسلامية،

١. ينظر حضارة العرب ، احمد سوسة ، ص ٣٢.

٢. المصدر نفسه ، ص ٨.

وأن القرآن الكريم هو من أطلق عليهم هذا الاسم. وإن هذا الزمن يقسم إلى قسمين ،
الأول : هو عصر الجاهلية الأولى وهو زمن تطاول وضاعت أخباره وبادت اغلب
القبائل التي شهدته والتي تسمى تاريخيا بالعرب البائدة.

أما القسم الثاني : فهو نحو مائة وخمسين عاما قبل الدعوة الإسلامية حسب رأي
الدكتور عمر فروخ^١

أما مصدر التسمية فعلى أصح الأقوال أنه مشتق من الجهل الذي هو ضد الحلم
وليس من الجهل الذي هو ضد العلم بدلالة عشرات الآيات القرآنية مثل :

قوله سبحانه وتعالى ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾^٢

وقوله سبحانه ﴿قُلْ أَغْيِرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبِدُ أَهِيَ الْجَاهِلُونَ﴾^٣

وقوله سبحانه ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾^٤

وقوله سبحانه ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَاعْزِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾^٥

وقوله سبحانه ﴿إِنِّي أَعْظِيكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾^٦.

والملاحظ على هذه الآيات أنها جميعها مكية النزول ، وإنها تقصد بتسمية
(الجاهلين) أن توضيح حقيقة الذين البشر الذين كانوا يعبدون غير الله سبحانه
(الأصنام) ولا يعرفون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ولا علاقة للتسمية بالأميين
والمتعلمين.

١. العرب ولإسلام ، عمر فروخ ، ص ١٦.

٢. القرآن الكريم ، سورة الفرقان/٦٣.

٣. القرآن الكريم ، سورة الزمر/٦٤.

٤. القرآن الكريم ، سورة الأنعام/٣٥.

٥. القرآن الكريم ، سورة الأعراف/١٩٩.

٦. القرآن الكريم ، سورة هود/٤٦.

ومصطلح (الجاهلية) المتداول حتى الآن تأسس على هذا الأصل، قاصدا نفس المعنى، وقد ورد في آيات السور المدنية على وجه التخصيص ولم يرد في آيات السور المكية. ومنه :

قوله تعالى ﴿يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية﴾^١

وقوله سبحانه ﴿أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون﴾^٢

وقوله تعالى ﴿وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى﴾^٣

وقوله تعالى ﴿إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية الأولى﴾^٤

أي أن الله سبحانه وتعالى أطلق على أهل مكة عبدة الأصنام مصطلح (الجاهليون) وأطلق عليهم وعلى العصر الذي عاشوا فيه مصطلح (الجاهلية) بعد أن ابتدأ العصر الجديد، عصر الإسلام وأصبح ذلك العصر الجاهلي في ذمة التاريخ.

الجغرافيا الديموغرافية المكية

إن الخروج من عصر والدخول في عصر آخر جديد يحتاج إلى مقدمات وأسباب وحجب تستوجب التغيير، وهدف يسعى لتحقيقه. وآليات تساهم في إنجازه. وفي مرحلة ما قبل البعثة كان العالم مهياً أكثر من أي وقت آخر للتغيير الحقيقي، على أن يحمل هذا التغيير روح التحدي وقوة المطالبة. والاستبسال المنقطع النظير. فعلى مستوى الأديان كانت العلاقة البينية مضطربة فيما بين الأديان السماوية بعضها مع بعض وبينها وبين

١. القرآن الكريم، سورة آل عمران/ ١٥٤.

٢. القرآن الكريم، سورة المائدة/ ٥٠.

٣. القرآن الكريم، سورة الأحزاب/ ٣٣.

٤. القرآن الكريم، سورة الفتح/ ٢٦.

الوثنية من جهة أخرى. كما كانت الديانات السماوية مقتنعة أن عصرها الذي تعيش فيه سيكون عصر الظهور المرتقب لآخر ديانة موعودة بها البشرية، فكان هذا الترقب مدعاة لإثارة التوتر بما يحدثه الترقب عادة من شد عصبي. فالترقب والقلق يحول الإنسان إلى كائن عصابي غاضب سهل الاستثارة. وينعكس الغضب على سلوكياته وتعامله مع الآخرين بما فيهم أقرب الناس إليه.

وعلى مستوى الديانة الحنيفية، وهي ديانة توحيدية يختلف المؤرخون في حقيقة أصلها إذ يدعي بعضهم أنها من مخلفات الديانات القديمة، ويدعي غيرهم أنها من تفرعات ديانة الصابئة، ومنهم من يقول أنها أقدم من ذلك بكثير وإنها ترجع إلى الحنيفية التي جاء بها سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام فإنها لم تكن اقل إثارة وتوترا من غيرها وهي تسمع همس اليهود عن قرب ظهور النبي الموعود المرتقب.

كثيرون من عبدة الأوثان من سكان جزيرة العرب ولد عندهم الانفتاح على اليهودية وتوسع التعامل بينهما نفره وتقززا من عبادة الأوثان التي صاروا يرونها احتقارا للعقل السليم.

أما على مستوى الحضارات فإنها على الرغم من الإنهاك والضعف الذي أصابها نتيجة التناحر فيما بينها، فإنها كانت بالفعل تخشى ظهور منافس جديد يخل بسياسة التوازن بينهما. فالعالم كما هو اليوم كان يومها يخشى المنافس المحتمل. ومع أن الخوف من المنافس الجديد ينتج عادة من الوهم والخوف والأنانية وانعدام روح التحدي والجشع والرغبة بالاستحواذ على كل شيء فهو أيضا حقيقة ضاغطة تدفع المبتلى به لالتخاذ كل الإجراءات الممكنة لعرقلة ظهور المنافس. ومن حقائق ذلك أن هذا الشعور تحول في وقتنا الراهن إلى استراتيجيات دفاعية حيث قال (بول وولفوتيز) الخبير في وزارة الدفاع الأمريكية بعد تفكك الاتحاد السوفيتي الذي كان المنافس الأقوى لأمريكا: إن هدفنا

الأول هو تفادي ظهور منافس جديد. إن هذه رؤية عامة تقع تحتها الإستراتيجية الدفاعية الإقليمية، وتتضمن سعيًا الدائم لمنع أي قوة معادية للسيطرة على أي منطقة يمكن لثروتها عندما تصبح تحت السيطرة أن تكون كافية لإطلاق قوة عظمى^١ أما زلماي خليل زاد فقد قال في رسالته التي وجهها للرئيس بوش بعيد انتخابه: إن أمريكا ينبغي لها أن تسعى لمنع نهوض أي منافس عالمي معادي أو تحالف دولي معاد^٢ وقد كتب (روبرت دريفوس): إن المفتاح الرئيسي للأمن القومي... يكمن في الهيمنة العالمية والسيطرة على جميع المنافسين المحتملين^٣

وكما تبدو أهمية المنافس اليوم فهو بالتأكيد لم يكن يومذاك أقل أهمية مما هو عليه اليوم فالكيانات الدينية والسياسية كانت تخشى ظهور هذا المنافس مما يعني أن عملية التغيير لن تكون بالأمر الهين أبداً، ولا سيما وأن الأمة التي اختارتها الإرادة الربانية لتقود عملية التغيير لم تكن ظاهراً مهياًة لتنفيذ هذه المهمة المصيرية لمجموعة أسباب موضوعية منها:

- أن القبائل العربية كانت تعيش محنة حقيقية تنخر في جسدها وتهدها كيائها وتساهم في بث الفوضى والعداء والتناحر فيما بينها. لأن كل واحدة من الحضارتين آنذاك كانت قد حولت القبائل التي تقع في مناطق نفوذها وعلى هوامش حدودها إلى مرتزقة يقاتلون القبائل الأخرى نيابة عنها، أو يشاركون جيوشها في قتال أعدائها. وفي جانب آخر كانت القبائل العربية تتناحر فيما بينها لمجموعة كبيرة من الأسباب البيئية والتكوينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والسلوكية، إضافة إلى المؤثرات

١. السياسة الخارجية الأمريكية بين مدرستين، هادي قبسي، ص ٢٨ - ٢٩.

٢. المصدر نفسه، ص ٢٩.

٣. لكي نفهم العراق، وليم بولك، ص ١١.

الخارجية مثل المكر اليهودي الذي كان يذكي روح العداء، ففي يثرب التي كان الصراع قائما فيها بين الأوس والخزرج كانت جماعة اليهود قد انقسمت إلى قسمين يؤيد كل منهما أحد طرفي الصراع ضد الطرف الآخر، فكان بنو قريظة وبنو النضير يؤيدون الأوس ويدعمونهم، أما بنو قينقاع فكانوا يؤيدون الخزرج ويدعمونهم في صراعهم مع الأوس.

- إضافة إلى أن العرب كانوا يملكون تاريخاً دموياً طويلاً نتيجة الحروب التي خاضوها ضد الحضارات الأخرى من جهة، وبينهم فيما بعضهم من جهة أخرى، وقد روى صاحب كشف الظنون وغيره أن أبا عبيدة قد ألف في أيام العرب وحروبهم كتاباً صغيراً حوى خمسة وسبعين يوماً، وآخر كبيراً جمع فيه ألفاً ومائتي يوم. وإن أبا الفرج الأصفهاني ألف كتاباً جمع فيه ألفاً وسبعمائة يوم، ومن أيامهم المشهورة يوماً الصفقة وذي قار مع الفرس وكانت باقي الأيام فيما بينهم كعشيرة لها كيائها وفيما بينهم وبين العشائر (الكيانات) الأخرى. أجد أن من الإنصاف الإشارة إلى أن مجتمعاً بهذا الإرث الدموي الثقيل ما كان قادراً على التخلي عنه ببسر لكن من عظمة الإسلام أنه شذب فيهم هذا الجانب وجاءت حروبه بعيدة جداً عن الروح الدموية التي كانت سائدة وكما سلاحظ في الفصل الثالث من هذا الكتاب وهذا ينفي عن الإسلام تهمة الدموية التي يريد الأعداء لصقها به. لكن على العموم نجح تحكم هذا التاريخ بسلوك العرب سواء من جهة تقبلهم للتغيير أو من جهة تعاملهم مع التغيير ذاته، حيث كانت الروح العدوانية طاغية على العلاقات ليس فقط بين القبائل فيما بينها، بل حتى بين الأفراد الذين تختلف مناهجهم وسبلهم وعقائدهم وولاءاتهم، والضغط والإكراهات المسلطة عليهم.

ولم يكن العرب وحدهم غير مؤهلين لقبول التغيير. بل كانت المجتمعات المعاصرة كلها غير مهيأة بسبب الحالة التي كان تمر بها. إن هذه الصورة القائمة تستوجب إحداث

نقلة كبيرة في نفسية الإنسان وفي كيان المجتمع ، لذلك كان المشروع الإسلامي الثوري الذي جاء لتغيير التراتبية يحمل روح التحدي ويتواءم كلياً مع الحالة التي يمر بها العالم. بل أن الاضطراب ذاته كان ينذر بقرب قدوم المنقذ لأن عدالة الله سبحانه تأبى أن تطفى على الإنسان روح الحيوانية والإفتراسية التي تنزع عنه إنسانيته ، هذه القيمة المعيارية العليا ﴿ولقد فضلنا بني آدم﴾.

وقد يكون هذا الأمر من اصدق الدلائل على أن ما يمر به العالم اليوم من اضطراب وفوضى وتناحر وتنافس وتنازع ، إنما هو المقدمة لحدوث آخر تغيير مدرج في البرنامج الإلهي ، وأن هذا التغيير قريب جداً ، وسيكون على يد آخر النماذج المستخلصة من الإمتحان الأول.

لكن الله سبحانه لم يشأ للتغيير أن يكون فوراً (كن فيكون) وإنما أراد له أن يأخذ المسار الإنساني الصراعي الطبيعي التدريجي ليكون في ذات الوقت كما هو تجديداً كذلك امتحاناً لاستخلاص النماذج الراقية العظيمة من المجتمع ذاته ، لكي تحمل راية التجديد والإبداع للأجيال القادمة في مرحلة انقطاع السفارة بين الأرض والسماء ولاسيما وأنه كان آخر مرحلة في البرنامج الإلهي المرسوم للكون ورسالته آخر رسالة سماوية تنعم بأفائها البشرية. أما الدليل على ذلك فيمكن استخلاصه من بين أخبار السيرة النبوية ذاتها حيث نجد أن أول المختارين لهذه المهمة التكميلية كان قطب كل ما يدور سواء كان إيماناً أم قتالياً جهادياً أم كتابياً أم تربوياً أم سلوكياً أم تعاملياً أم ثقافياً.

الجغرافية السياسية المكية (الجيو بولتيكا) :

لمكة خصوصية خاصة في قلوب عرب قريش وكل القبائل القاطنة في جزيرة العرب آنذاك لكونها تظم أول بيت عبادة وضع للناس. ورغم أن العرب كانوا يملكون أكثر من

كعبة في نجران وغيرها، إلا أن كعبة مكة كانت هي المركز على مر التاريخ، ولذا كانت القبائل تقديسها وتحترمها، وكان الأعداء يرغبون بتدميرها وتخريبها، وقد شاءت الإرادة الإلهية لمكة أن تكون منطلق آخر أطروحة تجديد كما كانت أول مراحل التجديد قد انطلقت منها حتى قبل أن يكون هنالك إنسان على وجه البسيطة يوم شاءت الإرادة الإلهية أن يكون مهبط أبينا آدم عليه السلام على أديمها.

لكن مكة كانت قبل قدوم التغيير المركز الرئيس للنصب الأصنام التي اتخذتها الأمة أرباباً من دون الله أو جعلتها شريكة له سبحانه، مما يجعل من محاولة نزعها من هذه الشراكة أمراً صعباً عسيراً.

أما ديموغرافية مكة فكانت عبارة عن خليط من الأصول القبلية والعقائدية والإثنية فهنالك قريش، بنو عبد مناف، وبنو زهرة، وبنو مخزوم، وبنو جمح، وبنو سهم، وهناك اليهود منهم المقيمين ومنهم الوافدين. والنصارى الذين علقوا صور المسيح وأمة على جدران الكعبة، ولم يعترض عليهم المشركون، وأيدهم الموحدون. المجتمع ذاته كان قائماً على نظام الطبقة المقيتة، حيث الأسياد، والعبيد، والإماء، والجواري، أما أخلاق المجتمع العامة فكانت كأخلاق أي مجتمع لا ديني آخر، حيث كان الزنا، وشرب الخمر والاستغلال، والجشع، والربا، والحرب والغزو، تعاملات يومية لا غنى عنها ولا حرج في الإتيان بها، وممارستها، حتى مع أقرب الناس.

ومن خلاصة هذه التفاعلات الإنسانية أراد الله سبحانه من الإسلام أن يؤسس لقيم وتعاملات جديدة ويوحد المجتمع، ويعيد لإنسانه هيئته، وكرامته في آخر معركة خلاص تخوضها البشرية.

وإذا كانت المجتمعات كما يقول "مكي جميل" ملزمة في أن تخوض معركة الوحدة والإدماج وخلق الولاء المشترك في معركة تطورها السياسي الاجتماعي^١ فان مجتمع مكة

١. البداوة والبدو في البلاد العربية، مكي جميل، ص ١٠.

كان حامل راية المعارضة وقائد معركة الفرقة والتشتيت، وكان المعارض الأكبر والأقوى لقيام أي بناء سياسي أو اجتماعي جديد، أي أنه كان حامل راية المعارضة الدموية لهذا المشروع. فكان هذا أحد أهم المعوقات.

ثم أنه من المعروف أن بناء هكذا كيان يحتاج إلى توافر الظروف الطبيعية إضافة لمقومات النشوء والتي يحددها اللواء "هوسهوفر" بأنها: (عدد وفير من السكان، ونسبة عالية من المواليدين، واتحاد تام بين دم السكان، وتوازن عادل بين سكان حضرها وريفها)^١ ولم يكن النبي (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) يملك أي من مقومات النشوء هذه، ولا حتى قدرة التحكم بالموجود منها، وهو بالحال التي تصفه بها السيرة والنقول الأخرى، أي أن الجغرافيا والديموغرافيا، ومقومات النشوء، كانت كلها تقف في المعسكر المعادي، أو المعارض للمشروع البنائي الجديد.

ونجد إضافة لذلك بروز الروح العدائية في المجتمع المكي ضد المستضعفين الذين اتبعوا الدعوة بعد الإعلان الرسمي لولادتها مباشرة (فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش، وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر... يفتنونهم عن دينهم. فمنهم من يفتن من شدة البلاء)^٢ والغريب في هذا الصراع الدموي المصيري، أن بعض من أصبح لهم في الإسلام شأنًا كبيراً جداً كانوا هم الذين يتولون تعذيب المسلمين الأوائل الذين سبقوهم بتلبية النداء، وقد مر أبو بكر الصديق بجارية بني مؤمل وكانت مسلمة وعمر بن الخطاب يعذبها لتترك الإسلام وهو يومئذ مشرك وهو يضربها^٣ وكان بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر وبأبيه وأمه وكانوا

١. ينظر الجيوبولتيكا، رسل أج. فيفيلد، ص ٤٣.

٢. سيرة ابن هشام، الجزء ١ / الصفحة ٢٣٥.

٣. المصدر نفسه، ج ١ / ص ٢٣٦.

أهل بيت إسلام إذا حميت الظهيرة يعذبونهم برمضاء مكة^١
 كما ونجد مقابل هذه الروح ذات النزعة العدوانية روحا أخرى تحمل بين جوانحها
 خلاصة إيمان الكون تسعى بصدق لكسب هؤلاء الأعداء إلى جانب دعوتها وهو ما
 حدث مع مرور الأيام، فأتحذ الضحية والجلاد ونشأت الحركة الجماهيرية التي وصفها
 "غوستاف لوبون" بأنها تنذر بنهاية نظام اجتماعي قائم وبداية نظام اجتماعي جديد^٢
 حيث نما العقل الجماعي من خلال تفاعل الناس في جماعة ذات هدف واحد، بعد أن
 كان لكل منهم هدفا لا يلتقي مع أهداف الآخرين.

وبالمقابل نما العقل التأمري العدائي في الجانب الآخر، فأخذ يستبطن وسائل
 التعذيب الجماعي بدل التعذيب الفردي الذي كان يوقعه على الضعفاء، ولما كان المجتمع
 المكي مجتمعا تجاريا بالأساس ووجوده قائم بالإضافة لاستغلال وجود الكعبة على
 التجارة كأهم ركيزة اقتصادية في بلد لا يصلح للزراعة يوم كانت الزراعة والتجارة هي
 المقومات الرئيسية لإقتصاد المجاميع البشرية فأن إدراكه لأهمية الحرب الاقتصادية كان من
 المسلمات البديهية، ولذلك مارس هذه الحرب ضد المسلمين كأفراد في بداية الأمر فكان
 "أبو جهل" رجل المال القرشي إذا سمع بالرجل قد أسلم - وكان هذا الرجل تاجرا - قال
 له: (والله واللات) لنكسدن تجارتك، ولنهلكن مالك^٣

وكان الحصار الإقتصادي أحد المشاريع العدائية التدميرية التي مارسها قريش ضد
 الدعوة، ولكي يجبروا الأطراف المتحالفة معهم على تطبيق هذه السياسة المجحفة قاموا
 بتوثيق الإتفاقية بصحيفة علقوها في جوف الكعبة تعاقدت قريش فيها على بني هاشم

١. المصدر نفسه، ج / ١ ص / ٢٣٧.

٢. السلوك الجمعي، د. حاتم الكعبي، ج / ١ ص / ٦.

٣. سيرة ابن هشام، ١ / ٢٣٧.

وبني المطلب (على أن لا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ولا يبيعوهم شيئاً ولا يتاعوا منهم)^١

الملاحظ هنا أن السيرة المكتوبة أشارت لهذه الحادثة المهمة بعمومية غريبة وأظهرت الأمر وكأن الحصار شمل كافة المسلمين، أما واقعاً فإنه شمل المسلمين من بني هاشم وبني المطلب تحديداً فالمسلمون من غير هؤلاء لم يشملوا بالحصار، ربما لأن النبي (صلى الله عليه وعلى آله) كان قد خصص السنين الثلاث الأولى من عمر البعثة لدعوة أهل بيته وعشيرته الأقربون، أو لأن هؤلاء كانوا هم أساس الإسلام من جهة، والحصن الذي ترى قريش أن النبي يلوذ بجواره من جهة أخرى. وقد استمرت هذه الحرب ثلاث سنين وانتهت قبل الهجرة بثلاث سنين بعد أن خرج أبو طالب ليخبر قريش: أن النبي يقول لهم: أن الله سلط على صحتهم الأرض فأكلتها ولم تبق منها سوى (هو الله)

ورغم المعاناة القاسية التي عاشها الطالبون خاصة والمسلمون عامة إلا أن الحصار لم يكن سيئاً للحد الذي يتصوره البعض، فإنه كان أحد الدروس المهمة التي أثبتت للأجيال اللاحقة عظمة رسالة الإسلام. ولا سيما وأن الأهداف التي كانت ترجوها قريش من وراءه لم تتحقق. كما أن آثاره الجانبية التي لم تكن تدركها بمحدودية عقلها لم تؤثر في المسلمين المحاصرين، حيث تفيد الدراسات النفسية الحديثة التي قام بها المختصون بالعلوم النفسية أن للحصار ظواهر نفسية منها السرقة، الرغبة بالحصول على الأشياء، الشعور بالخوف والقلق، التهيج وسرعة الغضب، الكذب، الإحساس بالتهديد والخطر، الخمول وقلة النشاط، الاكتئاب، السلوك العدواني، العزلة، فقدان

١. ينظر المصدر نفسه، ٢ / ٥.

الثقة بالنفس، الأنانية في التعامل^١ بينما نجد أن المسلمين خرجوا من هذه التجربة القاسية وهم أكثر قوة وتصميماً على مواصلة المسيرة، ولم تبدو عليهم أي من هذه الآثار الجانبية.

جناحي رسول الله

في هذه السنين الثلاث القاسية شاءت الإرادة الإلهية أن تنزع عن رسول الله جناحيه، خديجة أم المؤمنين التي كانت له وزير صدق يشكو إليها..

وأبو طالب، الذي كان له عضداً وحرزا في أمره، ومنعة وناصرًا على قومه^٢ فأما خديجة فقد أغفلت السيرة أو تغافلت عن دورها الوزاري الريادي، رغم أن النبي كان دائم الذكر لها والتذكير بدورها بعد موتها بسنين طوال، لدرجة أن بعض نساء قتلتهن الغيرة من ذلك، وقد أشارت الصحاح لأخبار هذه الغيرة ومنها صحيح مسلم الذي اخرج عن أم المؤمنين عائشة قولها:

(ما غرت على نساء النبي إلا على خديجة. واني لم أدركها.)

وفي حديث آخر: (ولقد هلك قبل أن يتزوجني بثلاث سنين، لما كنت اسمعه يذكرها.)

وفي حديث ثالث: (لكثرة ذكره إياها، وما رأيته قط)^٣

وقد رقت الغيرة بها لدرجة أن الإمام مسلم اخرج حديثاً آخر عنها جاء فيه.... (فغرت، فقلت: وما تذكر من عجوز من عجائز قريش، حمراء الشدين هلك في الدهر، فأبدلك الله خيراً منها)^٤

١. أثر الحصار الإقتصادي على الجوانب النفسية، د. سوسن أجلي، ص ٣٤ - ٥٤.

٢. ينظر سيرة ابن هشام، ٢ / ٥٧.

٣. صحيح مسلم، الأحاديث، ٢٤١٣٥ - ٧٤، ٧٥، ٧٦ الصفحة ١٠٥١.

٤. المصدر نفسه حديث ٢٤٣٧ الصفحة ١٠٥١.

وكانت السياسة النبوية دائبة التذكير بفضل خديجة حتى أنه كما جاء في حديث آخر عن عائشة أيضا كان إذا ذبح الشاة فيقول، أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة. قالت فأغضبته يوما فقلت: خديجة؟ فقال رسول الله: إني قد رزقت حبها^١ مما يؤكد أن النبي كان يلح بتذكيرهم بخديجة ويعني هذا أن لديهم خزينا كبيرا من أخبارها، فلماذا إذا تعرض سيرتها لهذا التغييب لو لم يكن ذلك متعمدا؟

أما أبو طالب هذا الدرع الحامي والقلب الحاني فقد عاملته الروايات الواردة في كتب السيرة بنفس الدرجة من الإهمال الذي عوملت به أخبار السيدة خديجة. ومع أنه لم يردنا في النقول ما يؤكد وجود رجال كانوا يغارون من ذكره إلا أن بعض ما وصل يؤكد بما لا يقبل الشك أن هنالك من الرجال الغيورين من ذكره العطر أكثر من عدد النساء بكثير. وإن أقوال النبي بحقه كانت تستفزهم لدرجة أنهم أنكروا حتى إسلامه وادعوا أنه مات كافرا. ومن تلك الأقوال الخالدة قوله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) لفاطمة ابنته: (ما نالت مني قريش شيئا أكرهه حتى مات أبو طالب)^٢ وهي مقولة يمكن لكل منصف أن يستدل بها على حقيقة العلاقة التي كانت تربط أبا طالب بالنبي الأكرم. هذه الحقيقة التي حاولت بعض الروايات حصرها في إطار من الموروث الجاهلي الخاص بالعصية القبلية للمجتمع الجاهلي دون سواها تشويها لحقيقتها الساطعة حيث جاء في طبقات ابن سعد نصا يدعي أن أبا لهب عم النبي الذي نزلت بحقه آيات القرآن الكريم ﴿تبت يدا أبي لهب وتب...﴾ جاء إلى النبي الأكرم بعد وفاة أبي طالب فقال: (يا محمد إمض لما أردت صانعا، لا واللات لن يوصل إليك حتى أموت). وحينما عاتبته عرب قريش على هذا الموقف واتهمته باعتناق الإسلام قال لهم: (ما فارقت دين عبد

١. المصدر نفسه .

٢. سيرة ابن هشام ، ٢ / ٥٧ .

المطلب ولكنني أمتنع إبن أخي أن يظلم حتى يمضي لما يريد (قالوا : (قد أحسنت وأجملت ووصلت الرحم) ^١ وكأن الأمة كانت غافلة عمن ناصب الإسلام ونبي الإسلام العدا حتى نزل القرآن يلعنه ويلعن زوجته حمالة الحطب ، أو أنها كانت غافلة عمن يقف خلف الحصار الذي أودي بابي طالب . فهذا الخبر غير المعقول إنما وضع قبالة موقف أبي طالب المساند للإسلام لكي يظهره نصرته للنبي وكأنها كانت بدافع العصبية القبلية لا أكثر .

إن العقل يقف عاجزا عن تصديق فكرة أن يكون لأبي طالب كل هذه القوة التوفيقية القادرة على أن تجعله قادرا على تقسيم ولاءه بين ضدين متعارضين من المستحيل أن يلتقيان أبدا ، وهما حبه اللامحدود للنبي ، وإخلاصه اللامحدود في ذات الوقت لموروثه الشرقي ورفض التنازل عنه حتى إكراما لأحب الناس إليه ولده محمد (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) لأن هذه التوفيقية المزعومة تعني انه حتما كان يخون أحد معتقديه ، إما حبه للنبي ، وإما إيمانه المزعوم بالأصنام وعبادتها ، بينما يجد المتابع المحايد أن كل أعمال وأقوال وأشعار أبي طالب كانت تدل على مقدار حبه اللامحدود للنبي ولدينه ، بما يعني أن ألاحتمال الآخر مجرد وهم خلقه الحراك السياسي الذي كان يستوجب أن يُتهم هذا الرجل بالشرك لينسحب هذا الاتهام وتأثيره إلى أطراف منافسة لا توجد في تاريخها العقيدي والسياسي أية شائبة يمكن استخدامها لطعنها بها .

بل أن البعض أخرج روايات أخرى تظهر النبي وكأنه كان يحمل مثل هذه التوفيقية المرفوضة فقالوا عن النبي الذي كان يكن لهذه الشخصية الفذة كل الإحترام والتقدير ، ويمتدحها في كل محفل في حياتها وموتها : (إن ناجية بن كعب قال : قال علي بن أبي

١ . طبقات ابن سعد ١ / ٢١١ .

طالب: أتيت النبي فقلت: إن عمك الشيخ الضال قد مات يعني أباه قال ﷺ: إذهب فواره ولا تحدثن شيئاً حتى تأتيني^١ إن أقل ما يمكن أن يقال عن هذه الرواية: إن علي هو التلميذ الأنجب للنبي محمد سيد القيم والأخلاق الذي جاء عنه قوله: (أدبني ربي فأحسن تأديبي) وقال الله سبحانه عنه في الكتاب العزيز ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ والنبي كان يحب أمه وأباه ويأتي إلى قبر أمة ويجلس عنده ولم يقل عنهما شيئاً سيئاً أو يدعي لهما الضلالة، مع أن الأعم الأغلب من الروايات تقول أنهما ماتا مشركين، فكيف يتأتى لتلميذه علي بن أبي طالب أن يصف والده الذي هو عم النبي وناصره بهذه الكلمة النابية أمام النبي؟

إن هذه النقول كانت إحدى آليات الحرب السياسية الضارية، لأن السياسيين استنتجوا أن أفضل ما يمكن أن تُحارب به مثل هذه الشخصيات الفذة هو الطعن بعقيدتها، ليس لأن الطاعن يولي اهتمامه للعقيدة بشدة وحرص، وإنما لأنه على يقين أن أعز ما يملكه هؤلاء الأبطال هو الإيمان بالإسلام والإخلاص لهذا الإيمان حتى النهاية. ولذا تجد السيرة وكتب الصحاح وغيرها تتعاضد لتثبت فكرة موت أبي طالب قبل أن يسلم في عقول الأمة، ليس جراء الفرق الذي يحدثه هذا المحصل، بل للتأثير الكبير الذي يتركه تسويق مثل هذه الإتهامات على الحراك السياسي طبعاً. وإلا ما الفرق الذي يحدثه إيمان أبي طالب بالإسلام أو موته مشركاً كافراً على الوضع العام للإسلام اليوم وحتى في الأمس البعيد لكي تعطى لهذا الموضوع كل هذه الأهمية المبالغ فيها على مر التاريخ؟ وليصبح فيما بعد أحد المواضيع التي لا يخلو منها أي كتاب احتجاجي، وكتبت فيها عشرات الكتب المختصة التي شغلنا عن التنبه للمؤامرات التي تحاك ضدنا وضد ديننا.

إن رفع النقول التي يقال عنها أنها (صحيحة) لراية التشكيك بجهادية هذه الشخصية الفذة كانت بدوافع طائفية وسياسية بحتة، ولذلك جاءت رواياتها متضاربة بشكل كبير، ومع أننا ألفنا التضارب في الأقوال لدرجة أن رواية الحديث النبوي شابها هذا التضارب ببعض الوهن إلا أن للتضارب في الأقوال بشأن أبي طالب خصوصية خصيصة تبدأ من الرواية التي تدعي أن النبي شفع لعمه أبي طالب، فخفف عنه، بأن أخرج من النار الكبرى إلى نار تصل إلى كعبيه، يغلي منها دماغه. وإنهاء بالرواية التي تدعي أن النبي قال له: (أي عم فأنت فقلها أستحل لك بها الشفاعة يوم القيامة. فلما رأى حرص رسول الله عليه قال: يا أبن أخي، والله لولا مخافة السبة عليك وعلى بني أبيك من بعدي وأن تظن قريش أنني أنما قتلتها جزعا من الموت لقلتها، لا أقولها إلا لأسرك)¹ مروراً بالرواية التي تقول (إن العباس بن عبد المطلب نظر إليه يحرك شفثيه، فأصغى إليه بأذنه فسمعه يقول الشهادة، فقال للنبي: يا أبن أخي والله لقد قال أخي الكلمة التي أمرته أن يقولها، فقال رسول الله: لم أسمع)². وبل هناك روايات أخرى أخرجوها عن العباس عم النبي بعضها تمتدح أبا طالب وبعضها تطعن فيه منها قوله: (يا رسول الله أترجو لأبي طالب؟ قال (صلى الله عليه وعلى آله وسلم): كل الخير أرجو من ربي)³ بينما تجد في رواية أخرى عن العباس أيضا أنه قال: (قلت يا رسول الله: هل نفعت أبا طالب بشيء فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال: نعم وهو في ضحضاح من النار، ولولا ذلك لكان في الدرك الأسفل من النار)⁴

إن جهاد أبي طالب وخديجة المستميت في نصرته الإسلام يوم قل الناصر وكثر العدو

١. المصدر نفسه ٥٨/٢.

٢. المصدر نفسه ٥٨ / ٢.

٣. طبقات ابن سعد ، ١ / ١٢٤ - ١٢٥.

٤. طبقات ابن سعد ١ / ١٢٤ - ١٢٥.

الغادر كان ظاهرة اجتماعية فريدة لا يمكن التقليل من شدة أثرها إلا بعمل منظم دقيق ، أما خلاف ذلك فيمكن لها أن تنمو وتكبر حتى تؤثر على مسيرة بعض الحركات التي كان يحدثها البعض ابتغاء تحصيل المكاسب الدنيوية. إن علماء الاجتماع يرون أنه ينبغي الإحاطة بالظاهرة الاجتماعية ودراساتها في صورة ديناميكية أثناء ظهورها وتكونها خلال علاقات ما بين الأفراد بدلا من دراستها على نحو إستاتيكي بعد حدوثها وتشكلها^١ والذي أعتقده أن السياسيين آنذاك كانوا يعرفون هذه القاعدة ولذلك استخدموا الإستاتيكية مستفيدين من ثباتها وجمودها لتمرير الحراك السياسي لدعم أطراف معينة على حساب الكلية الإسلامية المترابطة ، ولأن علماء الاجتماع يقولون : أنه لم يتسنى للإنسان كشف الوشائج والقوانين الرابطة بين الظواهر إلا في المرحلة الثالثة من قانون الحالات الثلاث التي وضعها (أوكست كانت) وهي المرحلة اللاهوتية والمرحلة الميتافيزيقية والمرحلة الوضعية العلمية ، فأن ما حصل يوم ذاك يؤكد ما سبق وأشرنا إليه في بداية البحث أن العالم لم يكن غيبا وأنه كان يملك من الإدراك ما يساوي أو يتفوق على ما جاء به (كانت)

قد يعترض البعض على أن ذلك غير معقول خصوصا من الرعيل الأول من المسلمين ، وأقول أولا : أن ليس كل المسلمين تبناوا هذا السلوك بل مجموعة محددة اشتغلت بالسياسة إضافة لإشتغالها بالدين ، وإنها شكلت قوة فاعلة كانت تحركاتها سليمة ومنتجة لما يصب في مصلحتها. وكما هو معروف بأن الضرورات السياسية تبيح المحظورات الدينية والخروج على المتعارفات الخلقية بلا تحرج ، فان هذه الضرورات هي التي دفعت البعض للتلاعب بالنصوص وصياغتها بالشكل الذي يلائمها. فإذا قالوا: إننا نقبل بهذا الرأي ، فما هي المؤثرات التي دفعت العصور اللاحقة

١. مبادئ علم الاجتماع ، حسين على الداوقوي ، ص ٤٣.

للتشبث بهذه الطروحات السياسية وهي تعرف خطأها؟

وأقول جواباً: إن هذه القوى نجحت بصياغة أطروحاتها بشكل ديني وأسبغت عليها شرعية دينية هي من أصل الخلافات السياسية ثم أدخلتها إلى نظرياتها الفقهية، فبدت على مر التاريخ وكأنها دينية الأصل فجاء المتأخرون وأخذوا بها تقليداً لهؤلاء دون البحث عن حقائقها. ويرى عالم الاجتماع (تارد) أن الحركات الأخلاقية كانت حركات إبداعية قلدت فيما بعد من قبل الجماعات ثم انتشرت فصارت اجتماعية^١ ومبدئي الإبداع والتقليد تم تطبيقهما هنا بحرفية كاملة. وكان هذا التقليد محصوراً بالوجوه التي تسيدت الحراك السياسي بعد البعثة طبعاً وليس كظاهرة فاشية في المجتمع الإسلامي الأول كله.

ومع إن هذا النجاح يعد من الأمور المميزة إلا أنه تسبب بتشويه الكثير من صفحات تاريخنا فافقده المصداقية، وحرمنا من فهم حقيقة بعض أشهر الوجوه الإسلامية. ولا سيما وأننا نعجز اليوم أن نصل لتلك الحقائق لأسباب منها أن (كانت) يقول: (أننا لا يمكننا أن نعرف أي فكرة معرفة كاملة إلا بالرجوع إلى تاريخها)^٢ ونحن لا نملك الكثير عن هذا التاريخ. أما إذا لجأنا للمقارنة فإننا لن نحصل على النتائج المرجوة لأننا كما يقول (محمد أركون): (لم نعد نستطيع التحدث عن تشابه البنى الاجتماعية - الاقتصادية والآليات السياسية بين المجتمعات الحالية ومجتمع الجزيرة العربية السائدة زمن النبي)^٣ إضافة إلى أن العالم (جون لويس) يرى أن الإنسان هو النوع الحيواني الوحيد الذي كان يتغير باستمرار منذ اللحظة التي وجد فيها، ليس ذلك طبعاً بالشكل الجسدي

١. المصدر نفسه ، ص ٣٢.

٢. مقدمة علم الاجتماع ، أرمان كوفيليه ، ص ٥.

٣. الفكر الإسلامي ، محمد أركون ، ص ١٠٩.

إطلاقاً، بل في طبيعته وفي عاداته وفي مواقفه وفي تنظيمه وفي عقليته^١ ومعنى ذلك أننا مهما جامهنا، ومهما بحثنا، سوف لن ننجح في تكوين فكرة صادقة عن ذلك العصر مع وجود كل هذه الموانع العالية.

لذا أعتقد أن هذا النوع من البحوث التي نحاول إنجازها على بساطته إذا ما أستغل الفرصة العظيمة التي يتيحها التقدم العلمي الحالي بشكل سليم قد ينجح في إعطاء فكرة مبسطة عن ذلك العصر، ويجب أن لا ننسى أن جميع الأعمال الفكرية العظيمة تبدوا بسيطة وبديهية حالما تطرح كما يقول (وود)^٢

وأما بالعودة إلى الاستدلالات العقلية، وتحكيم العقل في هذا الموضوع، فإن إجراء المقاربة بين مواقف هؤلاء ومواقف بعض معاصريهم سوف يظهر بلا أدنى شك حقيقة ما كان يجري، وحقيقة ما وصلنا عن أخباره، حيث نجد في النقول المتوفرة - على قلتها - أن قريش المشركة كانت تخشى سطوة أبي طالب وقوته، وإلا لماذا تحسب له كل ذلك الحساب؟ وأبو طالب هو ابن البيئة التي قالت أن الإسلام إنتصر بإعلان عمر بن الخطاب للإسلامه، وإن المسلمين لم يجهروا بإسلامهم إلا بعد هذا الإعلان حيث قال ابن سيرين (إمتنع به أصحاب رسول الله) وقال ابن مسعود (ما كنا نقدر أن نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريشا حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه)^٣ وإن الإسلام كان بحاجة ماسة لهذه القوة لدرجة أن النبي ﷺ كان يدعو الله بقوله (اللهم أيد الإسلام بأبي حكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب)^٤ فلماذا يتأخر أبو طالب عن هذا الخير وشخصيته أكبر تأثيراً من غيره نلمس ذلك من خلال تعامل المشركين مع

١. الإنسان ذلك الكائن الفريد، جون لويس، ٦٩.

٢. العقدة النفسية، عباس البلداوي، ص ٣.

٣. ينظر سيرة ابن هشام، ١ / ٢٥٥.

٤. المصدر نفسه، ١ / ٢٥٨.

النبي بوجوده؟ وإذا كان غيره جاهلا للخير الذي يمثله إعتناق الإسلام فانه كان كامل الإيمان بهذه الحقيقة بإعتراف كتب السيرة التي جاء فيها أنه قال لابنه علي حينما رآه يصلي بجانب النبي : (أما أنه لم يدعوك إلا إلى خير، فألزمه)^١ فهل يعقل أن هذا الرجل الحكيم يعلم غيره الحكمة ولا يعمل بها وينطبق عليه قول الشاعر (يا أيها الرجل المعلم غيره... هلا لنفسك كان ذا التعليم؟)

من خلاصة ما تقدم ندرك أن السياسة هي التي شاءت أن تشوه حقيقة هذا الرمز الخالد ربما لأن آباء كل السياسيين والوجهاء الآخرين عاشوا وماتوا كفارا، أما من أسلم منهم فكان إسلامه إما نفاقا وإما تقليدا وإما سيرا مع تيار التجديد أو قسرا كالطلاق أو مع الطلاق أساساً.

لقد تعامل الرواة والكتاب مع الأصل الأبوي تساوقا مع أطروحات السياسيين الذين تعاملوا معه بدورهم تبعا لموروثهم الفكري الجاهلي وليس الإسلامي، لأن العائلة الأبوية الكبيرة هي الشكل الأصلي العام للحياة الاجتماعية للمجتمع القرشي في تلك المرحلة، كما هي في كل المجتمعات في مرحلة معينة من تطورها كما يقول السير (هنري مين)^٢ وقد حرمنا هذا التماهي من فرصة رسم صورة حقيقية لأبطال الإسلام الأوائل وللأسف. كما ساهم هذا التوثيق غير الدقيق في رسم صورة مشوهة عن عبد الله والد الرسول الكريم بل عن الرسول الكريم نفسه. فهي بالإضافة لإدعائها أن والدي النبي عاشا وماتا مشركين وأنهما لم يكونا منزهين عن فعل الجاهلية ومتعارفاتهما بكل مساوئها. فقالت عن عبد المطلب جد النبي أنه في سبيل إنقاذ ولده عبد الله من

١. المصدر نفسه ، ١ / ١٨٥.

٢. ينظر الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، بريتشارد ، ص ٥٤.

الذبح (قام عند هبل يدعو الله)^١ وقالت عن عبد الله أنه بعد أن نجا من الذبح مر بالكعبة وكانت هناك امرأة دعتة إلى نفسها وقالت حين نظرت إلى وجهه : أين تذهب يا عبد الله؟

قال : مع أبي

قالت : لك مثل الإبل التي نحرت عنك ، وقع علي الآن!

قال : أنا مع أبي لا أستطيع خلافه ولا فراقه^٢

فمن هي هذه البغي التي تعطي مائة ناقة لعبد الله لكي يمارس معها الزنا؟ وهل أنه لو لم يكن مع أبيه كان سيوافق على طلبها؟

ولمعرفة الأثر الذي يتركه مثل هذا الحراك على الإسلام كله نجد أن المستشرقين استندوا إلى هذه النقول فخرجوا بنتيجة لخصها (جيوم) بقوله : (وكان أجداد الرسول وأسلافه من الوثنيين)^٣ بل وذهبت بعض روايات أهلنا لأبعد من ذلك حيث خرج بينهم من ادعى أن النبي نفسه لم يكن شاذاً عن حياة عصره وأنه كان مثلهم مشركاً يقدم القرايين للآلهة فجاء المستشرقون وأخذوا بهذا القول الفج ووظفوه لخدمة أهدافهم كما في قول "جيوم" : (إن الروايات تذكر أن الرسول قدم قرباناً لصنم قريش (العزى) شاة بيضاء)^٤ فجيوم لم يأت بهذه القصة إفتراء وإن كان قد جاء بها شماتة وإستصغارا، وإنما أخذها من كتاب (الأصنام) لابن الكلبي الذي قال : (وقد بلغنا أن رسول الله ذكرها {أي العزى} يوماً فقال لقد أهديت للعزى شاة عفراء وأنا على دين قومي) ورغم أن مترجمي كتاب جيوم قالوا : أن هذه الرواية ضعيفة فهي من غير سند، كما أن ابن

١. ينظر سيرة ابن هشام ، ١ / ١١٦ .

٢. المصدر نفسه ، ١ / ١١٨ .

٣. الإسلام ، الفريد جيوم ، ص ٦ .

٤. المصدر نفسه ، ص ٨ .

الكلبي مجروح وغير موثوق، وأن الرواية لم يذكرها أحد غيره، إلا أنها واقعا حفرت في وجه تاريخنا المثقل بالجراح أخذودا كمنت فيه المصائب وصار يلجأ إليه كل من يريد الطعن بالإسلام وبالنبي الأكرم.

ثم إن جميع المدارس الفقهية الإسلامية تجمع أن نبينا أفضل من كافة الأنبياء. فكيف يا ترى يقع النبي عيسى بن مريم عليه السلام من بطن أمه ساجدا لله، ويكلمهم في المهد، ويخبرهم أنه نبي الله المرسل اليهم، بينما النبي محمد الذي هو أفضل منه باتفاق الروايات والأقوال نجده يتمرغ تحت أقدام الأصنام أربعين عاما قبل أن تأتيه النبوة؟

ثم لو سائرنا عقولهم، فماذا نفهم من قصة شق الصدر التي تكلمت عنها السيرة بشكل مسهب في حديثها عن طفولة النبي عند بني سعد بمحضنة حليلة السعدية؟ وما هي فائدتها إذا لم تعصمه عن عبادة الأصنام؟

ثم ماذا كان يعمل يا ترى في "غار حراء" قبل البعثة؟ لماذا كان يقطع ستة كيلومترات ذهابا وإيابا إلى "جبل ثور" سيرا على الأقدام؟ هل كان يحتفظ هناك بصنمه الخاص ويذهب لتقديم فروض الطاعة له، وكان يعتزل الناس للتفرغ لعبادته، أم أنه كان يعبد الله الواحد الأحد سبحانه؟

وأخيرا ماذا نفهم من الأحاديث التي تؤكد على أن النبي الأكرم كان نبيا حتى قبل أن يُخلق آدم؟ حيث جاء عن جابر عن عامر قال: (قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم: متى أستنبت؟ فقال: وآدم بين الروح والجسد حين أخذ مني الميثاق)^١ وما جاء عن عرباض بن سارية في قوله: (سمعت النبي يقول: إني عبد الله وخاتم النبيين وإن آدم لمجنل في طينته)^٢

ومن هذا نعرف أن الرواة كانوا يسوقون بعض الروايات جزافا دونما تحقيق أو

١. طبقات ابن سعد ١ / ١٤٨.

٢. المصدر نفسه ١ / ١٤٩.

تمحيص، وأنهم بعملهم هذا أساءوا للإسلام ولنبيه الكريم.^١

وأما بعد البعثة فإن ما ورد في بعض مواطن السيرة عن حياته يكاد يتطابق مع التوجهات أعلاه ومنها أن قريشا وبياحاء من اليهود سألوه عن أهل الكهف وذي القرنين والروح فقال لهم: (أخبركم بما سألتهم عنه غدا، ولم يستثن {أي لم يقل إن شاء الله تعالى} فانصرفوا عنه، فمكث رسول الله فيما يذكرون خمسة عشر ليلة لا يحدث الله إليه في ذلك وحيا، ولا يأتيه جبريل... وأنه قال لجبريل حين جاءه بعد هذه المدة: لقد احتبست عني يا جبريل حتى سوت ظنا {أي حتى ساء ظني بك} ^٢ وسوء الظن واحد من الأمراض النفسية التي تصيب الإنسان الشكاك غير المتوازن، لكن مع ذلك نجد في كتب الصحاح والفضائل مجموعة من النقول التي تتحدث عن سوء ظن النبي بجبريل في مواطن كثيرة وكيف أنه (صلى الله عليه وعلى آله) كان يظن شكاً بذهاب جبرائيل بالرسالة إلى بعض الصحابة المعروفين إذا ما تأخر بالقدوم إليه حيناً من الدهر.

وقد تفنن رواة السيرة بسرد بعض القصص الأخرى عن علاقة رسول الله بجبريل ومن ذلك بعض النصوص التي تتحدث عن الإسراء والمعراج. فمع إجماع المسلمين بأن نبينا الأكرم أفضل من جبريل إلا أن روايات الإسراء والمعراج قالت: (أنه أتى النبي فوجده نائماً فهمزه بقدمه ليوقظه، فجلس فلم ير شيئاً فعاد إلى مضجعه ثم جاءه ثانية، وثالثة، وفي كل مر يهمزه بقدمه ويختفي عنه) ^٣ وهذا أسلوب تعامل فج وهمجي لا يصلح أن يكون بين قرينين يافعين غرين، ويستحيل أن يحدث بين شخصين بينها

١. لمن يريد الاستزادة بشأن إيمان آباء وأجداد النبي الأكرم يمكن مراجعة كتاب طريق النجاة في الرد على الشبهات الجزء الأول الصادر عن مؤسسة الفري للمعارف الإسلامية في النجف الأشرف فقد تناول الموضوع بشكل علمي

سلس مقبول ومدعوم بالنقول الموثقة.

٢. سيرة ابن هشام، ١ / ٢٢٠ - ٢٢١.

٣. سيرة ابن هشام ٢ / ٤١.

درجات كبيرة من التفاضل ، فهل سمعتم مثلاً أن جندياً يوقظ قائده أو من هو أعلى منه مرتبة بأن يهمله بقدمه؟ أو أن عبداً يهمل سيده بقدمه لكي يوقظه من النوم؟ إن من الحقائق البديهية (أن الملائكة مأمورون بالإيمان بالإنسان، ولعل إيمانهم بالإنسان أكبر من إيمان الإنسان بالملائكة ، فإيمان الإنسان بالملائكة باعتبارهم رسلاً من الله تعالى، أما الملائكة فإن الأمر الإلهي توجه باعتبار الإنسان خليفة الله في الأرض، وليس من آية تبين أن الملائكة خلفاء الله في السماء، مع الإقرار بشرف وعظم منزلة الملائكة.. ومن الآيات في الخلق والإرادة التكوينية أن الملائكة أمروا بالسجود لآدم بنص القرآن^١ وحتماً كان جبرائيل من ضمن الساجدين.

كما سردوا قصصاً أخرى عن بعض أخرج أوقات البعثة ، بشكل فيه الكثير من التفریط والانهزامية والتشويش ، مثل حديثهم عن هجرة الطائف. فالمعروف أن النبي كان يسعى في المرحلة الأولى من البعثة إلى تأسيس جماعة تأخذ على عاتقها تغيير المسار الفكري للبشرية جمعاء ، ولذلك كان يسعى لكسب بعض الأفراد من بين صفوف التجمعات البشرية المعروفة ليوكل لها مهمة التغيير في مجتمعاتها حيث فكان ينمي في هؤلاء روح الوعي الطبقي التمايزي الذي يجعلهم متفردين بالخصوصية الفكرية والعقائدية عن سواهم ، والوعي الطبقي كما يقول (جنزبرج): (هو شعور المرء بأنه في موقفه العام وفي سلوكه مشابه لأفراد طبقة ومختلف عن أفراد الطبقات الأخرى)^٢.

إن من شروط تكوين الوعي الطبقي لدى الأفراد هو مدى قابلية المجتمع للتغيير ومقدار سهولة أو صعوبة هذا التغيير، وقد كان النبي الأكرم مدركاً لتأثير هذين الشرطين فكان يحدد تحركه في التجمعات المعروفة آنذاك بموجبهما ، ليكتشف مدى تقبل هذه المجموع للتغيير المطلوب.

١. معالم الإيمان في تفسير القرآن، آية الله العظمى الشيخ صالح الطائي، ٣ / ١١٦ - ١١٧.

٢. علم الاجتماع ، لويس جنزبرج ، ص ١٨٧.

الطائف: هجرة أم سفرة

أما رواية نقول السيرة وكثير من مكونات الأمة يومها فلم يدركوا هذه الحقائق ، أو أنهم أدركوها ولكنهم وضعوها بقالب غير قلبها فبدت مغايرة لحقيقتها ، فهم كانوا ينظرون لحراكه (صلى الله عليه وآله) من زاوية فهمهم الخاص المحدود أو من خلال مصلحتهم ، ومن ذلك أنهم بمحدودية تفكيرهم إعتقدوا أن/ أو حاولوا أن يظهروا هجرته إلى الطائف وكأنها جاءت هروبا للتخلص من ظلم قريش وأذاها ، وأنه (صلى الله عليه وعلى آله) إنما هاجر لينجو بنفسه من هذا الظلم ولذلك قال ابن هشام : (إن النبي بعد وفاة أبي طالب وخديجة ذهب إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف، والمنعة بهم من قومه ، رجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عز وجل ، فخرج إليهم وحده)^١ وفي رواية أخرى عن جبير بن مطعم قال : (لما توفي أبو طالب تناولت قريش من رسول الله وأجترأوا عليه فخرج إلى الطائف معه زيد بن حارثة سنة عشر من حين نبي... فأقام بالطائف عشرة أيام.. فأنصرف راجعا إلى مكة وهو محزون لم يستجب له رجل واحد ولا امرأة.. فقال زيد بن حارثة : كيف تدخل عليهم يعني قريشا وهم أخرجوك؟ فقال : يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجا ومخرجا وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه). ولا تقف هذه الرواية عند هذا الحد بل تقول أن النبي الذي تحدث مع زيد حديث الواصل بن نصر الله (إنتهى إلى حراء فأرسل رجلا من خزاعة إلى مطعم بن عدي يطلب أن يدخل في جواره ليحميه ففعل مطعم)^٢ حيث تجد في القسم الأول من حديث جبير بن مطعم إشارة صريحة إلى هدف النبي الأكرم من سفره ولا أقول هجرته إلى الطائف وهي قوله : (لم يستجب له رجل واحد ولا امرأة) بمعنى أنه ذهب داعيا وليس هاربا!

١. سيرة ابن هشام ، ٢ / ٥٩.

٢. طبقات ابن سعد ١ / ٢١٣.

ثم جاء المستشرقون فأخذوا أسوأ ما في هذه الآراء ليعدونه من نقاط ضعف النبي . فقال "غوستاف لوبون" : (وترك النبي مكة حين أضحى غير قادر على مقاومة أعداءه وذهب إلى الطائف)^١

وأقول : أنه لو كان عدم القدرة على التحمل هو الذي دفعه للهجرة إلى الطائف فلماذا خرج إليها وحده؟ ولماذا رجع إلى مكة بعد أن فشل في العثور على مناصرين؟ لماذا لم يذهب من هناك إلى مكان آخر؟ لماذا عاد إلى مكة يجر جر فشله وضعفه ليكون هذا الفشل عذرا لقريش لكي توغل في معاداته وتزيد من تعذيبه وتعذيب المؤمنين به؟

ولا يقف الرواة عند هذا الحد بل يستمرون في إيراد قصص كثيرة أخرى تظهر النبي وكأنه يرتجل بعض الأعمال دون دراسة مسبقة أو وحي إلهي منزل كما سيتضح لنا عند تناول موضوع الغزوات بالدراسة في الفصول القادمة.

إن فهم الأمة حتى تلك الساعة من عمر البعثة لحراك النبي من أجل نشر الدعوة لم يكن قد تبلور أو رقى إلى درجة الواقعية بعد ، أما النبي من جانبه فقد كان يرى أن التغيير مرتبط بالزمان ، وكان مدركا لتأثير عنصر الزمان على طبيعة وسرعة التغيير ، ولذلك كان يتحرك باتجاهات مختلفة في سباقه مع الزمن وهذا النوع من الحراك يعطيه عالم الاجتماع " مور " حيزا كبيرا في دراساته كما في قوله : (إن الشعور بالزمن وإدراك التغيير مرتبطان بالخبرة الإنسانية ارتباطا معقدا.. فلا نستطيع تصور التغيير دون إدخال مفهوم الزمن ودون الإحساس بمروره)^٢

أما حقيقة الحال فإن الهجرة إلى الطائف لم تكن هروبا من الواقع ، أو طلبا للنصرة . أو إنهمامية ، أو عملا ارتجاليا غير مدروس وإنما كانت ترتبط بمنحى الصعود وقوس

١ . حضارة العرب ، غوستاف لوبون ، ص ١٠٥ .

٢ . التغيير الاجتماعي ، ولبرت مور ، ص ٣٧ .

النمو الفكري الذي رسمه النبي حسب التدرج الزماني للبعثة وأمدّها المحدود المرتبط بعنصر الزمن ارتباطاً مباشراً. ولذا أعتقد أن أهمية هذه الهجرة التي يظهرها الرواة وكأنها إحدى محطات الفشل في مسيرة البعثة، لا تقل أهمية عن كل الأعمال البنائية الأخرى للطور المكي العظيم.

إن تحدي النبي للمصاعب وخروجه وحيدا من دون حماية شخصية في رحلة إلى مكان يبعد عن مكان إقامته أكثر من تسعين كيلو مترا، وإعلان دعوته في مجتمع مشرك لا يوجد فيه من هو على استعداد لدعمه إذا ما هوجم أو تعرض للمضايقة وحتى القتل، يمثل تحديا كبيرا بكل المقاييس، ولا يتأتى للخائف الوجل الضعيف المطارد الإتيان بمثله، أو حتى مجرد التفكير فيه. ولكن الذين قيض لهم التصدي لتوثيق السيرة لم يدركوا هذه الحقائق أو يفهموها ولذلك صوروه وكأنه (صلى الله عليه وعلى آله) كان يبحث عمن يحميه هنا وهناك، وأنه فشل بالعثور على هذا الحامي المزعوم فرجع مكسورا، أي أنهم يرون هجرة الطائف وكأنها إحدى الخبرات المؤلمة التي تعرض لها النبي فكتبها في نفسه. بينما تدلنا السيرة الصحيحة للنبي على أنه ابتداء من تاريخ عودته الموفقة من الطائف إلى يوم انتقاله للرفيق الأعلى لم يشر لهذه الهجرة بما يؤيد ما ذهبوا إليه، كما لم يظهر على سلوكه العام ولو من بعيد أي مؤشر على أن هذه الواقعة كانت إحدى الخبرات المكبوتة في نفسه، وهذا ما يؤيده علماء النفس المعاصرون الذين يؤكدون أن الخبرات المؤلمة التي تحط من قدر وقيمة الفرد يحاول أن يكبت بعضها أو كلها ولكنها تبقى تؤثر بسلوكه^١ ومن يطلع على سلوك النبي في الفترة اللاحقة لعودته الميمونة من الطائف فصاعدا لا يجد أي مؤشر على وجود مثل هذا الكبت المؤثر في السلوك والذي يعجز المرء عن إخفائه ودفنه بشكل مستمر لأنه يظهر قسرا في مناسبات

١. ينظر العقدة النفسية، عباس البلداوي، ص ١٣.

معينة دون أن يتمكن المرء من السيطرة عليه أو التحكم فيه.

وكما قال "كوفيليه": (فكر المؤرخون في القرن الثامن عشر أنه يمكن أن نستخلص من مجموع الوقائع التاريخية قانونا عاما للنمو البشري)^١ أقول أننا خلافا لرواة السيرة ممكن أن نستخلص من هجرة الطائف التاريخية قانونا عاما لنمو الدعوة الإسلامية التصاعدي في المحاور الجغرافية والديموغرافية في الجزيرة العربية ولكن الرواة لم يتسنى لهم إدراك هذه الحقيقة فأوردوا قصتها بالشكل المعروف الذي فيه الكثير من قصور الرأي، وبعيدا عن سوء الظن أرى أن هذا القصور الفكري ليس بالضرورة أن يكون بدافع التخريب طبعاً. ومنه نعرف أن قيام النبي بالذهاب إلى الطائف لم يكن هجرة بالمعنى الحرفي للهجرة وإنما كان زيارة عمل أنجز فيها النبي ما ذهب لأجله ثم عاد إلى مقر عمله الرسمي، وأنها من صنف الزيارات التي كان يقوم بها للوفود التي تفد إلى مكة، حجاجاً أو معتمرين أو متاجرين، وهو ما يعرف بمبادرات "عرض الدعوة" حيث كان النبي يأتي الأقوام الذين يفدون إلى مكة في المواسم يدعوهم للإيمان بالله، فأتى كندة في منازلهم، وكلبا، وبني حذيفة، وبني عامر بن صعصعة وغيرهم.

وقد قالت روايات السيرة أيضاً أنه ﷺ كان يعرض عليهم الإسلام، ويطلب منهم المنعة (وتمنعوني، حتى أبين عن الله ما بعثني به)^٢ حيث نجد أن الجزء الأول من هذا النقل صحيح جداً، وقد أعطى نتائجه في الكثير من الحالات، بل أنه السبب المباشر لدخول الأنصار أهل يثرب في الإسلام بعد أن التقى النبي ستة أفراد من الخزرج الثريين في مكة.

أما أن ينسى النبي ربه المانع الحامي ويطلب من البشر الفانين تأمين الحماية له، وأن

١. ينظر مقدمة في علم الاجتماع، أرمان كوفيليه، ص ٩.

٢. السيرة، ٢ / ٦٢.

- يمنعوه شر قريش فهذا ما لا يصدقه العقل ، لأسباب كثيرة ومتنوعة منها :
- أن كل القبائل التي كانت تفد إلى مكة كانت ترتبط مع قريش بعلاقات اقتصادية متينة وتحالفات إستراتيجية لا يمكن أن تتخلي عنها بيسر.
 - ثم أن مجرد عرض النبي لظلامته وضعفه وخوفه من قريش بهذا الشكل أمام الآخرين يعتبر عنصر تنفير لا ترغيب لأنه يظهره ضعيفا يحتاج للحماية من الغير، والناس تبحث عادة عن تحالفات قوية تشد بها أزرها ، لا أن تكون عالة عليها ، وسببا لضعفها ، ولذا فهي غير مستعدة لأن تفسخ تحالفاتها مع قريش القوية الحاكمة ، لتعقد حلفا مع رجل ضعيف يبحث عمن يحميه.
 - هذا بالإضافة إلى أن السيرة ذاتها عند حديثها عن بيعة العقبة الأولى التي بايع فيها النبي على الإسلام إثنا عشر رجلا من الخزرج لم تذكر أنه طلب منهم النصرة أو ما شابه ، فهي تقول أنهم بايعوه على (أن لا نشرك بالله شيئا ، ولا نسرق ، ولا نزني ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتي ببهتان نفترقه من بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه في معروف)^١
- نجد بالمقابل أن دعوة النصرة أخذت بعدا آخر في البيعة الثانية لأن عدد المبايعين كان كبيرا وربما أكبر من عدد المسلمين المكيين حيث تقول السيرة أن عددهم كان ثلاثة وسبعون رجلا وإمرأتان بينما يقول الدكتور الوردى : من الحقائق التاريخية المعروفة أنه لم يدخل في دين محمد ﷺ طيلة السنوات التسع الأولى من بداية دعوته سوى أربعين^٢ ، إضافة إلى أن النبي كان قد عزم على الهجرة لأرضهم هو وأتباعه أجمعين ، بمعنى أن طلب النصرة – إذا صحت التسمية – كان مطلوبا منهم خارج مكة وليس داخلها بدلالة قول النبي لهم (أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم

١. السيرة ، ٢ / ٧٠ .

٢. حوارات في الطبيعة البشرية ، د. علي الوردى ، ص ٧٦ .

وأبناءكم)^١ ومعناه: عندما آتاكم في دياركم تعهدوا بأن تحفظوا إخوانكم من المهاجرين الذين سأسلهم إليكم كما تحفظون نساءكم وأبناءكم. زائدا أنه في تلك الحالة تعتبر النصرة أو الدفاع عن المعتقد من الأمور البديهية لأن القضية أصبحت قضيتهم، وهم أولى بالدفاع عنها، وعن أنفسهم ضد هجمات الأعداء الفعليين أو المحتملين.

• نقطة أخيرة هي أن هجرة الحبشة قريبة عهد بهذه الهجرة، ولو كان النبي خائفا وجلا من قريش بتلك الدرجة التي تظهره بها النقول، ما كان سيدفع جل أصحابه للهجرة بعيدا عنه بما يجعله هدفا سهلا للأعداء.

هجرة الحبشة

تقودنا هذه الإستنتاجات إلى البحث في شأن الهجرة الأولى أو ما يعرف بهجرة الحبشة التي يصورها الرواة وكأنها كانت فرارا جماعيا من مكة إلى بلد غريب لا يعرفون ماذا سيواجههم فيه، وما هو مصيرهم. وفيما إذا كان ذلك البلد سيستقبلهم ويرضى بمكوثهم، أم يرفضهم ويطردهم. حيث تقول كتب السيرة: (فلما رأى رسول الله ما يصيب أصحابه من البلاء.. وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء قال لهم: لو خرجتم إلى الحبشة)^٢ وتقول الروايات أن الهجرة للحبشة كانت على مرحلين. الأولى سنة خمس للبعثة وشارك بها إثنا عشر رجلا وأربعة نسوة. وأن هؤلاء عادوا جميعا إلى مكة بعد أن قوي الإسلام بإشهار عمر بن الخطاب لإسلامه سنة ست للبعثة، ثم لما إستأنفت قريش إضطهادهم مرة ثانية وقعت الهجرة الحبشية الثانية وكان عدد المشاركين

١. السيرة، ٢ / ٧٦.

٢. المصدر نفسه، ١ / ٢٣٨.

فيها ثلاثة وثمانون رجلا وثمانى عشرة امرأة^١

تجدر الإشارة هنا إلى أن النقول ومنها نقول السيرة صورت إسلام الخليفة عمر بن الخطاب وكأنه كان نقلة كبيرة في تاريخ الصراع الإسلامي القرشي بما أضفاه من قوة على الإسلام لدرجة أن المهاجرين عادوا من الحبشة إلى مكة لأنهم أمنوا بطش قريش وشرها.

وأقول بداية أن من الحقائق البديهية التي لا ينكرها أحد: إن الإسلام كان يقوى وينتصر مع كل عنصر جديد يدخل فيه، فكيف مع شخص بمنزلة عمر هذه الشخصية المرموقة، والذي كان أيضا يمثل تهديدا مباشرا للمسلمين الضعفاء بسبب قساوته عليهم وشدته معهم، ولكنه لم يكن قطعاً بالصورة التي بدا عليها في النقول، إذ لو كان هذا الأمر حقيقة كما تصوره روايات السيرة، فماذا حدث لكي تحبوه هذه القوة ويختفي سحرها والقها بعد زمن قصير جدا، أو تنقلب إلى الضد، مما ضاعف عدد المهاجرين أضعافا عديدة في الهجرة الثانية؟ بدل أن تسهم بدخول أعداد جديدة كانت من قبل تخاف الالتحاق بالدعوة؟ إن إختلاق هذه الفضيلة وحشرها في كتاب السيرة واحد من الأساليب المكشوفة التي تكرر فعلها مرات عديدة لغايات معروفة، ولذلك تجاوزها بعض الإخباريين ولم يلتفتوا إليها ومنهم المؤرخ والعالم ابن كثير الذي عزا سبب عودة المهاجرين الأوائل من الحبشة إلى الخبر الذي وصلهم (أن المشركين أسلموا وصلوا)^٢ ولم يعزها إلى إسلام عمر كما فعل ابن إسحاق وابن هشام وكثيرون غيرهم، سواء بالاستناد لرواياتهم أو لغيرها. والذي أراه أن هذا الرأي أقرب للتصديق لأن ثبات عدم إسلام قريش كان حقيقة واقعة، ولما عرف المسلمون هذه الحقيقة كرروا الهجرة ثانية.

١. ينظر العرب والإسلام، عمر فروخ، ص ٣٩.

٢. السيرة النبوية لابن كثير، ٦ / ٢.

ولو كان سبب عودتهم مرتبط بإسلام عمر ما كانوا ليهاجروا ثانية لأن إسلام عمر كان الحقيقة المقابلة لعدم إسلام قريش، وهو حقيقة ثابتة على خلاف قصة إسلام قريش كلها، الذي هو ليس حقيقة ثابتة.

إنني لا أريد هنا الانتقاص من أهمية إسلام سيدنا عمر فقد كان لإسلامه أهمية عظيمة ليس في وقته فقط بل على مر التاريخ الإسلامي، وإلى يومنا الراهن، ولكن دخوله في الإسلام لم يكن بالصورة التي نقلتها الروايات التي جاءت مغرقة بالعاطفية والمبالغة والتضخيم، في وقت يؤكد فيه الدكتور الورد أن الحضارة تقوم على أساس من التفكير الموضوعي الذي لا تتدخل العاطفة فيه^١ لأن العاطفة تدفع ناقل الخبر لصياغته بأسلوب يتماشى مع نوع العلاقة التي تربطه بالمروي عنه، حيث تمثل الحقيقة هنا جزء يسيرا من الأصل، أما الباقي فيصوغه الخيال الجامح من داخل اللاشعور، وهو ما يقول عنه الورد: (إن الإنسان حين يشهد حادثة من الحوادث لا يلتقط عقله منها إلا نقاطا معينة، هي تلك النقاط التي تحددها عوامله اللاشعورية، ثم يكمل الصورة من خياله)^٢ ثم يجب أن لا ننسى أن العصبية القبلية التي كانت قوام الحياة في العصر الجاهلي، كانت من القوة والرسوخ لدرجة أن الإسلام لم ينجح في إقتلاعها من نفوس وعقول المسلمين، رغم سعيه المستميت، ومحاولاته المتكررة، فبقيت فاعلة مؤثرة، ليس على مستوى القرارات وحدها، بل وحتى على مستوى الروايات والنقول، لدرجة أنها غيرت بعضها بما يتماشى مع هذه العصبية الموروثة، وأعاد بناء مفرداتها، ومسمياتها وتواريخها، ومضمونها، وأسبابها، ومسبباتها، وهيكلتها. ولا أعتقد أن منصفاً يمكن أن يعترض على هذا الرأي. أو يدعي أن ذلك لم يحدث.

١. حوارات في الطبيعة البشرية، علي الورد، ص ٨٢.

٢. حوارات في الطبيعة البشرية، الورد، ص ٧٨.

لقد جاءت الروايات لتظهر هذه الهجرة وكأنها على غرار هجرة الطائف، فهي كما صورت هجرة الطائف وكأنها هروب إلى المجهول قام به النبي متخلياً عن أتباعه، صورت هذه الهجرة وكأن الأتباع تخلوا عن قائدهم، وهربوا بأنفسهم بعيداً عنه. مع أنها الروايات قالت أنهم خرجوا بأمر منه، حيث يستنتج من هذا القول وكأنه ﷺ كان يريد فدائهم بنفسه، بما يشبه فكرة الفداء المسيحية التي تقول بأن السيد المسيح إفتدى البشرية بأن عرّض نفسه للقتل نيابة عنهم. ولذا أعتقد أن هذا الرأي دخيل من الإسرائيليات التي أدخلت في قصص السيرة. وهي كثيرة جداً بإعتراف كل المدارس الإسلامية. ويجد المتتبع للتنظيمات السياسية الراهنة، وحتى القديمة منها، أنه لا يوجد قائد ممكن أن يتخلى عن أتباعه بهذه البساطة وهو محفوف بالأعداء من كل جانب، ويعيش وسط ضجيج سياسي معادي.

عليه أرى أن هذه الهجرة العظيمة تحتاج من المختصين والمؤرخين وعلماء الاجتماع إلى عناية خاصة جداً، وللمجموعة أسباب منها.

- أن وضع الدعوة لم يكن يسمح بتخلي الأتباع عن قائدهم،
- أن مجموع الأتباع لم يكن يزيد على السبعين كما في بعض الروايات،
- أنهم جميعاً لم يكونوا قد استوعبوا التعاليم الكثيرة للدين وأنهم كانوا بحاجة فعلية لإستيعاب هذه التعليمات والقوانين،
- أن هجرة بعضهم إستمرت حتى سنة سبع للهجرة.

وتذكر النصوص أنه لم يبق مع النبي إلا نفر يسير منهم علي وعمار وسلمان وأبو بكر والمقداد والزبير، أما عثمان فكان من أوائل المهاجرين، وأما عمر فلم يكن قد أسلم حتى تلك الساعة، فقال قائلهم بدافع اليأس وربما على أمل الخلاص من العذاب الذي كان عمر يوقعه بالمسلمين: (لا يسلم عمر حتى يسلم حمار الخطاب)^١ ولو لم يكن في

كتاب السيرة إلا هذا الخبر، المنقول بهذه الصيغة، لكان دليلاً دامغاً على وجود التلاعب والتحريف، وألا بربك كيف يخرجون مثل هذا القول الذي حتى وإن كان وليد ثقافة بيئتهم فإنه ينضوي على قدر كبير من التطاول؟

الملاحظ والمهم أن النبي حتى بعد أن هاجر جل صحابته، لم يغير أسلوب الدعوة، وأنه كسب مجموعة أخرى إلى الدين، وذاع صيته في الآفاق، بما يؤكد أن الهجرة لم تكن هروباً ولا فداءً، وإنما هي إحدى مراحل المشروع المحمدي المخصصة لحقبة ما عرف فيما بعد بين الباحثين بإسم الطور المكي.

إن الطور المكي يعتبر بحق من أهم مراحل الدعوة، ولكنه رغم بعد حوادثه عن الصراع البيني (الإسلامي / الإسلامي) الذي كانت بداياته في الطور المدني، إلا أنه لم ينج من التحريف والتشويه المتعمد الذي مورس في زمن كتابة السيرة، ربما لأن التحريف كان من أهم مستلزمات التأسيس الحضاري للحضارات التي قامت على أرض الإسلام منذ ٤١ هجرية فصاعداً، وأن هذا التحريف شمل السنة النبوية أيضاً ابتداءً من حرقها، إلى منع التحدث بها، إلى الكذب على رسول الله ﷺ، وحتى منع من كان يحاول عقلنه ما جاء في بعضها من غريب منسوب إلى النبي، ويروى في هذا الشأن أن أحد جلساء الخليفة العباسي هارون الرشيد روى حديثاً عن أبي هريرة الدوسي يفيد أن نبي الله موسى التقى مع نبي الله آدم ودار بينهما حوار. فأستغرب جالس آخر وقال: وأين التقيا؟ فصرخ الرشيد بغضب: على بالنطع والسيف، زنديق يشكك في سنة رسول الله. وسواء كان موقف الرشيد حرصاً منه على السنة، أو منعاً للمفكرين من التحدث بهذه المستويات، أو بسبب انتشار ظاهرة الزندقة في تلك الفترة كما يدعون، فإنه كان من الموانع الدموية التي منعت الناس من الخوض في هكذا أمور رغم أهميتها.

لقد قضى الرسول الأكرم في مكة ثلاثة عشر عاماً، وهي فترة كانت كافية لأن تلفظ

له قریش فلذات أكبادها، ولم يعد لديها ما تقدمه له، لأن من بقي منهم لا يرجى منه خيراً إلا عن طريق عمل ثوري كبير، يجب الإعداد له بعناية، لكي يتناسب مع حجم التحديات الكبيرة. كما أن مكة ذاتها أصبحت عائقاً يحول دون انتشار الإسلام، لذا كان عليه أن يمد بصره إلى مكان آخر يتناسب جغرافياً وديموغرافياً وثقافياً مع سعة الإسلام التي لا تحدّها حدود. للاستفادة من الموقع الجغرافي والأثر الديمغرافي والثقافي، ثم أن قریشاً ذاتها كانت قد وصلت في هذه المرحلة إلى درجة "العتو" الخطرة التي لا تنفع معها الدعوة السلمية والعمل التربوي.

عوامل النمو

فأما الموقع الجغرافي فمعروف للجميع تأثيره الكبير على النمو الثقافي، لأن الظروف الجغرافية سلاح

ذي حدين، فهي إما أن تضع أمام المشروع الإنساني حدوداً وعوائق، كما هي حال الإسلام في مكة آنذاك، وإما أن توفر فرصاً يستغلها إن استطاع إلى ذلك سبيلاً^١ وقد أدرك النبي الأكرم هذه المعادلة بشقيها، حيث كان الإتجاه الأول الذي يمثله الطور المكي بواقعيته وحقيقته أصح مكان لانطلاق الثورة. ولكنه تحول بعد ثلاثة عشر عاماً إلى عائق كبير أمام التوسع والنمو، والثاني الإتجاه الثربي الواعد بالفرص الكبيرة التي يمكن للذكاء النبوي أن يستغله بوجهه الأمثل لتحقيق الانتشار المطلوب. فالتفكير في علاقة الجغرافيا بحياة الإنسان قديم جداً كما يقول الداوقوي^٢

كما أن علماء الاجتماع يقولون أن هناك عوامل أخرى مؤثرة في النمو الثقافي منها

١. ينظر مبادئ علم الاجتماع، حسين الداوقوي، ص ٩٦.

٢. المصدر نفسه، ص ٩٨.

التنظيم الاجتماعي والموقع الجغرافي^١ كذلك يرى محمد رشيد الفيل (إن للبيئة أثرها الفعال وأهميتها التي لا تنكر في ادوار التطور الدولي)^٢ ولما كان النبي يهدف إلى تنمية الثقافة الإسلامية من خلال إنشاء النظام الاجتماعي المسلم، فإنه كان يدرك حتما أهمية العامل الجغرافي باتجاهيه وأثره على نتائج هذا المسعى ولذلك إتخذ قراره الثوري بنقل معركة التأسيس من مكة إلى يثرب، والانتقال من ثم إلى مرحلة التكوين والكمال. ولذلك أمر أتباعه بالهجرة هذه المرة إلى يثرب. لأن المجتمع المكي كما قلنا كان قد وصل إلى مرحلة العتو. وهي واحدة من أهم مراحل الفصل والفراق بين الداعي والرافض، بين الموجه والموجه. لأنها تضع بين الإثنين جدارا سميكا لا يمكن نقبه أو هدمه إلا بعمل في مستواه وقوته، ولا يتم ذلك إلا من خلال تجديد الآليات، وتجديد الآليات لا يمكن أن يثمر إلا بإستغلال كل المتاحات، ومنها بالذات عنصر الجغرافيا والنمو الثقافي والسكاني. إن مرحلة العتو هي المرحلة الرفضية القاطعة بين الدعوة ومن آمن بها من جهة، وبين الذين رفضوها وكفروا بها من جانب آخر، حيث يصبح الأمر حديا غير قابل للتفاوض. وقد مرت الأمم السابقة بهذه المرحلة الختامية التي من الممكن أن نسميها: مرحلة القطيعة النهائية مرات عديدة. والقرآن ذاته روى لنا نماذج من عتو الأمم منها على سبيل المثال كما في قوله تعالى

• ﴿وَكَايْنٍ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرَسُولِهِ فَحَاسِبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَبْنَاهَا عَذَابًا

نكرا^٣

١. المصدر نفسه ، ص ١١٧.

٢. اليهود وعلم الجنس ، محمد رشيد الفيل ، ص ٩.

٣. القرآن الكريم ، سورة الطلاق ، الآية ٨.

- ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ إِنَّا بِمَا تَعْدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾^١
- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا كِبِيرًا﴾^٢

- ﴿أَمِنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ أَنْ أَمْسَكَ رَزْقَهُ بَلْ لَجُوا فِي عِتْوٍ وَنُفُورٍ﴾^٣

حيث كان الدمار والعذاب يأتي بعد مرحلة العتو دائما ، وكأنها محطة تجديد تمر بها الأمم الهرمة التي توقف إنتاجها ، فتتعرض لعصف ولصدمة قوية تبعث فيها النشاط والحيوية بدماء جديدة لا تعرف معنى العتو ولا تؤمن به أو تتعاطاه.

إن التغيير من سنن الحياة ، فالتغيير هو الترتيب الطبيعي لوجود البشر وللحياة الاجتماعية كما يقول "ولبرت مور"^٤ والنبي كان مدركا لهذه الحقيقة بشكل كامل لأن دعوته هي دعوة التغيير الكبرى ، ولذلك قرر الرد على عتو قريش ، ليس عن طريق إنزال العذاب والعقاب بهم مثلما وقع للأمم العاتية السالفة. وهي من الحالات الشائعة التي تحدث عنها القرآن أيضا في مواضع كثيرة، وإنما بالهجرة إلى يثرب لإحداث التغيير المطلوب ، ومن ثم شمولهم بهذا التغيير عن طريق العودة إليهم ثانية ، ومواجهة عتوهم بقوة لا يملكون الوقوف بوجهها ، قوة لها قدرة خلعه من نفوسهم وزرع الإيمان بدلا عنه.

١ . القرآن الكريم ، سورة الأعراف ، الآية ٧٧.

٢ . سورة الفرقان - الآية / ٢١ .

٣ . سورة الملك - الآية / ٢١ .

٤ . التغيير الاجتماعي ، ولبرت مور ، ص ٦٩ .

الفصل الثالث

الطور المدني

الهجرة إلى المدينة المنورة مشروع

ثورة أم ثورة مشروع؟

يتناول هذا الفصل دراسة يثرب، الموقع الجغرافي، النمو السكاني والنمو الثقافي، تغيير البنى التحتية المشاركة في انجاز الأعمال، هجرة اليهود إلى جزيرة العرب، خير وأسباب غزوها

الطريق إلى يثرب

تقع يثرب على مسافة ٢٨٠ ميلاً من مكة، وتمتاز عنها ببعض الميزات الجيولوجية والديموغرافية، إضافة إلى التشكيلة الدينية والقبائلية. وتبعاً لمواصفاتها تعتبر موقعا جغرافيا مميزا وملائما لتأسيس قاعدة الدعوة والدولة بالمفهوم المحمدي الخاص وليس بمفهوم العلوم الحديثة كعلم "الجيوبوليتيكا" الذي يرى أن هناك عوامل مساعدة يجب توفرها في المكان المزمع إقامة الحضارة فيه، ومنه قولهم: (إن الظروف الجغرافية في وادي النيل وفي دجلة والفرات كانت من غير شك مؤاتية لقيام الحضارات النهرية)^١ أو كما في قول الدكتور علي الوردي: (إن الدولة التي هي من أهم مستلزمات الحضارة لا يمكن ظهورها إلا في المناطق الزراعية)^٢. بمعنى أن عدم توفر الأنهار في المدينة يعد حسب رأي حملة التفكير الدنيوي غير مؤات لقيام الحضارة التي يسعى النبي لإنشائها.

ومع أننا سبق وتكلمنا عن أهمية الموقع الجغرافي إلا أن أهميته الفائقة تستوجب التوسع في الحديث عنه، لأن غالبية آراء العلماء والمفكرين قديما وحاضرا أجمعت على أهمية الموقع الجغرافي، فقد أشار أفلاطون في مصنفه (القوانين) إلى أهمية التأثيرات الجغرافية في تيار الفكر الفلسفي وفي التباين الخلقي بين المجتمعات، كما أشار ابن

١. ينظرن الجيوبوليتيكا، رسل فيفيلد وإتزل بيرسي، ص ١٧.

٢. حوارات في الطبيعة البشرية، د. علي الوردي، ص ٣١.

خلدون إلى أهمية العامل الجغرافي في إزدهار الحضارات وإنحسارها ، وفي القرن السادس عشر ذهب (جان بوران) إلى ما يقارب رأي ابن خلدون ، كما أقر "مونتسكيو" هذا المبدأ في القرن الثامن عشر في كتابة (روح القوانين) الذي ألفه عام ١٧٤٨ وطرح فيه نظريته عن تأثير الجغرافيا والمناخ على أخلاق الشعوب ^١ ، وتحول موضوع أهمية الموقع الجغرافي في القرن التاسع عشر إلى بديهية عامة في إيطاليا وسويسرا وألمانيا وفرنسا .

فهل كانت يثرب أرضا وسكانا وموقعا تمتلك الخصوصية المناسبة لقيام حضارة . ودولة ، تبعا لفهم هؤلاء العلماء والمختصين ؟

وأقول : أنه رغم وجود التمايز بين الموقعين الجغرافيين المكي واليثربي إلا أن يثرب لم تكن المنطقة الأمثل حسب المفاهيم المتداولة ، ولذا يعتبر النجاح المحمدي بإقامة دولته في يثرب أحد الانتصارات العظيمة التي لم يلتفت إليها المؤرخون والإختصاصيون من العرب والمسلمين وغيرهم لحد الآن . كما لم يلتفت إليها من قبل رواة وكتاب السيرة النبوية العطرة كما يجب وكما تستحق . خاصة وأن هذا التأسيس بحمد ذاته يعتبر إنجازا رائعا بكل المقاييس لأنه جاء مخالفا لكل المقاييس .

النبي الأكرم إهتم بالموقع الجغرافي اليثربي من جانبه الروحي بعد أن لمس في أهله الإستعداد الحقيقي لتقبل الدين الجديد . إضافة لأهمية جانبه المكاني المادي من حيث كونه أقرب الحواضر العربية الكبيرة من مكة ، وعليه أرى أن الاهتمام بالجانب الروحي للموقع الجغرافي من الأمور التي لم يلتفت إليها العلم الحديث لحد الآن يشكل سليما . رغم أنها يمكن أن تكون أحد الجوانب المهمة في الدراسات السياسية والاجتماعية . وقد عرضت قناة الجزيرة الوثائقية يوم ٢٠٠٨/٦/٣٠ تقريرا عن إحدى القبائل البدائية التي تعيش في أمريكا اللاتينية على خط الاستواء في مكان صخري فقير لا يصلح للسكنى .

١ . ينظر الإثنوبولوجيا الإجتماعية ، بريتشارد ، ص ٤٣ .

ولكن هذه الجماعة تأقلمت مع المكان القاسي لوجود رسومات بدائية يدعون أنها رسومات مقدسة تشير إلى مركز الأرض مرسومة على مجموعة من الصخور الطبيعية. أي أن الجانب الروحي هو الذي أمدهم بروح المقاومة التي انتصرت على قساوة الطبيعة.

وعلى هذا الأساس الروحي قرر النبي ترك مكة نهائياً والذهاب إلى موقع جغرافي آخر بهجرة جماعية حقيقية تشمل الناس والعقيدة والفكر، للبدء بتأسيس النظام الإسلامي الإداري والحكومي والعقدي. لكن مع أن جماعة المسلمين كانوا لا يزالون يحملون إرث التنقل البدوي ويمارسونه بالفعل بشكل مستمر هل يمكن لهجرة بهذا الشكل وبهذا الحجم أن تنجح؟

هجرة الثورة وثورة الهجرة

أقول بهذا الشأن: إن النظام البدوي العربي كان حتى تلك الساعة يعتاش على الترحال والإنتقال الموسمي والفصلي والمفاجئ، وكانت الهجرة واحدة من الأمور التي إعتاد عليها العربي في حياته تلك وألفها. ربما لأن استمرارية حياته وحياة حيواناته كانت قائمة على هذه الهجرات الدائرية التي لا يلبث المستقر الجديد فيها أن يتحول إلى دار هجرة جديدة، فإذا كانت الهجرة الإسلامية المزمع القيام بها من هذا الصنف وضمن هذه المواصفات، لا توجد مشكلة حقيقية في ذلك، لكن المشكلة تكمن في أنها تختلف عن ذلك كلياً، لأنها هجرة منظمة مستقيمة وليست دائرية، لها بداية ثابتة ونقطة إنطلاق وهدف محدد بعينه، وتصميم على الإستقرار الدائم، بمعنى أنها هجرة الالعودة. وهو أمر لم يألفه العربي، ولا يطمأن إليه، لأنه لا يمت لطباعه الموروثة بأي صلة.

إن البداوة التي ننظر إليها اليوم كنمط خاص بل وغط من الحياة القاسية الكظة كانت هي النمط السائد والأسلوب الدائم لحياة الإنسان^١ كما أن طبيعة المجتمع العربي

١. البداوة والبدو في البلاد العربية، مكي جميل، ص ١١.

الصحراوية، وفقدان الماء المستمر والعداء المستشري بين القبائل، أدى إلى إمتداد عصر البداوة وإستمراريته، ليس إلى زمن البعثة فقط بل إلى عصور قيام الحضارات الأموية والعباسية، بل وإلى وقت قريب جدا من وقتنا الحالي، وحتى في عصرنا الراهن، لا زالت بعض المجاميع العربية البدوية تجوب صحراء العرب بنفس الأسلوب القديم لأجدادهم الأوائل، كما لا زالت بعض المجاميع البشرية في الأمم الأخرى تمت حياتها حياة البداوة تنتقل بنفس الأسلوب، ولنفس الأسباب إلي كانت تدفع البدو العرب للتنقل. وقد أجرى أحد الباحثين في منتصف القرن التاسع عشر تقديرات تقريبية لنسبة السكان في العراق فوجد أن ٣٥٪ من سكان العراق بدو خلص و ٤١٪ ريفيون مزارعون و ٢٤٪ أهل مدن^١ أي أنه حتى منتصف القرن التاسع عشر كانت البداوة تشكل نسبة عالية تعادل ثلث السكان في العراق مهد الحضارات البشرية وأحد أكثر البلدان العربية تقدماً. أما في البلدان العربية الأخرى، ومنها على وجه الخصوص بلدان الجزيرة العربية والأردن وسوريا فالنسبة أعلى من ذلك بالتأكيد.

لكن هل يكفي أن تكون أصول المرء بدوية لكي تسهل عملية تهجيريه وتوطينه، ومن ثم إشراكه في تنفيذ الثورة؟ هل يكفي أن يتوجه هؤلاء البدو أو أشباه البدو إلى ارض لم يطأوها، وأناس لا يعرفونهم، لكي يتم التغيير؟

كلا بالطبع، فهناك أمر في غاية الأهمية، وهو مشكلة توطين الجماعة الوافدة في أرض لا يملكون فيها شبرا واحدا، وفي أرض مشغولة بالأساس من قبل أقوام آخرين هم أهلها الشرعيون، وليست خالية من السكان. في الوقت الذي نعرف فيه جميعا أن الحروب والغزوات التي كانت تقع في العصر الجاهلي في جزيرة العرب إنما كانت تقع غالبا للسيطرة على أرض أخرى تعود لقبيلة أخرى، فيها من مقومات الحياة ما لا يوجد مثله في أرضهم. وأن هذه الغارات كانت تجابه عادة بمقاومة شرسة من قبل أهل الأرض

١. حوارات في الطبيعة البشرية، د. علي الوردي، ص ٥٢.

الأصليين ، أو ممن سبق وأن وضعها في حساباته المستقبلية.

هذا فضلا عن أن توطينهم في هذه الأرض بحد ذاته لم يكن لفترة زمنية محددة وإنما كان ينبغي التحول إلى عملية بنائية إنشائية تهدف إلى خلق مجتمع جديد يعيش حياة جديدة تستوعب الوافد والمقيم. ومن مقوماته المهمة هو التنازل عن بعض العادات والتقاليد والسلوكيات المتوارثة من قبل الطرفين. وهذا ليس بالعمل اليسير لأنه ليس من السهل، بل ليس ممكناً أن يتنازل العربي ولأي سبب كان عن موارثه ومتعارفاته وعاداته وتقاليده التي يفخر بنقلها من جيل إلى جيل عبر التاريخ، والتي هي بالأساس تاريخه وتاريخ قبيلته الذي يقارع به تاريخ الآخرين. وتجد على سبيل المثال إن كثيرا من العراقيين لا زالوا إلى الآن متمسكين بعادات بدويتهم الأولى رغم كونهم سكنوا المدن منذ عدة أجيال وأقامتهم تمتد لعدة قرون.

وحتى بعد هذه المرحلة من التطبيع تبرز أمامنا مشكلة كبيرة لا يمكن تجاوزها بيسر، وهي احتياج الوافدين للمرور بمرحلة تكيف حضاري، لكي يتألفون مع السكان الأصليين، ومع أسلوب حياتهم الذي سيبدو بسبب تباين الظروف، والنشأة، والثقافة، مغايرا لما ألفوه من قبل في بيئتهم الأصلية، إذ يرى علماء الاجتماع والديموغرافيا أن أصعب جوانب التوطين هو الجانب الحضاري الاجتماعي حيث يحتاج المهاجر إلى المرور بمرحلة التوطين الانتقالية الإعدادية وصولا لمرحلة التطبيع التعايشي الذي يخلق من المجموعتين الوافدة والمقيمة مجموعة واحدة جديدة.

هنا يجب أن ندرك أن تحويل المعتقد الفكري والأخلاقي الموروث إلى معتقد إسلامي نجح في إختزال مراحل التطبيع الصعبة، وألغى المرحلة الإنتقالية خصوصاً بشكل شبه كامل، بعد أن آخى النبي الأكرم بين المهاجرين والأنصار بعملية فريدة في التاريخ الإنساني، فحول الفردية التي كانت فاشية يومذاك إلى تعاضديه تكافلية ليس

لها شبيه، خلقت رابطاً أقوى من الروابط الإثنية، وروابط القرابة والدم. ولم تحظ هذه الخطوة الجبارة بإهتمام الباحثين والدارسين بما يتناسب وأهميتها المتفردة العظيمة لا في زمن تدوين أخبار السيرة، ولا في الوقت الراهن. وأنا أحث المختصين على تناول موضوع المؤاخاة بالتحليل والدرس العلمي، إذ يمكن لهكذا دراسات أن تؤسس لعلم إجتماع جديد يختلف في مبانيه عن العلم المتداول حالياً، أو على أقل تقدير يرفد هذا العلم بنظريات جديدة هو بأمس الحاجة لمثلها. كما يمكن لطلبة الدراسات العليا تناوله في رسائلهم وأطاريحهم لنيل الشهادات العليا.

من مجمل ما سبق تتضح صعوبة المرحلة التي كانت تمر بها الدعوة الإسلامية وهي تسعى لإنشاء أول مجتمع عقائدي مسلم على وجه الأرض، ويتضح مقدار الحكمة التي كان يتمتع بها النبي ﷺ يوم دعاهم للتآخي، فالمعروف أن الجماعات المهاجرة تتخذ لها عادة أماكن معينة تتجمع فيها وتنطوي على نفسها بعيداً عن أهل البلاد الأصليين وهو طبع لا زال سارياً إلى اليوم، حيث نجد العراقيين الذين كُتب عليهم التهجير قدراً محتوماً ودائماً قد اتخذوا مدينة "ديترويت" الأمريكية مكاناً للتجمع، و"مرمره" في تركيا و"كوجه مروي" و"دولة آباد" في إيران، و"حي السيدة زينب" في سوريا فأصبحت هذه المناطق شبه مستعمرات لهم تقريباً. وكذلك الحال بالنسبة للأمم الأخرى التي أنشأ مهاجروها لهم أحياء خاصة في البلدان التي هاجروا إليها مثل "الحي الصيني" و"حي الأمريكيين اللاتينيين" و"حي الكوبيين" في أمريكا وغيرها.

أما الرسول الأكرم فإنه بواسطة المؤاخاة أدخل جماعة المهاجرين الوافدة إلى عمق نسيج المجتمع القائم. ففكك الجماعتين وأنشأ جماعة جديدة كانت ستحتاج إلى عشرات السنين لكي تندمج في الظروف الطبيعية الأخرى. هذا في وقت يجد فيه المتابع للشؤون الأمريكية مثلاً أن الكثير من الجماعات التي هاجرت إليها قبل قرنين وأكثر لا زالت

عاجزة عن الاندماج الكلي في المجتمع ولا زالت تشكو الوحدة والعزلة ولا زالت إحدى المشاكل الاجتماعية القائمة التي يبحثون لها عن حلول سواء عن طريق سياسة الأمركة التي تم العمل بها منذ القرن الثامن عشر إلى الوقت الراهن أو السياسات الأخرى التي يبدو أنها عاجزة جميعها عن إيجاد الحلول.^١

إن إنشاء وبناء مجتمع مدني جديد أمر في غاية الصعوبة، وفرص فشله عالية جدا حتى مع وجود تماثل بسيط بين حياتي المجموعتين كما هو في هذه الحالة (مجتمع مكّي عربي وافد ومجتمع يثري عربي مقيم) حيث لا يمكن أبداً لمجتمعين من أنموذج واحد كما يقول (كوفيليه) أن يكونا متمثلين تماماً، فكل جماعة إجتماعية لها فريديتها الخاصة بها^٢ وخاصة إذا كان عدد الوافدين لا يشكل إلا جزء بسيطاً من مجموع السكان الأصليين حيث يبقى تأثير الأغلبية واضحاً ومؤثراً، بل إنها تذيب الأقلية الوافدة داخل كيانها في بعض الأحيان لدرجة يصعب معها تمييزهم من حيث الطباع والسلوك عن السكان الأصليين.

هذا فضلاً عن وجود كم كبير من المعوقات الأخرى التي يمكن لعلم (الجيوپولتيكا) أو الجغرافية السياسية أن يساهم في إيضاحها.^٣ إذ يقول هذا العلم أن هنالك عوامل محددة تتحكم عادة في قيام الدولة منها:

الموقع الجغرافي: وقد تحدثنا عن هذا العامل كما مر عليكم.

شكل ومساحة الدولة: لم يكن تحديد شكل ومساحة دولة الإسلام الأولى بالأمر

١. ينظر كتاب من نحن لصموئيل هنتغتن الذي يبحث في هذه المسألة وحلولها .

٢. مقدمة في علم الاجتماع، أرمان كوفيليه ، ص ١٥٤ .

٣. الجيوپولتيكا: هو علم دراسة الوحدة السياسية (الدولة) في بيئتها الجغرافية ، وأهم مستلزماته معرفة الأرض والدولة . ويعرف أيضاً بأنه النظرية التي تبحث في قوة الدولة بالنسبة للأرض أو التطورات السياسية من حيث علاقتها بالأرض (للتوسع ، ينظر: الجيوپولتيكا ، رسل هـ . فيفيلد وج . إتزل بيرسي ، ص ١١ .

الهيّن لأن الإسلام ذاته غير محدود بزمان أو مكانن لكن هذا لا يعني أن النبي الذي إختار يثرب لتكون مساحتها المحدودة وشكلها المعروف رقعة رسمية لأول دولة لم يكن قد وضع في حساباته الرؤى المستقبلية وإلا فأن جغرافية يثرب لا تختلف كثيرا عن جغرافية مكة.

المناخ: يدعي هذا العلم أن المناخ الصحراوي الجاف يعتبر أحد أهم العوامل المؤخرة لظهور القوة السياسية (الدولة) في الوقت الذي نجح فيه النبي بإقامة دولته المتكاملة طبقا لمقاييس ذلك الزمان بزمان قياسي. وأعتقد أن نشأة الدولة الأولى تحتاج لتبسيط الأضواء عليها من قبل ذوي الاختصاص.

السكان: وكم كان مجتمع يثرب غريبا في تكوينته السكانية حيث كان هنالك المسلمون الأنصار، والمنافقون، والمشركون، واليهود إضافة للمسلمين الوافدين من المهاجرين أي كان التجانس السكاني معدوما تقريبا. يضاف له أن عملية إقتلاع مجموعة سكانية من موطنها الأصلي وإرسالها بعيدا عن طفولتها وذكرياتها وأصولها العشائرية ليس بالأمر السهل بكل المقاييس المعروفة. وكذلك المزج بين مجموعة سكانية مفلسة من كل شيء ومجموعة سكانية تملك كل شيء. ولا رابط بينهما سوى الرابط الروحي الإسلامي الذي لم يزل غضا طريا في الأفئدة والعقول إنما هو من الأعمال الجبارة وليس بالأمر الهيّن مطلقا، فللعامل الإقتصادي أثرا فاعلا في تيسير أو تأخير عملية التطبيع، حيث نجد مصداقه في قول الإمام علي بن أبي طالب (الفقر في الوطن غربة، والغنى في الغربة وطن)

وتشكل هذه المعوقات ضغطا كبيرا على القيادة التي تسعى لإنشاء مجتمع مدني جديد ممكن أن يتسبب بفشل المشروع، لكن الذي حصل قلب كل الموازين، ليس من خلال النجاح المتحقق فقط، بل ومن خلال النمو السكاني العالي الذي رافق هذه

العملية حيث تحولت المئات المحدودة من المسلمين خلال بضع سنين إلى أمة كبيرة جدا، يعطينا الانطباع الكامل عنها تنامي عدد أفراد جيش الإسلام الذي نجده في معركة بدر التي وقعت بعد خمسة عشر سنة من عمر البعثة أكثر من ثلاثمائة بقليل ليرتفع في أحد إلى أكثر من سبعمائة ثم إلى ثلاثة آلاف يوم الخندق وينتهي في حجة الوداع بأكثر من مائة وعشرين ألفا حسب بعض الروايات، ولو طبقنا هنا الدراسات الإحصائية التي يتبعها علم الديمغرافيا^١ من خلال دراسة التغير (السكان) والمتغير (العوامل السكانية) سنثبت أن النمو السكاني للمجتمع الثري الحديث خرج عن كل متعارفات ونظريات العلوم الحديثة، مما يعني أن ما حدث يومذاك كان بحق مشروع ثورة جبارة تستحق أن تأخذ مكانها الطبيعي في الدراسات التخصصية والأكاديمية بعيدا عن طرائق السرد التاريخي الوصفي المتبعة حاليا، والتي تشبه قصص جداتنا التي كن يروينها لنا في الصغر. والأغرب من ذلك كله أن هذا النمو استمر بالاتجاهين العمودي والأفقي وبقي مستمرا وفاعلا حتى يومنا الحاضر حيث نجد أن عدد المسلمين اليوم يتجاوز المليار، أي حوالي خمس سكان العالم، أما عدد العرب الذين قام على أكتاف أجدادهم دين الإسلام فلا يزيد عن نسبة ١٠ ٪ من هذا المجموع. بل أن نسبة مسلمي باكستان والهند مجتمعين باتت أكبر من نسبة العرب المسلمين مجتمعين مما يعني أن عشرات الإثنيات الأخرى من غير العرب هي التي تشغل الفضاء الجغرافي للإسلام ديموغرافيا في الوقت الراهن ولذا أرى إن من الإنصاف أن نعطي هذه الثورة مكانتها الحقيقية لكي يفهم العالم حقيقة الإسلام بعيدا عن الفهم السطحي المتفشي الآن.

إن عملية الهجرة الجماعية من مكة إلى المدينة كانت في الواقع من أكبر المشاريع الثورية التي عرفتتها الإنسانية عبر تاريخها الطويل، ولكن فهمها لم يرق عندنا إلى

١. السكان ديمغرافيا وجغرافيا، د. محمد سيد غلاب و د. محمد صبحي عبد الحكيم، ص ٣.

المستوى المطلوب، رغم التطور العلمي الذي ندعي أننا نعيشه، ولذا لم يكن من السهل على الرواة الأوائل أن يدركوا أهميتها، فاكتفوا بالادعاء مثلاً أنها حدثت لسببين إثنين هما: (نزول آية الحرب، وإسلام بعض أهل يثرب)^١ ثم جاء المستشرقون وأخذوا عنهم هذا الإدعاء وأضافوا له ما استنتجوه من النقول الأخرى دون الالتفات للجوانب المهمة التي بينها، حيث يذهب المستشرق (فلهوزن) إلى أن مكة كان يسودها الهدوء والنظام، أما المدينة فانقسمت الجماعة فيها إلى معسكرين متعادين هما الأوس والخزرج، فكانت الحاجة ماسة إلى رجل يدخل في الفرجة المفتوحة بين الفريقين، ويقضي على الفوضى^٢ لكنه يذهب ليناقض نفسه حينما يقول عن المدينة: (وكانت اليهودية والنصرانية قد مهدتا الأرض في المدينة). ثم يعود مرة أخرى فيدعي أن المدينة كانت تقع على حدود ذلك الجزء من جزيرة العرب المتعرض للتأثير اليوناني - الروماني والنصراني - الآرامي^٣ أي أن فلهوزن والرواة الأوائل لأخبار الهجرة وحتى (جيوم) بل وكل الذين تناولوا موضوع الهجرة بالدرس إنما إعتمدوا نظرية "تعاقب الارتباطات" في تحديد أسباب الهجرة من خلال محاولاتهم الربط بين الأحداث ونتائجها فجيوم مثلاً قال مستنداً إلى بعض نقول السيرة: (أن هاشم جد النبي كان قد تزوج امرأة من يثرب من قبيلة عدي بن النجار وهي فرع من قبيلة خزرج وهكذا نجد أن للرسول روابط دموية بالمدينة)^٤ أي أن رابطة الدم هي التي جعلت النبي يفضل يثرب على غيرها فيهاجر إليها، وهذا رأي سقيم لأن روابط الدم بين النبي وقريش أكبر من روابطه بقبيلة عدي اليتيمية.

١. سيرة ابن هشام، ٢ / ٩٦.

٢. تاريخ الدولة العربية، فلهوزن، ص ٦ - ٧.

٣. المصدر نفسه، ص ٦.

٤. الإسلام، الفريد جيوم، ص ٢٥.

أما "فلهوزن" واستنادا إلى نقول مشابهة فقد ادعى تأسيسا على نظرية تعاقب الإرتباطات أن مكة كانت تستصغر شأن النبي، وقریش كانت تعذب المسلمين، ويشرب كانت تدور بها معارك مستمرة بين الأوس والخزرج، واليثریون مهیئون لقبول فكرة التوحيد التي جاء بها الدين الجديد لأنهم تأثروا بالديانات التوحيدية التي عايشتهم وأن هذه الإرتباطات المتعاقبة هي التي دفعت المسلمين للهجرة. أي أن المشاكل القبلية بين الأوس والخزرج سهلت قيام دولة النبي. في وقت أدعى فيه الدكتور الوردی: أن النظام القبلي لا يساعد على نمو الحضارة^١ عمر فروخ من جانبه يرى أن إدراك المكين بأن رسول الله هو عدوهم الأول وتصميمهم على قتله هو الذي دعاه لإصدار الأوامر لاتباعه بالهجرة^٢ لكنه مع ذلك عاد ليدعي أن العالم شهد منذ القرن الرابع الميلادي قبائل تتدفق من أواسط آسيه وتنتشر في العالم المتمدن فتغير معالمه، وأن هذه القبائل كانت تمثل هجرات متلاحقة لأقوام ضاقت بهم بلادهم فخرجوا يطلبون بلاد جديدة^٣ ثم يعود فيقول: أما في القرن السادس للميلاد فكثرت المهاجرون النصارى واليهود في اليمن^٤ فإذا صدق رأيه الأول فذلك يعني أن الهجرة كانت من المعارف الحياتية التي تمارسها الأقوام البدوية تبعا للظروف والحاجة الآنية وهي التي قلنا عنها سابقا أنها هجرات دائرية لا يقصد بها الإستقرار النهائي، ولا علاقة لها بهجرة أتباع الديانتين إلى اليمن في القرن السادس لأن أحد الأسباب الخفية لهجرتهم هذه إنما كانت محاولة رصد وتأشير ولادة النبي الموعودون بولادته في هذا القرن كما أشارت لذلك كتبهم، وهي الولادة التي وقعت حقا عام ٥٧٠ ميلادية،

١. حوارات في الطبيعة البشرية، د. علي الوردی، ص ٣١.

٢. العرب والإسلام، عمر فروخ، ص ٤٠ - ٤١.

٣. العرب والإسلام، عمر فروخ، ص ٢١.

٤. المصدر نفسه، ص ٣٥.

وأجد أن كل هذه الآراء قد جيء بها للتغطية على حقيقة الهجرة، أو أنها آراء تحليلية جيء بها نتيجة عدم فهم الأسباب الحقيقية للهجرة المحمدية، وأننا ساعدناهم على ترويح مثل هذه الأفكار الشاذة بما قدمناه لهم على طبق من ذهب فيما يعرف بروايات كتب السيرة.

وآخر ما أريد الإشارة إليه في هذا الشأن أن وفود المهاجرين إلى يثرب أحدث تغييرا كبيرا في كل بناها الاجتماعية والديموقراطية والجغرافية والسياسية والعقائدية، وأعاد ترتيبية التقسيم الطبقي للمجتمع. ولذلك كان هناك من أعترض على هذا التغيير وعارضه قولا وعملا وبشدة. لأن مقاومة التغيير هي من الطبائع البشرية التراثية الفاشية بين الناس، فهم يعتقدون أنه سيقرب حتما ترتيبية المجتمع التي تعودوا عليها منذ أمد بعيد.

المشاركة في إنجاز الأعمال:

وإضافة لكل المشاكل المتراكمة كانت هنالك مشكلة توفير أماكن سكن للوافدين، ومقرات إدارة الدولة وقيادتها، فأما مشكلة السكن العائلي فقد حلتها المؤاخاة، لكن لما كان النبي قد تأخى مع مهاجر آخر هو علي بن أبي طالب وليس مع أحد الأنصار فمن المفروض إقامة مقر رسمي لسكناه ولإدارة الدولة، هنا تقول كتب السيرة: (فأمر به رسول الله أن يبنى مسجدا ونزل رسول الله على أبي أيوب الأنصاري حتى بنى مسجده وأنه ﷺ شارك المسلمين في بناء المسجد لكي يرغب المسلمين في العمل فيه، فعمل به المهاجرون والأنصار ودأبوا فيه)^١ بمعنى أنهم حصروا مشاركة النبي في بناء المسجد بالسبب التشجيعي وحده، وأغفلوا الأسباب الحقيقية التي تقف خلف هذه المشاركة،

١. سيرة ابن هشام، ٢ / ١٢١.

وأنا أعذرهم على قصور الرأي هذا، إذ لا ينكر أن هنالك من بين المسلمين آنذاك من كان متوتراً لأنه لم يدرك، أو لم يحسن تحديد درجة التغيير الحاصل، ولم ينجح في التوفيق بين نوع التغيير الحاصل نتيجة الحراك السياسي، ودرجة قربيه من التغيير الأول الذي قاده النبي. ويقول علماء الاجتماع عن التوترات: أنها قد تحدث نتيجة إنعدام التزام بين أنواع التغيير ومعدلاته^١ وأعتقد أن هذا التوتر هو الذي حدد مديات بصيرتهم فحصر تفكيرهم في كيفية إرضاء القيادات أكثر من كيفية إرضاء الضمير، ولذلك انحصرت مديات رؤيتهم ضمن إطار وجه واحد من أوجه الهرم، مع إهمال كامل للأوجه الأخرى. وبعد كامل عن السياقات التي تحددها (الأدائية) ذلك المذهب الاجتماعي الذي يرى أن السلوك الاجتماعي ومختلف بنود الثقافة لا يمكن أن تفهم إلا في وضعها أو سياقها^٢. أو أنهم لم يفهموا الدوافع الحقيقية التي جعلت النبي يشاركهم في البناء مع أن النبي كان كما هو ظاهر مدركاً لأهمية العمل الجماعي في بناء المشروع السياسي الديني، لأنه يؤمن أن هذا النوع من العمل الجماعي هو أحد أسباب ديمومة المجتمعات وإستمراريتها. والمشروع الإسلامي جاء ليبقى ويستمر على مر التاريخ. أي أنه ﷺ كان يعرف معنى الأدائية حتى قبل أن يتوصل العلماء لوضع نظريتها، دليل ذلك أن الأدائية تذهب إلى أن أي مجتمع يريد أن يبقى على مر الزمان كمجتمع عليه أن يقوم ببعض أنواع العمل الجماعي^٣ ومنه ندرك الدافع الحقيقي لفعل النبي، وأنه لم يكن تشجيعياً كما تريد السيرة أن توضح وإنما كانت له علاقة بالتغيير الاجتماعي الذي كان يريد أن يقوم به. أي أن فعله ﷺ كانت له علاقة مباشرة بما يعرف اليوم بـ (السلوك

١. التغيير الاجتماعي، ولبرت مور، ص ١٢.

٢. المصدر نفسه، ص ١٧.

٣. ينظر المصدر نفسه، ص ١٩.

الجمعي) الذي يعرف بأنه وسيلة مهمة في التغيير الاجتماعي على حد منطوق نظرية (سوروكن) وأنه العامل المحرك الذي يحدث بواسطته ومن خلاله التغيير الاجتماعي الذي يكون إتجاهه الجديد مقررا مسبقا وسلفا^١ ذلك لأن السلوك الجمعي من أهم عوامل المحافظة على النظام الجديد وتركيزه، وهو ما كان يسعى إليه النبي من وراء مجمل حراكه الاجتماعي والسياسي الذي كانت غايته بناء نظام قيمي جديد. والسلوك الجمعي أحسن اختبار لشدة تعلق جماعته من المهاجرين والأنصار بهذا النظام. ولذلك نرى أن الرسول الأكرم أعاد ممارسة هذه المشاركة مرات أخرى لتوطين هذا المفهوم في نفوس المسلمين، ومنها مشاركته بالعمل في حفر الخندق، فأول ما تهتم به كتب السيرة من خبر غزوة الخندق وأحداثها هو مشاركة النبي للمسلمين في حفر الخندق (ترغيبا في الأجر)^٢ كما تقول. ويعيدنا هذا إلى المربع الأول وأقصد به مشاركته ﷺ في بناء المسجد بعد قدومه إلى المدينة، وكيف أنهم لم يدركوا الغاية والهدف الحقيقي من وراء هذه المشاركة، الاختلاف بين الواقعتين هو قولهم أن مشاركته هنا جاءت ترغيبا لهم في الأجر الأخروي. وترغيبهم في الأجر يعني حثهم على العمل المفضي للأجر، ولم يلتفتوا للفروقات والاختلافات بين التاريخين، والنمو السكاني الكبير والحالة المعنوية للأمة ورسوخ الإيمان في الصدور وما يعنيه لهم تحدي قريش و الإنتصار عليها، ويعني هذا أننا نقف أمام مشروع فيه (ثوابت) يمثلها الأنصار ويشرب وعاداتها وقيمها ومثلها وسلوكيات مجتمعتها و(متغيرات) يمثلها المشروع البنائي ألقيمي الروحي الرسالي ومجموعة الوافدين الذين يحملون رؤى تختلف عن رؤى أهل البلد، ولما كان "د. موريس جنزبرج" قد قال: (إن علم الاجتماع يحاول أن يحدد العلاقة بين الأجزاء

١. السلوك الجمعي، د. حاتم الكعبي، ج ١ / ٢٤.

٢. المصدر نفسه.

والعوامل المختلفة للحياة الاجتماعية وأن يميز بين الأحوال السياسية لكل من المتغير والثابت (الاجتماعيين)^١ فذاك يدلنا على أن النبي كان على إطلاع لدني بهذه العلوم الحديثة وأن رغبته ببناء مقر السلطة الروحي والقيادي بطريقة العمل المشترك ومشاركته المباشرة بالعمل فيه كانت له أهداف هي غير تلك التي تحدث عنها الرواة. فالمسلمون الذين تركوا خلفهم كل ما يملكونه من الماديات والروحانيات ليهاجروا إلى الله لم يكونوا بحاجة لمن يحثهم على المساهمة الجادة في إنجاز هذا المشروع الرمزي. بل جاءت مشاركة النبي فيه لأنه كان يدرك أن للمجتمعات أنساقاً طبيعية تعتمد أجزاءها بعضها على البعض الآخر، وإن المسجد مقر العبادة والدعوة والحكومة هو أحد الأجزاء الرئيسية في هذه النُسق، وتعتمد عليه النسق الأخرى بالغالب وبشكل كبير. لذا جاهد لتسريع عملية إنجازها بإشراك المهاجرين والأنصار، لكي يشعروهم أن هذا البناء هو رمزهم الجديد، وأن مشاركتهم ببنائه تعني أن لكل مشارك جزءاً منه، وإنه وإن كان قائد الدعوة والجماعة إنما يملك فيه كما يملكون هم فيه. ثم أن مشاركة المهاجرين في بناء المسجد أشعرتهم حتى من دون أن يحتاجوا لمن يوضح لهم أهمية هذه المشاركة بطيب خاطر، لأنهم كانوا يرون أن هذا البناء الذي هو بيت الله سيكون بيتاً لهم جميعاً بدل بيوتهم التي خربتها عرب قريش المشركة. إضافة إلى أن النبي (صلى الله عليه وعلى آله) أراد الفراغ منه، ليتفرغ إلى الأمور التنظيمية الأخرى، ومنها بناء أسس الدولة الجديدة. علماً أن علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية أكدوا في العصر الراهن على أهمية هذه الترابطية^٢ وضمن هذا السياق والقوس الصعودي لم يكن بناء المقر هو المشروع المهم الوحيد فهناك مشاريع مهمة أخرى، منها بناء الإنسان نفسه بشكل يؤهله بأن يكون أهلاً لحمل

١. علم الاجتماع، موريس جنزبرج، ص ٢٣.

٢. ينظر الأنثروبولوجيا الاجتماعية، بريشارد، ص ٨٠.

مشروع السماء لكل الأجيال.

إن تحليل طرائق التعامل البنائية النبوية للتأكيد من خلالها على مقدرة النبي الفائقة ومعرفته للكثير من الأمور التي لم يتوصل إليها العلم إلا مؤخرا ليس من قبيل التهويل والمبالغة، وليس لتلميع صورته ليبدو لا كما كان بل كما نحب أن يكون، مثلما يدعي (جيوم)^١

فهؤلاء لو قيص لهم دراسة سلوكيات النبي وأفعاله بشكل محايد وبدون الاعتماد على النقول التي لم تخضع للنقد بشكل موضوعي بناء، وإنما من خلال المعطيات العلمية ثم مقارنة النتائج مع المحصلات، لوجدوا أنه كان متقدما على علومهم كلها، ولاكتشفوا صدق ما ندعيه، وأننا لا ندعي له ﷺ ما يجعل صورته في قلوبنا كما نحب بل بالعكس سيجدنا مقصرون لأننا لم ندرك لغاية هذه الساعة عظمة محمد وحدود علم محمد وما كان يعنيه ويمثله محمد صلى الله عليه وعلى آله الكرام.

قد يرى البعض أن النبي لم يكن بحاجة لتحمل مشاق هذا البناء الروحي على أساس أن أهل يثرب أسلموا، واستقبلوا المهاجرين برضا أنفسهم، ودون إجبار، وأن الأيام كفيلة بإنجاز التناقل مع مرور الزمان. وأقول هنا أن رسالة الإسلام كانت مشروعا ثقافيا متطورا يهدف إلى الارتقاء بالمجتمع الإنساني إلى حقيقة إنسانيته لأن الارتقاء كما يقول "جيوم": هو طريق الطبيعة إلى خلق التفوق^٢ والتفوق والارتقاء لا يمكن أن يحدثا إذا لم يكن هنالك فهما حقيقيا للمشروع ذاته، في وقت نعلم فيه أن هذا الفهم كان متباينا بين المسلمين بشكل كبير. مما يستوجب إجراء تناقل ثقافي بين الجانبين (المهاجرين والأنصار) يرقى بفهم من لم تسنح لهم الفرصة للإلمام بثقافة المشروع من قبل إلى

١. ينظر الإسلام، الفريد جيوم، ص ٢١.

٢. الإسلام، جيوم، ص ١٢١.

مصاف درجة الملمين بفكره، لكي تسهل مهمة الاتصال والتواصل الثقافي بين الجانبين، ومع أن الهجرة تعتبر على رأي "مور" أحد أبرز أساليب الإتصال الثقافي، إلا أنها ليست السبب الأوحدهنالك أسبابا أخرى تخص الثقافة نفسها^١ منها:

بساطتها: ولا يخفى أن الفكر الإسلامي يبدو بسيطا سلسا بشكل غريب وخال من أي تعقيد كما في شروط بيعة النبي للأنصار في العقبة الأولى، وفي العقبة الثانية، وقصة البدوي الأعرابي الذي جاء إلى النبي يسأله عن الإيمان فقال له: صم وصلي وحج وزكي تدخل الجنة. والحديث مذكور في كتب الصحاح ومنها البخاري عن أبي هريرة تماسكها مع القيم الموجودة: حيث كان المشروع الثقافي الإسلامي ولا زال أكمل المشاريع الثقافية وأكثرها تماسكا خاصة في عصره الأول حيث كانت اليهودية تتخبط في نظرية تعدد الآلهة وكانت المسيحية تتقلب في نظرية الثالوث الأقدس، وكانت ملامح الديانتين قد بهتت وأصبحت غير واضحة، والمنظومة الكفرية لم تكن تملك مشروعا ثقافيا بالأساس، وإن كانت تعرف القراءة والكتابة كما يقول (جيوم)^٢ وغيره، كما أن الثقافة العامة للمجتمعات المعروفة آنذاك كانت ثقافة حرب وتقاتل أكثر منها حالة بناء ثقافي وتواصل.

سطوة وهيبة حاملها: والعالم يعرف مقدار هيبة قائد هذا الفكر وجود وضع متغير فعلا في الثقافة التي تستقبلها: إن إسلام اليربيين خلق متغيرا في مجمل الثقافة اليربية يسر تقبل المجتمع اليربي للثقافة الإسلامية الوافدة إنعدام التكامل الوثيق في المجتمع الذي يستقبلها: والكل يعرف أن المجتمع اليربي لم يكن متكاملا بسبب تنوع الثقافات وتعارضها، وبسبب الخلافات القبائلية أيضا.

١. التغيير الاجتماعي، ولبرت مور، ص ١٢٣-١٢٤.

٢. الإسلام، جيوم، ص ٥.

مدى الاتصال واستمراره: جاء النبي إلى يثرب بغية الإستقرار النهائي، وفي فتح مكة ظن الأنصار أنه سيرجع إلى مكة ويتركهم، ولكنه طمأنهم أنه باق هنالك حتى النهاية

يعرف "أي. بي. تايلور" الثقافة أنها: (كل متماسك من المعرفة والعقيدة والفن والأخلاق والقانون والعادات وأي كفايات أخرى اكتسبها الفرد بإعتباره عضوا من أعضاء المجتمع الذي ينتسب إليه)^١ ويقول علم الجيوبولتيكا: إن رقعة الدولة تنمو بنمو الثقافة، فكلما انتشر السكان وحملوا معهم طابعا خاصا للثقافة فإن الأراضي الجديدة التي يحتلها هؤلاء تزيد في مساحة الدولة^٢ والرسول الأكرم لم يكن يريد حصر الدين والثقافة الدينية بمحدود يثرب، وإنما كان يريد الانطلاق إلى جهات الدنيا الأربع لنشر كلمة الله بين الأمم ونقل الثقافة التي أكتسبها المسلمون إلى الأراضي المفتوحة، ولذلك خلق النبي بعد دخوله يثرب طرازا جديدا للحياة وكما متماسكا من المعرفة تبلورت فيهما حقيقة المشروع الإسلامي نظريا وعمليا، وتبدوا القيمة الحقيقية لهذا المشروع بأبهى صورها عندما نعرف أن البلاذري قال: (إن الإسلام دخل وفي قريش سبعة عشر رجلا، وفي الأوس والخزرج في المدينة اثنا عشر رجلا يعرفون القراءة والكتابة)^٣ أي أن مجموع عدد الذين يجيدون القراءة والكتابة في مكة والمدينة مجتمعين هو (٢٩) شخصا فقط. ومع وجود الكثير من المؤشرات على عدم صحة هذا الإحصاء إلا أن التبدل الذي حصل خلال مدة البعثة البالغة ثلاثة وعشرين عاما يوضح مقدار النمو الثقافي للمجتمع العربي الإسلامي في هذه المدة القصيرة.

١. مبادئ علم الاجتماع، حسين الداغوقي، ص ١٠٨.

٢. الجيوبولتيكا، فيفيلد و بيرسي، ص ٢٦.

٣. فتوح البلدان. البلاذري، ٣ / ٥٨٠.

إن ما يدفعنا للتشكيك بإحصاء البلاذري هو أننا وجدنا هناك روايات ونقول ومؤشرات كثيرة تفيد أن الكتابة والقراءة كانت منتشرة في المجتمع المكّي، منها على سبيل المثال النقل الذي يتحدث عن إسلام عمر عندما دخل على أخته وزوجها ووجدهما يقرآن القرآن المكتوب. ومنها قولهم أن النبي طلب من أسرى قريش في معركة بدر ممن يعرفون القراءة والكتابة، ولا يملكون ما يفتدون به أنفسهم، أن يعلم كل منهم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة لكي يطلق سراحه. فإذا كانت القراءة والكتابة فاشية بين هؤلاء العامة والبسطاء والفقراء مالا لفداء أنفسهم من الأسر، فإنها عند الأغنياء والموسرين أكثر انتشاراً لأنهم يحتاجونها في تعاملاتهم وتجارتهم. وفي الحالتين، وحتى لو ضاعفنا عدد البلاذري عشرات المرات فإنه لا يقارن بعدد المتعلمين المتصاعدين في المدة اللاحقة لذلك التاريخ، مما يعني أن الإسلام كان يهدف لتسريع النمو الثقافي في المجتمع المسلم وقد نجح في ذلك نجاحاً باهراً.

وكانت هذه الثقافة تنمو طردياً مع تتابع نزول السور المدنية التي إمتازت عن السور المكية بكونها إهتمت أكثر بالجانبين القانوني والحياتي، مع دوام استمرار اهتمامها بالجانب الثقافي، وقد ساهم النمو الثقافي في بلورة المجتمع الإسلامي الأول الذي نجح في تأسيس الدولة (دولة المدينة) رافق ذلك نمو سكاني متسارع ساهم أيضاً في تسريع نمو الدولة، ويعتبر العلماء أن مظاهر النمو السكاني تعد من أهم العوامل المساعدة على نمو الدولة لأن نمو الدولة بالأساس هو عملية لاحقة لمختلف مظاهر نمو السكان كما يقول "فيفيلد"^١

ويعتبر فتح خير تطبيقاً عملياً واضحاً لهذا المسعى، وأحد المؤشرات الواضحة على جهل الرواة والمؤرخين لحقيقة المشروع الإسلامي، فهذا الفتح كان أحد المراحل المهمة

١. ينظر الجيوبولتيكا مصدر سابق، ص ٢٦.

في المشروع الإسلامي التي لم ينصفها الرواة في حديثهم عن الفتح لأسباب منها جهلهم لآلية بناء الدولة، فالمعروف كما يقول "فلهوزن" أن النظام القبلي العربي لم يعرف معنى الدولة بل كانت الدولة عندهم هي الجماعة في جملتها، ولم تكن هيئة لها نظامها الخاص، ولا كانت لها أرض محددة، فلم يكن هناك في الحقيقة دولة، إنما كانت هناك أمة^١ ولما كان الرواة لا يملكون إرثاً فكرياً بخصوص بناء الدول باعتبار أنه لم تكن هناك دولة عربية بالمعنى الحقيقي للدولة، فإنهم قرنوا سياقات عمل النبي النبائية بموروثهم البدوي الذي كان لا يزال مترسباً بعقولهم، وحصرُوا الأمر بهذا الجانب وحده، رغم أنهم عايشوا مرحلة بناء الدولة الأولى ومراحل بناء الدول اللاحقة بعد سنة ٤١ هجرية. وفي ختام موضوع الهجرة أقول أنه لو كانت دوافع الهجرة تنحصر بأي سبب من الأسباب التي ذكرها الرجال القائمون على كتابة السيرة لما جعل النبي من الهجرة رمزاً روحياً مقدساً، فأوجب على كل من يدخل في الإسلام بعدها أن يهاجر إلى المدينة المنورة للسكنى أو للزيارة لكي يكمل إيمانه. ولما حُرِّم رجوع المهاجر للاستيطان في بلده الأول إلا بأذن خاص. حتى أن المسلمين تعارفوا على إطلاق إسم (المرتد) على من يتعرب منهم، وكما في الحديث الذي أخرجه مسلم عن سلمه بن الأكوع: (أنه دخل على الحجاج فقال له: يا ابن الأكوع آرتددت على عقبيك. تعربت؟ قال: لا، ولكن رسول الله أذن لي في البدو)^٢ ولما أبطل قيمة هذا الرمز بعد فتح مكة وانتصار الإسلام كما في قوله ﷺ: (لا هجرة بعد الفتح)^٣ لكي يحفظ لها روحيتها وقديسيتها المحصورة في الفترة من بدأ أول المسلمين بالتحرك نحو يثرب وإلى ما قبل دخول مكة وفتحها

١. تاريخ الدولة العربية، فلهوزن، ص ٣-٤.

٢. صحيح مسلم، حديث رقم ١٨٦٢، ص ٨٣٩.

٣. صحيح مسلم، حديث رقم ١٣٥٣، ص ٨٤٠.

بلحظات، حتى أن بعضهم قال أن هجرة العباس عم النبي لم تكن هجرة لأنه لقيه في الطريق إلى مكة ولم يكمل طريق الهجرة إلى يثرب.

المرور عبر خيبر:

لم تكن خيبر مدينة يهودية عادية، وإنما كانت مدينة تملك قيمة سياسية كبيرة، ليس لليهود وحدهم، بل لمن يقدر على فتحها والسيطرة عليها أيضاً، ومع أن الدولة الإسلامية كانت تنمو، والدول تسعى عادة في مراحل نموها لامتصاص الأقسام ذات القيمة السياسية كما يقول "فيفيلد"^١ إلا أن النمو لم يكن الدافع الأوحده وراء فتح خيبر بالتأكيد.

نعم لا ينكر أن إستيلاء المسلمين عليها، ثم السيطرة على الأراضي والقبائل الواقعة بأطراف مكة، ثم فتح مكة ذاتها، كان احد العوامل المهمة لقيام الدولة الأولى، إلا أنه - وكما قلنا - لم يكن الدافع الوحيد، فالغاية من إمتصاص هذه الرقع كانت أيضاً لتسريع النمو الثقافي الإسلامي، لأنه كما يقول "الداقوي" (عندما يزداد عدد العناصر المضافة الجديدة على عدد العناصر المدرسة القديمة يحصل النمو المطلوب)^٢ أي أن النبي بسبب تكاملية الإسلام كان يسعى للتوفيق بين النمو السكاني، والنمو الثقافي، والنمو البنائي، عن طريق العناصر الجديدة المضافة،

ومن المؤكد أن رواة أخبار السيرة الذين إعتدوا ابن إسحاق على رواياتهم في كتابة سيرته لم يكونوا يملكون تصورا واضحا عن هذا الأمر، وكذلك هو لم يكن يملك مثل هذا التصور. ولذلك فهموه بأجمعهم بشكل مخالف لحقيقته. ربما لأنهم كانوا مشغولين

١. الجيوبولتيكا، مصدر سابق، ص ٢٦.

٢. مبادئ علم الاجتماع، الداقوي، ص ١١١.

بأمور أخرى لها علاقة بولائهم الفئوي، هي التي دعتهم إلى ربطه بقضايا أخرى، تماماً مثل صلح الحديبية الذي رآه بعض الصحابة وكأنه أحد إخفاقات النبي الكثيرة، والأعمال الارتجالية المتسرفة وغير المدروسة، فجاء المستشرق "غوستاف لوبون" ليأخذ برأيهم هذا ويقول: (ورأى محمد بعد ذلك الإخفاق أن يروح أصحابه فخف بهم إلى مدينة خيبر الواقعة إلى شمال المدينة الغربي والبعيدة عنها مسيرة خمسة أيام)^١

يهود الجزيرة

وفد اليهود إلى جزيرة العرب قبل الإسلام ببضعة قرون، وقد اختلف المؤرخون والباحثون في تحديد تاريخ دخولهم، فهناك من أرجعه إلى أكثر من أربعة عشر قرناً مثل "الفريد جيوم" الذي قال: (لا نعرف بالضبط أول نزول لليهود في جزيرة العرب، وإن كان هنالك ثلاثة احتمالات ظاهرة هي: في القرن الثامن قبل الميلاد، في القرن السادس قبل الميلاد، في القرنين الأول والثاني الميلاديين. كما اختلف المؤرخون في أصلهم ومناطق سكنهم الأولى قبل أن يفدوا إلى الجزيرة فقال بعضهم أنهم وفدوا إليها من فلسطين بعد دمار دولتهم نتيجة الهجمات المدمرة التي تعرضت لها بعد انشقاقها إلى دولتين عام ٩٣٠ ق.م في أواخر دولة نبي الله سليمان الذي حكم للفترة من ٩٦٠ حتى ٩٣٥ ق.م وتحديدًا في بدايات حكم ابنه (رحبعام) وفي عام ٧٢٢ ق.م على يد الملك سرجون الأكدي الذي غزا السامرة ونقل بعض اليهود إلى بابل، ثم سقطت مملكة يهوذا عام ٥٨٦ ق.م على يد نبوخذ نصر (بختنصر) الذي سبى منهم سبعين ألفاً، ثم عام ٧٠ للميلاد على يد (طيغوس) الروماني الذي دخل القدس ودمرها)^٢ مما دفعهم للهرب

١. تاريخ حضارة العرب، لوبون، ص ٧-١٠.

٢. ينظر اليهود وعلم الأجناس، محمد رشيد الفيل، ص ٨٣.

إلى أماكن أخرى كان من ضمنها جزيرة العرب التي كونوا فيها مستوطنات شبيهة بالمستوطنات القائمة اليوم على أرض فلسطين المحتلة، في خيبر وفدك ووادي القرى حول يثرب، وأقام بعضهم الآخر في اليمن وفي تيماء^١

كما ذهب بعض المؤرخين إلى أنهم قبائل عربية الأصل اعتنقت الديانة الموسوية^٢ وأصبحت تختلف حتى عن العرب أنفسهم بعد أن تطبعت بطباع هذه الديانة، ولكنهم على كل حال كانوا حتى قبيل الهجرة بقليل أحد مكونات المجتمع اليثربي المميزة، لكن وجودهم في يثرب بعد الهجرة تحول إلى مصدر إزعاج وقلق وخطر نتيجة طباعهم الإجرامية المعروفة، وسلوكهم العدواني الجمعي، وهو سلوك يعرفه علماء الاجتماع بأنه: (سلوك جماعات تتحكم في سلوكها قواعد راسخة تدعمها قوة التقاليد)^٣ وكان دافع هذا السلوك هو التراث اليهودي الاجتماعي الذي ينطوي على رواسب ومخلفات ومتحجرات ومقدسات وشعائر وطقوس تختلف كلياً عما لدى مكونات المجتمع اليثربي الأخرى والمجتمعات الأخرى أيضاً.

أما الإسلام من جانبه فإنه وكما هو معروف كان ينظر للديانتين اليهودية والمسيحية على أنهما ديانتان سماويتان، وكان يحترم ويقدر أنبيائهما موسى وداود وسليمان وعيسى. ولذلك عاملهم النبي بعد دخوله إلى يثرب على أنهما دينان كتابيان يجب احترام عقائدهما ووجودهما فعقد مع اليهود وهم الأغلبية معاهدة قلما يعقد مثلها طرف قوي متمكن مع طرف مهزوز مهزوم، حيث جاءت الوثيقة على شكل صحيفة تعاقدية تلزم كل طرف ببند فيها شروط ومواثيق كانت بدايتها (بسم الله الرحمن

١. المجتمع العربي والإسلامي، د. عبد الحميد بخيت، ص ٨٠.

٢. المصدر نفسه.

٣. ينظر السلوك الجمعي، د. حاتم الكعبي، الجزء الأول، ص ١٤٣.

الرحيم هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويشرب ومن تبعهم.... وانه من تبعنا من يهود فإن له النصره والأسوة... وأن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً^١ كما جاء فيها (وأن اليهود يتفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وآثم فإنه لا يوتغ (يهلك) إلا نفسه وأهل بيته ، وأن اليهود من بني النجار مثل ما ليهود بني عوف ، وأن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف^٢ وإضافة لهذه الشروط والبنود كانت هنالك بنود أخرى منها (وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، إن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وأن بينهم النصح والنصيحة.. وأن اليهود يتفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، إن يشرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم وانه لا تجار حرمة إلا بأذن أهلها وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث وإشتجار يخاف فساده فان مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله^٣)

ويجد المتابع أنه منذ تاريخ التوقيع على هذه الصحيفة كانت لليهود وجهة نظر تختلف عن وجهة نظر المسلمين ، فهم واقعا لم يقبلوا بها عن اقتناع بل مكررا ومخادعة لما رأوه من قوة المسلمين ، إضافة إلى أن رعبهم صار يزداد مع تسارع نمو الإسلام ، ولذلك امتازت الفترة منذ توقيع الصحيفة والى سنة سبع للهجرة بأنواع مختلفة من المؤامرات والكيد والدس والفتن التي كانوا ينشرونها بين المسلمين أنفسهم ، وتأليب الأعراب ، وحث قريش المشركة ، والتعاهد معها لحرب الإسلام ، والتآمر لقتل النبي . وكان النبي

١. سيرة ابن هشام ، ١٢٦٢ - ١٢٧ .

٢. السيرة ٢ / ١٢٨ .

٣. المصدر نفسه ، ٢ / ١٢٨ .

يرصد هذه التحركات ويتجاوز عنها ويؤجل إتخاذ قرار بشأنها انتظارا لتكامل أسباب الفتح ولاسيما وأن قريشا المشتركة كانت ناشطة في هذه الفترة، تنتقل من بدر إلى أحد إلى الأحزاب وتجيش الجيوش لدرجة أن الإسلام أصبح أمام خطر حقيقي بسبب قرب اليهود من مقر القيادة حيث تحول الخطر اليهودي إلى تهديد مباشر بعد أن خرقوا بنود الإتفاقية مرات عديدة، وكانوا يدفعون المسلمين دفعا لإلغائها لأنهم:

- كانوا يعتقدون أن الإسلام قد وهن نتيجة الحروب المتكررة:
- أن حصونهم مانعتهم ورجالهم الأشداء قادرون على التصدي للإسلام.
- وأن قريش سوف تسارع لإستغلال الموقف فتهجم على يثرب وتنتهي وجود المسلمين فيها.

- وأن القبائل المشتركة الأخرى ستسارع لنصرتهم.
- وأخيرا أن النبي بما مشهور عنه من خلق رفيع سوف يعفوا عنهم ويسامحهم إذا فشل مخططهم.

ولذلك تراهم (حتى إذا أيقنوا بالهلكة سألوه أن يسيرهم وأن يحقن لهم دمائهم)^١ أما باقي احتمالاتهم الأخرى فلم يصدق منها إلا احتمال واحد كان النبي قد وضعه في حساباته عند تحركه نحوهم وهو (أن غطفان لما سمعت بمنزّل رسول الله خير جمعوا له، ثم خرجوا ليظاهروا يهود عليه)^٢ حيث أن النبي أمر المسلمين تبعا للخطة الحربية التي رسمها ليضعوا غطفان خلف ظهورهم عند المسير إلى خيبر مخافة غدرهم، فأدركت غطفان أنها ستعرض للأذى إن لم ترجع، فرجعت. لكن اليهود ورغم الجرائم الكبرى التي ارتكبوها لم يتعرضوا للإبادة الجماعية كما كان معمولا به في حروب الحضارات

١. السيرة، ٣ / ٣١١.

٢. المصدر نفسه، ٣ / ٣٠٥.

القائمة آنذاك، حيث طبق رسول الله عليهم نظرية "توازن القوى" المعروفة حاليا والتي يقول بصدها "هنري كيسنجر" الوزير والمستشار الأمريكي: (إن القوة المنتصرة يجب أن لا تسحق المهزوم، أو تبيده، وإنما يجب أن تمنحه قدرا ومنفذا لسلام مشرف)^١ فأمر النبي بإجلائهم ليؤكد لمن يتهم الإسلام بالدموية ومنهم اليهود أنفسهم أن الإسلام لم يكن دمويا في أي يوم من الأيام

فتح خيبر

جاء غزو خيبر بعد رجوع النبي من الحديبية حيث مكث في المدينة شهر ذي الحجة وبعض شهر محرم ثم خرج إليهم. وقد تعامل الرواة مع أخبارها كما تعاملوا من قبل مع أخبار الغزوات الأخرى، بل أن تعاملهم هنا جاء بحرفية عالية ربما لأن الوعي الأنوي الفردي للجماعات الإسلامية التي بدأت تتشكل في المجتمع الإسلامي منذ عهد ليس بالبعيد تطور بشكل ملموس خلال المدة الماضية وبدأت تأثيراته تترك بصماتها على ما يدور في المجتمع.

إن الأسباب الحقيقية التي ذكرناها آنفا وقلنا أنها كانت وراء قرار القيادة الإسلامية بفتح خيبر كانت مدعومة أيضا بمجموعة دوافع منها:

التنظيمي: فالتنظيم كان ولا يزال ظاهرة من ظواهر المجتمع الإنساني في مختلف أدوار تطوره وإزدادت أهميته بصورة خاصة في المجتمعات المدنية التي تعددت فيها النظم وتنوعت^٢ وكان وجود اليهود في المدينة يمثل نظاما مغايرا ومعارضاً للهيكل التنظيمي الذي كان النبي يسعى وراء إقامته، وليس من حل لمثل هذه المشكلة إلا التغيير، والتغيير

١. السياسة الخارجية الأمريكية، هادي قبيسي، ص ٧٦.

٢. مبادئ علم الاجتماع، الدافقي، ص ٨٤.

المطلوب يعني إبعادهم عن المدينة كليا.

ضرورات النمو: اعترف علماء الاجتماع ، والرأي هنا لـ "راتزل" (إن الدولة كائن حي تدفعه الضرورة للنمو عن طريق الحصول على الأعضاء التي تعوزه حتى ولو دفعه هذا إلى إستخدام القوة)^١ والعضو الذي تمثله خير مكانيا واستراتيجيا من أهم الأعضاء التي كان الجسد الإسلامي بحاجة إليها.

التنحية الثقافية: هناك اليوم عند المختصين قانونا يعرف بقانون "التنحية الثقافية" وهو: أن تنحي ثقافة ما ثقافة أخرى وتحل محلها كما يحل الاختراع الجديد مكان الاختراع القديم ، ويحصل هذا عادة نتيجة التطور العلمي . وهذه النتيجة وإن جيء بها حديثا لكن لا ينكر على مستوى التطبيق أن قانون التنحية كان معروفا في السابق دون أن يضعوا له تعريفا محددًا.

وتبعا لهذا القانون يجب على الثقافة الإسلامية المتطورة أن تحل محل الثقافات التي كانت سائدة ، ليس طبعا على مستوى الكلية العامة ، بل على مستوى الجزئية المتعالية ، لأن ثقافة الإسلام لم تلغ كل ما كان موجودا في تلك الثقافات من مفاهيم وقيم ، بمعنى أن العملية كانت ستحدث بفعل فاعل أو من تلقاء نفسها وقد إستوجب التسارع في النمو أن يتم الإحلال عن طريق الفتح.

الملاحظ هنا أن عدم إلغاء الإسلام للثقافات التي كانت سائدة بشكل إجتماعي جذري كانت غايته معروفة لكن المستشرقين بما معروف عنهم من ألعيب استغلوا هذا الكرم ليقبلوه إلى الضد حيث توصل علماء غربيون إلى نظريات اتخموها بالمصطلحات المتنوعة التي نحتوها من تخصصاتهم العلمية فأخذها المستشرقون لتطبيقها على دراساتهم الإسلامية والوصول من خلالها إلى ما يعتقدون أنه يطعن بالإسلام ، ومن ذلك قولهم

١. ينظر الجيوبولتيكا ، فيفيلد ، ص ٢٧.

أن الإسلام أخذ من الوثنية والأديان الأخرى نظرياته التعبدية والإدارية وكأن الدين كان بحاجة لهذه النظريات ليدعم بها فقر أطروحاته، فأصل هذا الادعاء جاء من دراسة للإنثروبولوجيين الانتشاريين تقول (إن الثقافة كثيرا ما تستعار، وبناء على ذلك فإن تشابه الصبغ الثقافية في المجتمعات المختلفة لا ينشأ عن النمو والتلقائية)^١ فهم حينما وجدوا المشروع الإسلامي يقر بعض ما في الثقافات السابقة ويقبل الأخذ ببعض قوانين الوثنية والديانات الأخرى إعتقدوا أن ذلك كان استعارة ثقافية نتيجة إفتقار الإسلام للخزين الثقافي، وهذا أحد الأخطاء الكبيرة التي وقع بها المؤرخون والمستشرقون الغربيون لعدة أسباب منها

- أولا: أنهم كانوا غير مدركين أن ما اقره الإسلام يومها لا يمثل سوى جزء بسيط من المنظومة الفقهية والحياتية للأمم والأديان السابقة.
- ثانيا: إن أصول هذا القليل الحائز على الإقرار ترجع بالأصل إلى معتقدات دينية سماوية تعود لديانات بائدة، وديانات قائمة، ولما كان في معتقدنا القرآني فإن ذلك الإقرار لا يتعارض مع منظومة التشريع الإسلامية،
- ثالثا: إن هذه الاستعارة الثقافية على محدوديتها إنما اقرت بسبب الترابط الوثيق بين الديانات السابقة ودين الإسلام، لأن المصدر الذي استقت منه كل الديانات نظمها منذ بدء الخليقة وإلى البعثة النبوية هو مصدر واحد.

فحقيقة الأمر التي خفيت عليهم أن الوثنيين هم واقعا من استعار بعض ثقافات الديانات السماوية السابقة وصبغوها بصبغة تلائم متطلبات حياتهم، فأصبحت وثنية المظهر، ولكنها أساسا توحيدية المصدر. وإنما غيرَها تطاول الأيام عليها والدخائل التي أدخلت فيها عن طريقي الخطأ والعمد، فأخذ بها الإسلام لجوهرها وليس

١. الانثروبولوجيا الإجتماعية، بريتشارد، ص ٧٧.

لمظهرها، وقام بتشذيبها من الإضافات والتحويلات، ثم أن الله سبحانه وتعالى كرر إرسالها أو ما يشابهها أو يتقارب معها إلى رسول الله النبي محمد ﷺ لسبب بسيط يوضحه قوله سبحانه وتعالى ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾، ويعني هذا أن قيام الإسلام بإقرار بعض معتقات السابقين ليس استعارة من الثقافات السابقة بقدر ما هو تصحيح لما أوقعته الاستعارة الأولى من ضرر بهذه المعتقدات والثقافات عن قصد أو بدون قصد.

ومن خلاصة ما مر نجد أن فتح خيبر لم يكن عملية إنتقامية غايتها سحق العدو وتدميره كلياً كما يدعي رواة السيرة. ولم يأت ترضية للصحابة عوضاً عن الإخفاق يوم الحديبية كما ادعى المستشرق "فلهوزن"، وإنما كان عملية بنائية غايتها تهيئة الأرض لاستقبال الثقافة الإسلامية التي شاء الله سبحانه أن تتسيد على الكون كله، وتزيح الثقافات المتداولة الدينية، والعرفية، والاجتماعية، ولا تبقي منها إلا ما يتماشى مع ثقافة الرسالة الجديدة.

ويجد المتابع للحركات والسياسات والأطروحات المتداولة اليوم في الساحة العالمية أن هنالك عشرات الأطاريح التي تبيح لنفسها بموجب شريعتها وقانونها فعل أضعاف ما فعله المسلمون في خيبر، وهي مع إختلاف الآليات والأساليب والنتائج والمحصلات بين فعلها التخريبي والاستعماري، وفعل المسلمين التصحيحي البنائي، تعد فعلها الهمجي مطابقاً للقانون الدولي وتفتخر بذلك، لكنها عندما تذكر خيبر ومعارك الإسلام الأخرى تعتبر الموضوع دمويًا وتجاوزاً على حقوق الإنسان وخروجاً على القانون الدولي.

كما أنهم تبعاً لموازينهم المختلفة التي تعارفوا عليها وآمنوا بها، يميزون للقوي المنتصر أن يحدد شروط اللعبة، كي يستفيد من هذه القوة، وإلا ما هي فائدتها إذا كان الريع سيقتسم بالتساوي بين الغالب والمغلوب؟ ففي ٢٠٠٦ / ٧ / ٣١ كتب "هنري

كيسنجر" في جريدة "الواشنطن بوست": (إذا أصرت إيران على الدمج بين المذهب الإمبراطوري والغليان الإسلامي الحالي، فإن صداما مع أمريكا، وكذلك أعضاء اللجنة السداسية واقع لا محالة، فمن غير المسموح لإيران أن تحقق حلمها بدور إمبراطوري في منطقة تتمتع بهذه الأهمية للعالم ككل)^١ كذلك قال "زيغنيو برينجسكي" مستشار الأمن القومي الأمريكي السابق في تحذيره لروسيا ما بعد الاتحاد السوفيتي: (إذا أرادت روسيا أن تنضم إلى مساحة السلام العالمية فلا يمكنها أن تصطحب معها مشروعاتها الإمبراطورية)^٢ ورؤاهم هذه إنما تولدت من شعور القوة التي يمتلكونها، وتفردهم بامتلاك هذه القوة، بعد أن رأوا أنهم خرجوا من الحرب الباردة مع الاتحاد السوفيتي منتصرين.

فلماذا لا يجيزون للإسلام المنتصر القوي أن يفرض شروط اللعبة ويحددها، في الوقت الذي كان يسعى فيه لبناء كيانه، ووجوده، بصيغ ترعاها السماء، وتنظمها، وتباركها، وفي وقت لم يكن فيه للقانون الدولي وسطوته من وجود، ويجيزون لنظمهم التي ترعاها العولمة، وتنظر لها الماسونية الدولية، والمطامع الاستعمارية، والمصالح الشخصية، فعل كل المحرمات والموبقات تحدياً للأمم المتحدة التي تدعي أنها تنظم العلاقة بين الأمم، بموجب القانون الدولي، وشرعية حقوق الإنسان، والعهد الدولي؟ إن خير كانت من الناحيتين الجغرافية والعقائدية عائقاً يقف بين الإسلام وتحقيق الانتصار الناجز، وكانت في ذات الوقت كما مساحيا وماليا وسكانيا وتعبويا يرفد الإسلام ببعض ما يحتاج إليه لإتمام مسيرته، ولذلك جاء القرار الإلهي بفتحها. ومنها كان الطريق، طريق التوسع والانتشار والانتصار. فالارتباطات متعاقبة هنا بشكل واضح إبتداء من الهجرة إلى المغازي والحروب، وحتى يوم الفتح العظيم.

١. السياسة الخارجية، هادي قبسي، ص ١١٧.

٢. المصدر نفسه.

الفصل الرابع

الطور المدني

الحروب والغزوات، آلية بناء

أو بناء الآليات

يتناول هذا الفصل دراسة الفجوة بين عصري الرواية والتدوين،
منهجية الحروب الإسلامية، الموروث والعدوان والحرب، الأذن بالقتال،
السرايا والغزوات والحروب، قصص الغزوات وتفصيلاتها وجزئياتها

الفجوة القاتلة والثقة بالنصوص

لا يخفى على أحد أننا تجنبنا كثيرا ليس على تاريخنا فحسب بل وعلى حقيقة المادة العلمية لهذا التاريخ، وليس في زماننا الحاضر فحسب، بل منذ أيامه التكوينية الأولى، وحتى قبل أن نبدأ بكتابته. وتكاد الأطراف الإسلامية أن تجمع على وقوع التجني. ولذلك ارتفعت هنا وهناك دعوات، بعضها إعلامية، وبعضها الآخر جادة، لإعادة كتابة التاريخ في أزمان مختلفة، كانت آخرها محاولة صدام في سنة ١٩٧٩ حيث عقدت ندوات وحوارات ومناقشات ساهم فيها مجموعة كبيرة من العراقيين الباحثين والمختصين بالتاريخ منهم الدكتور جواد على، والدكتور صالح أحمد العلي، والدكتور خاشع المعاضيدي، والدكتور عماد عبد السلام وغيرهم. أما الغاية من هذه الإعادة فلم تكن بسبب الخلط الذي وقع في العصر الأول حيث عزا الكتاب الذي صدر عن المؤتمر الأول الذي انعقد في بغداد سنة ١٩٧٩ عن وزارة الثقافة والفنون سبب الرغبة بإعادة كتابة التاريخ إلى تعرض الأمة العربية إلى هجمات احتلالية طويلة ومتنوعة خربت الثقافة القومية ونهبت التراث العربي وزيفت الوقائع التاريخية. لكي تتماشى النتائج المستحصلة من هذه الإعادة مع دعوات حزب البعث لأن التاريخ كما قالوا: (احتل مكانة بارزة في أدبيات الحزب وتمتع برعاية متميزة من قاداته) ولما كنا نعرف أن بداية الإحتلالات كانت قد حدثت في القرن الرابع الهجري. ندرك الغاية الحقيقية من وراء هذه الدعوة بالذات وهي إكمال عمل الخط التخريبي الأول من خلال توظيف المخترعات العلمية الجديدة

وطرق البحث العلمي المستحدثة. مع أنه حتى بوجود هذه المخترعات لا يمكن ملء الفجوة الزمنية الفاصلة بيننا وبين تواريخ وقوع الأحداث، أو بين تاريخ وقوع الحدث وتاريخ تدوينه الأول.

وتكاد الفجوة الواقعة بين تاريخ وقوع الحدث، وتاريخ تدوينه أن تكون من أكثر الأسباب المؤثرة على مصداقية الرواية التاريخية ولا سيما في مجتمع متنوع المذاهب والمشارب كالمجتمع المسلم، إذ المعروف أن الأحداث تقع أولا، ثم يتم توثيقها بعد ذلك بزمان قريب أو بعيد عن تاريخ الحدث، تبعا لتكوينية المجتمع ذاته، ذلك أنه إذا كانت الأمة لا تزال على الفطرة، أو في طور بداوتها كثر اهتمام العامة من أهلها برواية تاريخها، فيميل تاريخها المروي الذي ينبع من حاجات العامة، ويوافق هواهم إلى أن يكون قصة. فإذا ارتقت الأمة وتقدمت، كثر اهتمام المثقفين من أبنائها بالتاريخ، فيصبح حينئذ تاريخها المبني على البحث في حياتها، وعلى مقارنة أحداثها بأحداث الأمم المحيطة، أقرب إلى أن يكون علما^١ وبذا تتولد فجوة بين ساعة وقوع الحدث وتاريخ تدوينه، وروايته شفاها وتاريخ توثيقه كتابة، تطول وتقصّر تبعا للظروف العامة للمجتمع.

وتكاد الفجوة الفاصلة بين فترتي (القصة، والرواية) و(التدوين، والعلمية) في تاريخنا أن تكون مرحلة القلق القاتل، لأنها الفترة الذهبية التي أتاحت للمهوسين بالتحريف أن يلعبوا لعبتهم ويضيفوا ويحذفوا ويغيروا فيه ما يشاءون. ويضيفوا إليه ما يحلوا لهم من قصص وروايات وخرافات وأكاذيب وأساطير وإسرائيليات، ويحذفوا منه ما لا يلائم هواهم ومعتقداتهم، حتى تلك التي فيها الكثير من الغرابة عن الأصل الأول. ورغم ذلك تجد هنالك من يذهب إلى مذهب ورأي مخالف لرئينا هذا. فيه الكثير

١. ينظر مقدمة كتاب العرب والإسلام ن عمر فروخ.

من المثالية التي تتعارض مع المنهج العلمي المعروف والمتداول. ومن هؤلاء الفيلسوف "محمد أركون" الذي قال: (شهدت تعاليم محمد نقلا موثوقا بفضل ذاكرة الصحابة وأمانتهم العلمية التي لا يرقى إليها الشك، ثم بفضل التابعين حتى تاريخ تثبيت التعاليم والنصوص كتابة)^١ إن مثالية هذا القول تأتي من عدة جوانب لا داعي للتوسع في بحثها لأنها من البديهيات. وهو على العموم يتعارض مع أبسط أوليات علم الجرح والتعديل. بل ما فائدة هذا العلم لو كان هذا الإدعاء صحيحا؟ وهل أن هذا العلم إختص بالروايات والنقول اللاحقة للفترة الأولى ولم يهتم بتلك الفترة؟ إن مجرد وجود الفجوة بين تاريخي طرفي المعادلة يؤكد على أسبقية الرأي الذي يدعي وقوع التزييف على سواء من الآراء، فهذه الفجوة التي امتدت لأكثر من قرن من الزمان كانت مشكلة حقيقية للذين أرادوا توثيق النصوص كتابة ولذا نجد أنه عندما حانت الفرصة لمرحلة التدوين أن تباشر عملها أصبح من المستحيل عليهم فرز الإضافات والخلط والتلاعب عن الأصل، فأصبحت الهوامش والخواشي أصولا وفرضت نفسها على تاريخنا دون أن تلقى معارضة أو رفضا بسبب ضعف الآليات، والمصالح المتبادلة، ونجاح هذه النصوص بخداع القوانين الصارمة التي وضعها علماء الجرح والتعديل. وعند هذه النقطة بدأت مأساة تاريخنا الإسلامي.

أما هذه الإضافات والتبديلات والتلاعبات فقد جاءت عن طريق بعض ولا أقول كل الصحابة الكرام الذين نصبوا أنفسهم بعد وفاة النبي قيمين على الدين وقوامون على أحداثه، وقصصه وغزواته، وسنته، وحديثه، وسيرته، للأسبقية التي يتميزون بها عن غيرهم، وليس ذلك طبعا لأنهم كانوا يقصدون الإساءة تحديدا وإنما لأسباب كثيرة لا يخلو بعضها من تعمد قصد الإساءة، ولا سيما منهم أولئك الذين اشتغلوا بالسياسة أو

١. الفكر الإسلامي قراءة علمية، محمد أركون، ص ٦٦.

انخرطوا في خدمة السياسيين. فجاءت بعض قصصهم غير واقعية، بسبب محدودية تفكيرهم وطريقة فهمهم للقول، ولا نستثني بعضهم من الإصابة بالخلط في أواخر أعمارهم، إضافة لغيرهم ممن كان يرى في مشاركته بالحديث عن الوقائع والأحداث خدمة للدين تبعا لقاعدة (أكذب له، ولا أكذب عليه)، مع وجود من كان يروي الواقعة تبعا لفهمه الخاص الذي يكون عادة مغايرا لفهم غيره، وكذلك فعل بعض التابعين حينما أخذوا عن هؤلاء ما جاءوا به وأضافوا له ما أرادوا إضافته تبعا لولاءاتهم السياسية ومصالحهم الدنيوية، ومن أمثلة ذلك ما ذكره "ابن عساكر" في تاريخ مدينة دمشق^١ عن جعفر بن إبراهيم قال: (كنت عند الزهري [أحمد بن شهاب] أسمع منه، فإذا عجوز قد وقفت عليه فقالت: لا تكتب عنه، فإنه مال إلى بني أمية وأخذ جوائزهم.

فقلت: من هذه؟

قال: أختي رقية، خرفت.

قالت: خرفت، أنت كتمت فضائل آل محمد)

فهذا المثال على بساطته يؤكد قيام هؤلاء بالحذف والإضافة. ولا سيما وأنهم من الأسماء التي استند ابن إسحاق إلى رواياتهم في كتابة السيرة، بل أنه كما يقول ابن سعد في طبقاته الكبرى كان تلميذا لبعضهم كما في قوله: (موسى بن عقبة وابن إسحاق كانا من تلامذة الزهري)^٢ هذا بالإضافة إلى علاقة هؤلاء بحكام عصرهم ومدى قربهم أو بعدهم عنهم، فابن إسحاق ذاته كان من المقربين لحكام عصره وكان يجد الخطوة التامة لدى العباسيين كما قال محقق كتاب الطبقات في المقدمة^٣

١. ينظر الجزء ٢٤ صفحة ٢٢٧ و معاوية، عبد الباقي قرنه الجزائري، هامش ص ٦٩.

٢. طبقات ابن سعد ١ / ١١.

٣. ينظر مقدمة طبقات ابن سعد ١ / ١٢.

ولا ننسى في هذا الشأن التساهل الكبير الذي أبداه المهتمون بموضوع الجرح والتعديل في تعاملهم مع السيرة بما لا يشبه تعاملهم مع الحديث النبوي، حيث نجد مثلاً أن بين رواية ابن سعد صاحب الطبقات ثلاثة على الأقل يضعفهم أهل الحديث وهم "هشام بن محمد بن السائب الكلبي" ثم "الواقدي" والثالث "أبو معشر"، غير أنهم جميعاً يوثقون في السيرة والمغازي. وهذا الفصل بين الأحاديث من ناحية والسير والأخبار والمغازي من ناحية أخرى أمر يستحق النظر^١ ولكننا لم نجد من يريد أن ينظر بهذا الشأن على عظيم أهميته.

فأحدثت هذه الإضافات والتغييرات تنوعاً في فهم المادة نفسها أدى إلى تنوع الاستنباط، وتنوع استخراج المسائل الشرعية فيما بعد، بل أنه أحدث إرباكاً كبيراً حتى في ذلك العصر، حيث كانت أحكام بعض الصحابة الفقهية تختلف عن أحكام غيرهم من الصحابة في الجملة والتفصيل بسبب تعارض بعض الروايات أو اختلاف الحكم فيها. ومع أن هنالك من امتدح هذا التشعب والاختلاف كابن خلدون الذي رأى فيه فرصة لتنويع الاختيار فقال: (وأعتقد مع ذلك أن اختلافهم رحمة لمن جاء بعدهم من الأمة ليقتردي كل واحد بمن يختاره منهم إمامه وهاديه ودليله)^٢ كما وهناك من شخص أسبابه كعبد الله بن عمر في حديثه عن الخوارج الذين كانوا إحدى الحلقات المهمة في منظومة الخلاف الأول كما في قوله: (انطلقوا إلى آيات نزلت في الكفار فجعلوها في المسلمين)^٣ إلا أن وقت التصحيح والمراجعة كان قد فات، لأن بعض هذه الدخائل أصبحت دينا يتعبد الناس به، ويقدسونه، ولا يقبلون لأي كان أن يتدخل في مبتنياته

١. ينظر المصدر نفسه ١ / ١١.

٢. مقدمة ابن خلدون، ص ٢١٨.

٣. صحيح مسلم، حديث رقم ٢٧٤، ص ٤٩٩.

الفكرية فضلا عن أن السيرة النبوية التي كانوا يعتزون بروايتها ويتناقلونها شفاهاً عند ذكرهم للنبي، أو لأدوارهم ومشاركاتهم في أحداثها، أو قصص زملائهم الذين استشهدوا أثناءها. كانت أهم مصادر تدوين السنة النبوية التي هي أحد ركني مصادر التشريع واستنباط الأحكام في الإسلام.

لقد أفقدنا هذا التجاذب فرصة إعطاء ثقتنا لقسم كبير من النصوص التي هي بحاجة لمثل هذه الثقة لكي تحوز الإجماع، أو تنال الوثوق بها ثقة كاملة، مما ألجأنا في بعض الأحيان وليس كلها إلى استخدام الأسلوب التفكيكي الاستقرائي عند التعامل معها، ووفق ما متوافر لدينا من علوم وإمكانيات حضارية، وهنالك من يرفض استخدام هذه الطريقة ويعتبرها دخيلة لأن علم الجرح والتعديل سبق له وأن أعطى رأيه القاطع في هذه النصوص، ولا داعي لتجديد الخوض فيما سبق وأقره هذا العلم، متناسين أن ما صح عن قصص التاريخ يصح أيضاً على الرجال الذين روه ونقلوه إلينا خصوصاً أولئك الذين نجحوا في الالتفاف على ضوابط وقواعد هذا العلم فأفلتوا من سيفه لأسباب كثيرة يعود بعضها إلى ولاءات القيمين عليه أنفسهم. وتبعاً لهذه المنهجية تنوعت الآراء بخصوص الكثير من النصوص التي وردت في كتب السيرة بين معارض ومؤيد ومختار.

وأجد أن التوسع في شرح منهجية الحروب والغزوات الإسلامية الأولى التي وردت نصوصها في كتب السيرة التي كتبها ابن إسحاق على وجه الخصوص سوف يرشدنا إلى معرفة أصول بعض الحقائق المهمة التي تختلف الأمة بشأنها اليوم كثيراً، ويدلنا على حقيقة وأصل أهم نقطة في هذا الخلاف والتي كانت الأساس والمنبع لكل الخلافات الأخرى وهي الإمامة والاستخلاف، ويساعدنا في الوصول إلى (مادة) الخلاف فيما بيننا كمسلمين، وفيما بين المسلمين وبين أتباع الديانات الأخرى.

فهذه الحروب كما هو معروف لم تكن حسب - عقيدتنا وقناعتنا - إلا بأوامر إلهية إبتداء من أمر الإذن بالقتال وإلى المشاركة الفعلية فيه وحتى آخر غزوة. كما أنها لم تكن

الطريق الأوحـد لنشر الدين بل كانت إحدى الآليات الكثيرة التي أتبعها الإسلام للانتشار. لكن إقرار الدين لهذه الآلية وتعامل المسلمين معها ومع أخبار المعارك بشكل متضخم جعل الآخرين يعتقدون أن فلسفة الإسلام قائمة على آلية التدمير والدموية والحرب فقط.

والذي يهـمنا هنا هو معرفة ما إذا كانت سمة الدموية هي حقيقة ثابتة في النهج الإسلامي، وأن الإسلام تفرد بها عن باقي الديانات، أم أنها إحدى المتعارفات الإنسانية التي عاشتها وعاشتها كل الأمم والشعوب والجماعات قديماً وحديثاً، وأنها اليوم في عصر العلم والتنوير أكثر تطبيقاً واستخداماً منها في تلك العصور؟ وهل أن ممارسة المسلمين لحروبهم جاءت بدوافع عدوانية موروثة تختص بها امتنا العربية الإسلامية أم أنه لا توجد علاقة بين الإرث والسلوك العدواني، وما امتنا سوى جزء من البشرية التي تشترك فيما بينها بهذا الفعل منذ الأزل، وأن من يتهمنا بهذا القول أكثر منا ممارسة للظلم والعدوان؟ وهل أن الإسلام هو الذي ابتدع ممارسة الحروب، أم أنها إضافة لكونها إرثاً بشرياً، هي أيضاً إحدى الآليات المهمة التي تعتمدها الأمم الساعية للنهوض والتكون؟

الموروث والعدوان والحرب:

الحرب إحدى أوجه حياة الكائنات الحية كلها، فلكل كائن حي حروبه وآلياته المتبعة في هذه الحروب، وحتى أسبابها التي تتراوح بين العيشية، والعدوانية، والعقائدية، والحياتية، والوجودية المصيرية، ما يميز الإنسان عن غيره من الكائنات الأخرى هو أن حروب الإنسان كانت ولا زالت أشد عدوانية ودموية وإيلاماً، لأنه يوظف كل خبراته الفكرية والعقلية والجسدية والعلمية لكي يضمن فيها الانتصار على غريمه، وهو لا يرعوي عن قتل الألوف المؤلفة بغية تحقيق هدف بائس يرضي طموحه

اللامحدود. ولأن الإنسان هو أشد الكائنات غرابة فانه يستسيغ خوض أشد الحروب قساوة وتدميرا لإرضاء نزواته الشريرة ولكنه يعترض بشدة على من يمارس أحقيته بالحرب دفاعا عن نفسه، أو صونا لكرامته، أو طردا لمحتل، أو نشرا للكلمة الله، أو تحقيقا للعدالة بين الناس، وربما لهذا السبب يعتقد العلماء انه من الصعوبة بمكان إيجاد وحدات قياس مناسبة للعقل البشري بسبب كثرة الصفات العقلية التي يتمتع بها الإنسان^١ ولهذا السبب أيضا لا زال علماء النفس يقفون محتارين أمام شخصية الإنسان ويعجزون عن فهم مكوناتها. فقد أثبت الإنسان أنه لغز محير لا يستطيع فك طلاسمه العلماء، وإلا بماذا نفسر مثلا قيام الجيوش الصليبية بشن سبع حروب مدمرة ضد المسلمين بما يعرف بالحروب الصليبية التي لا زلنا كمسلمين نعيش أجوائها ومعاركها وإن كانت بآليات هي غير تلك الآليات التي اتبعوها أول مرة، ومع ذلك يهتمون الإسلام بالدموية والسادية، وهم يعرفون قبل غيرهم أن الإسلام عقيدة سماوية أوحيت من الله سبحانه إلى محمد النبي، والنبي ملزم بإتباع التعليمات التي يجيء بها الوحي إليه، وأن أمر الحرب هو واحد من تلك التعليمات المقدسة التي أوجبها الله عليه لإستخدامها في بعض المناسبات التي لا يصلح فيها النصح والإرشاد أن يكون طريقاً للحل، أي أنها آخر العلاج.

الإذن بالقتال وتاريخه:

اختلف المسلمون في تاريخ الإذن بالقتال فيما إذا كان قد صدر قبل الهجرة أم بعدها، فقال بعضهم، ومنهم ابن هشام: إن آية ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير...﴾ من سورة الحج^٢ نزلت بعد بيعة العقبة (وكانت قريش قد

١. سيكولوجية الشخصية، برنارد نوتكات، ص ١١.

٢. الآية / ٣٩.

إضطهدت من اتبعه من المهاجرين حتى فتنوهم عن دينهم ونفوهم من بلادهم .. منهم من بأرض الحبشة ومنهم من بالمدينة وفي كل وجه .. فلما عتت قريش على الله عز وجل ... أذن الله عز وجل لرسوله في القتال ^١ أي أن نزول أمر القتال جاء في مكة ، وكانت أول آية أنزلت في إذنه سبحانه له (ص) في الحرب وإحلاله له الدماء والقتال) فيما بلغني عن عروة بن الزبير وغيره من العلماء ^٢

هذا الإذن الإلهي كان نهاية مرحلة الدعوة السلمية ، وبداية مرحلة الدعوة الجهادية القتالية ، على رأي أكثر المفسرين الذين بنوا استنتاجاتهم إستنادا إلى ما جاء من أخبار في كتب السيرة ذاتها بهذا الخصوص من أقوال عن آيات الإذن الثلاث ٣٩ / ٤٠ / ٤١ / من سورة الحج وأنهن كن من أسباب الهجرة إلى المدينة كما في قول ابن إسحاق : (لما أذن الله تعالى له ﷺ في الحرب وبايعه هذا الحي من الأنصار على الإسلام .. أمر بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها) ^٣

وجاء غير ابن إسحاق فأدعى أن التحويل نزل بعد الهجرة وليس قبلها ومنهم المسعودي الذي قال : (وفرض عليه الجهاد ، وذلك في سنة إحدى من الهجرة) ^٤ وهو الرأي الأكثر انتشارا وقبولاً . أنا بالذات أؤيد هذا الرأي وأختلف مع ابن إسحاق لأن الأذن لو كان قد جاء بمكة فالمفروض به أن يكون عنصر قوة ، فلماذا يأمرهم النبي بالخروج من مكة في وقت صاروا فيه مستعدين للرد على أذى قريش ؟ ثم أن الإذن كان من المسوغات التي قد تدفع النبي لأن يأمر الصحابة بالرد على العدوان. ولو حدث ذلك

١ . ينظر السيرة ٢ / ٩٥ .

٢ . السيرة ٢ / ٩٦ .

٣ . السيرة ٢ / ٩٦ .

٤ . مروج الذهب ، جزء ٢ ص ٢٨٥ .

مع محدودية عددهم، لتحول إلى عملية انتحارية يشمل خطرهما العقيدة ووجودها، ولذا لم يأذن الله لهم بالقتال قبل الهجرة، ولم يكن هذا الإذن أحد العوامل المساعدة على الهجرة كما يدعون.

كما أن الإذن لم يكن دعوةً للانتقام كما تريد كتب السيرة أن تصوره، فأهدافه أكبر من كل تصوراتهم وهو ما توضحه الآيات التي أنزلت بعد آيات الإذن ومنها قوله سبحانه وتعالى ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾^١ فالإذن إنما جاء لمنع الفتنة، فتنة أن تبقى قريش وحلفائها أقوياء ومقيمون على عبادة الأوثان، ويبقى الإسلام منطويا على نفسه وعرضه للتهديد والمطاردة والمحاربة وحتى الإبادة الجماعية. إن آية (وقاتلوهم) جاءت لتحديد هدف الإذن بالقتال الذي هو في الواقع سماح باستخدام آلية الحرب التأسيسية للقضاء على الفتنة ونشر دين الله.

يقودنا هذا الاستنتاج للاستئناس بآراء مجموعة من المختصين في علم النفس والاجتماع الذين توصلوا من خلال دراستهم إلى أن الأمم التي تسعى لإنشاء نفسها وبناء مقومات وجودها تحتاج للحرب بشدة. وأن الحرب هي إحدى أهم آليات التأسيس، وضرورات التكوين. ونحن المسلمين لسنا بدعا من الناس.

لقد أقر الإسلام شرعية الحرب كما هو معروف، أما آلية تطبيق هذا الإقرار فقد تركها للمسلمين أنفسهم، ولكي ينظم لهم النبي هذه الآليات قام بقيادة الحروب الأولى بنفسه، وهي التي سميت بالغزوات. حيث اقتضت تسمية غزوة على الحرب التي يقودها النبي مباشرة. وعين قادة آخرين لقيادة معارك أخرى ليرى مدى استيعابهم لتعليماته، ولذلك جاءت حروب البعثة نظيفة ومطابقة لقانون الضرورة باستثناء

١. سورة البقرة / الآية / ١٩٣.

حادثتين أو ثلاث منها حادثة "خالد بن الوليد" مع بني جذيمة^١ وحادثة خالد في فتح مكة. وحادثة "أسامة بن زيد" مع الرجل الذي لاذ بالشجرة وهو يردد كلمة التوحيد ولم يسلم من القتل^٢ أما باقي الحروب والغزوات والتي يزيد عددها على (٦٦) حرباً فقد جاءت مطابقة للشريعة السمحاء بل مطابقة للقوانين الحديثة التي وضعها الغربيون أنفسهم، وأنها لم تكن دموية لا بمقاييس تلك العصور ولا حتى بمقاييس العصر الراهن. بل أن هنالك في حروب العصر الراهن خروجاً حقيقياً على مبادئ القوانين التي شرعتها الدول منفردة. والمنظمات الدولية الخاصة، والأمم المتحدة أكبر سلطة تشريعية في الوقت الراهن.

هنا قد يبدو رقم (٦٦) مهولاً إذا ما قورن بعدد السنوات التي وقعت فيها هذه الحروب والتي لا تزيد على ثمان سنوات، وقد يكون هذا المعدل العالي أحد الأسباب التي دفعت المخالفين لإتهام الإسلام بالدموية، دون الالتفات لحقائق هذه الحروب، وأسبابها، وعدد القتلى فيها من الجانبين، وأخلاقياتها وقيمها، وكافة محصلاتها الأخرى. ودون الالتفات إلى أن بعضها جاء رداً على عدوان قام به الأعداء، أي أنها كانت دفاعاً عن النفس. ولم يكن الإسلام هو المبادر والبادئ بها. والدفاع عن النفس حق مشروع لا يخلوا منه قانون وضعي في الدول المتقدمة أو الدول الأخرى. كما أن عدداً لا يستهان به منها لم تقع به مواجهات أو معارك فعلية بالأساس، وقسمها الآخر ردعي جاء لإرهاب وردع العدو وتخويله فقط وليس لقتاله، لكي لا يبادر بشن الحرب. وقسمها الآخر فرضه واقع الحال ومتطلبات التغيير الطبيعية التي يؤمن أصحاب النظريات الحديثة بأهميتها أكثر من إيماننا بها.. فلا يخلص بالتالي من هذا الرقم الكبير

١. للاستزادة بشأنها يراجع صحيح البخاري، حديث ٤٣٣٩ وما بعده، ص ٧١٤.

٢. للاستزادة يراجع صحيح البخاري، حديث ٤٢٦٩، ص ٧٥٢.

سوى عدد قليل جداً يمكن أن نطلق عليه أسم حرب ، وحتى هذا العدد القليل لم يخض المسلمون معاركه بدوافع عدوانية وإسراف ودموية ولذا لم يسقط من المسلمين وأعدائهم في كل هذه الحروب الإسلامية إلا عددا لا يتجاوز العشرات أو المئات على أكثر تقدير. أما المسلمون من جانبهم فكانوا مثالا للالتزام الأخلاقي والإيماني في هذه الحروب كلها، ولم يشتركوا فيها بدوافع إنتقامية ولا بروح عدوانية، أو طباع إجرامية، بل كانوا مثالا رائعا للسمو الأخلاقي وهو ما جعل أعمالهم تخلد إلى الآن.

أما أن يكون الإذن قد نزل للإنتقام من الظالمين كما تقول كتب السيرة، وأن الأمر بالحرب لم يأت إلا بعد أن قوي الإسلام بدخول بعض أهل يثرب فيه، فذلك لا يمثل سوى جزء من الأسباب الكثيرة الأخرى كما سيتضح لنا من خلال البحث.

حقيقة دموية الإسلام

إن اتهام الأعداء لنا بالدموية المتوارثة عن آبائنا الأوائل فيه الكثير من التجني والكذب، ويختلف مع أسس نظرياتهم العلمية التي يتشدقون بها ولا سيما منها ما يعرف بنظرية "الدوافع العدوانية الموروثة"، هذه النظرية التي لا زالوا حتى هذه اللحظة غير متوافقين على مبنياتها الأساسية لأنهم لا زالوا محتارين في طريقة فهم أسس الدوافع العدوانية عند الإنسان. أهى وراثية. أم اكتسابية. وهم ينقسمون بين مؤيد ومعارض لفرضية إرثية السلوك العدواني في الإنسان ذاتها.

فمن المؤيدين لتوارثية السلوك العدواني القاضي "تارد" صاحب النظرية التي يقول فحواها: (إن الإجرام هو نتيجة الطبيعة البيولوجية للإنسان)، أي أنه ظاهرة موروثة. أما رد الفعل الدائري فهو يقع تحت دافع التقليد ولذلك قال: (التقليد الحقيقة الاجتماعية الجوهرية)^١ أما كل من "دبل يو. جيمس" و "بالدوين" فقد اعتبرا التقليد

١. السلوك الجمعي ، د. حاتم الكعبي ، الجزء ١/ ص ١١٧.

عملية غريزية. أي أنهما يتفقان مع القاضي تارد فيما ذهب إليه. "مكدوكل" من جانبه لم يوافقهم على هذا الرأي وقال: (إن هذا اعتبار خاطئ، ذلك أن ليس هنالك أنواعا من السلوك خاصة، يظهر فيها التقليد)^١

أما أغلب علماء النفس في الوقت الحاضر فينكرون تفسير التقليد على أساس غريزي. من جانبها ترى المدرسة التحليلية الفرويدية أن البيئة العدوانية تزيد درجة العدوان في التركيب الفطري للفرد^٢ ويرى "ميلاني كلاين" أن للإنسان غريزة عدوان موروثة، وأن للقلق وصعوبة البيئة دور في زيادة إنفعال الغريزة. أما "الفريد أدلر" فيرى أن العدوان غريزة يعتورها الإخفاق أو النجاح في الظهور تبعا للظروف المحيطة^٣

وتبعا لهذه الآراء المتباينة نجد أن كثيرا من علماء النفس أقروا بأن العدوان جزء أساسيا من كيان البشر^٤ أما "جون لويس" فيدعي خلاف ذلك تماما ويذهب إلى أنه لا يوجد دليل على حافز نحو السلوك العدواني مقرر وراثيا ويقول: (إن العدوان ينشأ لدى الإنسان والحيوان معا في ظل ظروف من الخيبة والحرمان)^٥ بل أنه يذهب لأبعد من ذلك فيدعي أن الاعتقاد الشائع بعدوانية الإنسان الموروثة يمكن أن يكون خطرا^٦

إن هذه الآراء بمجموعها تريد أن تسوق الإنسان قسرا وتحشره في إحدى خانتي الحرب الكلامية التي فشت في المجتمع الإسلامي زمن الأمويين، القدرية، أو الجبرية، وتلغي الوسطية من حياته كلها، سواء منها تلك التي تؤمن بتوارثية الروح العدوانية، أو

١. المصدر نفسه ، الجزء ١ / ص ١١٧ .

٢. ينظر النفس والعدوان ، د. ريكمان إبراهيم ، ص ١٧ .

٣. ينظر المصدر نفسه ، ص ١٨ .

٤. علم الاجتماع ، د. موريس جنزبرج ، ص ١٢٩ .

٥. الإنسان ذلك الكائن الفريد ، جون لويس ، ص ١٠٧ .

٦. المصدر نفسه ، ص ١٠٩ .

تلك التي تعد الافتراس من جوهر الطبع البشري كما في قول " شينغلر " (أن الإنسان في جوهره حيوان مفترس). إنما هي آراء محدودة لأنها لم تدرك سوى جانباً واحداً من جوانب الطباع البشرية، كما أنها لم تولي الجانب السياسي أي أهمية رغم أهمية هذا الجانب الإيحائية الحثية، فحالة ألمانيا قبل تولي "هتلر" للسلطة فيها مثلاً، كانت تؤثر طغيان الروح العدائية على كل الثقافات الأخرى لعموم الشعب بما فيهم رجال الفكر (ولذلك اتحد مفكرون مثل كليتز لا جارد، ومولير، ورو زنبرك، وشينغلر، وأعلنوا ما يعرف بإنجيل الدم والتراب وضرورة مرغوبة العدوان)^١ ولا يمكن لهذا التوافق أن يكون إلا بالحث والتشجيع، وإلا فالأمة الألمانية لا ترتبط بأب وأم واحد لكوني تراث عنهما مثل هذا السلوك العدواني. بدلالة أنهم أصبحوا فيما بعد من البلدان المحبة للسلام، وليس ذلك لأنهم يعيشون تحت بنود الأمم المتحدة كطرف خاسر في الحرب كما يعيش العراق اليوم، وإنما لأن القول بتوارثية العدوان هو أمر مخطوء، وإلا كنا قد لمسنا بروز الدوافع العدوانية فيهم حتى ولو على المستوى الفردي بنسبة تزيد عما هي عليه عند أفراد الشعوب الأوربية المجاورة لهم

ومع ذلك أقول: إنه إذا كانت النظريات التي تعتبر العدوان أحد الغرائز الموروثة فإن المسلمين كباقي البشر يصح عليهم ما يصح على هؤلاء، لأنه لا توجد أي نظرية تدعي أنهم وحدهم معنيون بوراثة الغرائز العدوانية. أما إذا كانت النظرية الراضية للتوارثية هي الصحيحة فإن العرب والمسلمين حالهم حال غيرهم فيهم العدواني وفيهم المسالم الراض لكل أشكال العدوان. وإذا كانت الحروب هي أفضل المواقع لكشف درجة العدوانية في الإنسان، فإن ما وقع في الحروب الرسالية زمن البعثة كان بشهادة الإنصاف والعدل والواقع خال من هذه الدوافع، بينما تجد الروح العدوانية مسيطرة

١. ينظر الإنسان ذلك الكائن الفريد، جون لويس، ص ١٠٩.

بشكل كامل على الطرف الآخر، سواء كانوا عرب قريش الذين مزقوا صدر الشهيد حمزة، أو اليهود، أو الفرس، أو الروم. بل أن الروح الغرائزية العدوانية قادت الدول الأوربية في القرن الماضي لخوض حربين عالميتين مدمرتين قتل فيهما ملايين الأبرياء. وتقود اليوم القوات الغازية للعراق إلى قتل الناس بلا مسوغ وتدمير بناء التحتية بلا سبب، فقط لأنهم كيفوا أنفسهم على نمط حياتي خاص سيبقى مرافقا لها حتى النهاية، يؤيد ذلك رأي "وود جونز" الذي يرى أن أي سلالة ما أن تكييف نفسها مع أسلوب خاص في الحياة حتى تسير على ذلك الاتجاه حتى النهاية^١ وهذا الرأي يؤكد بما لا يقبل الشك أن الموضوع تكييفي أكثر منه وراثي.

نستنتج من هذا أنه ليس من المؤكد أن الحروب كلها عدوانية، وإن رافقها قتل وأسر واحتلال أرض، فهناك حروب عقائدية تسعى من خلال آلية الحرب المعروفة وما يرافقها من أعمال إلى التضحية بأعداد محدودة من الناس لصالح البشرية كلها. ولا سيما إذا ما كانت هذه الأعداد المراد التخلص منها قد وصلت إلى مرحلة العتو والإمتناع الحدي. كما يضحى الطبيب الماهر بعضو من الجسد للحفاظ على الجسد كله أو بسن منخورٍ للحفاظ على باقي الأسنان، أو كما يضحى المجتمع بإعدام أحد المجرمين العتاة للتخلص من شروره وحماية باقي الناس من موبقاته

وإذا ما كان المشروع الثقافي المراد نشره يهدف إلى إقامة دولة مسالمة عقائدية تسعى لخلق أمة تربط بين أفرادها عقيدة سماوية وليس عقائد إثنية وروابط دموية أو قبائلية، لأن وظيفة الدولة في الدرجة الأولى هي أن تخلق الأمة وتدافع عنها كما يقول "صموئيل هنتنغتن"^٢ فإن الحرب ممكن لها أن تُسرّع نضوج هذا المشروع، وتبعد عنه المخاطر.

١. المصدر نفسه ، ص ٨٢.

٢. من نحن ، صموئيل هنتنغتن ، ص ٣١.

والإسلام كان يومها قد كاد يفرغ من إنشاء دولته التي تسعى لخلق الأمة الأممية، ويبحث عن الوسائل الناجعة لحمايتها، ومن تلك الوسائل كانت الحرب، فالحرب على رأي "تشارلز تيلي" هي التي صنعت الدولة، والدولة صنعت الحرب^١ بل أن "مايكل هاوارد" يذهب إلى أنه لم يكن أن تولد أمة بالمعنى الصحيح للكلمة دون حرب، ولا تستطيع جماعة تعي ذاتها أن تؤسس نفسها كممثل جديد مستقل على المسرح العالمي دون صراع مسلح أو دون تهديد به^٢ ولذا يرى هنتنغتن أن بروز الدولة القومية في أوروبا كان نتيجة عدة قرون من الحروب المتكررة، ونتيجة تلك الحروب دخلت الكلمتان (أمة) و (وطن) في القرن الثامن عشر إلى اللغات الأوروبية

فالحرب على رأي الجنرال "كلاوزفوس" هي تحقيق للأغراض السياسية بوسائل أخرى^٣ والمؤرخ الإغريقي "ثيوسيديدس" يقول لسبب من ثلاثة أسباب تذهب الأمم إلى الحرب وهي: الخوف، المصلحة، الشرف.

وفي عام ١٩٣٣ كتب "أنشتاين" في رسالة إلى "سيغموند فرويد": كل محاولة لإلغاء الحرب إنتهت إلى فشل مؤسف.. فالإنسان لديه في داخله شهوة للكرهية. وكتب له فرويد في رسالته الجوابية: الناس كالحوانات يحلون مشاكلهم باستخدام القوة ومع أن هنالك وجهات نظر في هذين القولين إلا أنهما يؤشران على أهمية مبدأ الحرب في العلاقات العامة بين البشر. لكن ليس من العقول أن تبقى الحرب هي الحل الأوحده لأي إشكال يقع. وقد تجاوز الإسلام هذا الحل بعد النصر الكبير في فتح مكة أو بعده بقليل، ثم تم فرضه بعد وفاة النبي لأسباب معروفة، تلا ذلك حروب الفتوح التي قادتها

١. المصدر نفسه ، ص ٣١.

٢. المصدر نفسه ، ص ٤٤.

٣. الجيوبولتيكا ، رسل هـ. فيفيلد ، ص ١٩.

٤. من نحن ، هنتنغتن ، ص ٤٠ - ٤١.

الحضارات التي قامت على أرض الإسلام. ولغاية السبات الكبير الذي مر به المسلمون حيث انتهى عصر الحروب وتحولت الجيوش العربية الإسلامية الغازية إلى مجاميع تتصدى للحروب الكثيرة التي تشنها عليها الأمم الغازية. فانتهى زمن حرب الصيرورة، وبدأ زمن الحروب الدفاعية.

أما الأوروبيون فإن حروبهم التكوينية الشرسة لم تنته لأنها رسخت في عقولهم وتركت أثرها الكبير على كل سلوكياتهم، فصارت هذه الآثار تطفئ بين فين وآخر وتقودهم لإحلال الدمار في الأرض متعللين بأن ضرورات الحياة لا تعرف قانونا، أو كما جاء على لسان المستشار الألماني الأسبق "هولنج" أمام "الرايخسشتاغ" عام ١٩١٤ : (إن غزو بلجيكا خرق للقانون الدولي ولكن الضرورة لا تعرف قانونا)^١

ويبدو من هذه النظرة المخادعة مزدوجة المعايير أن الحقائق الجزئية، أو أنصاف الحقائق، أكثر إغراء من أن تقاوم، ولذلك سيطرت على مخيلتهم، فصاروا يتغافلون عن جرائمهم العظيمة، وخرقهم للقانون الدولي والإنساني، وفي ذات الوقت يركزون تماما على حروب تأسيسية خاضها الإسلام بشرف قبل أكثر من أربعة عشر قرنا ويزيد. لذا أجد أننا حتى لو آمنا جدلا بصحة نظريتهم التي تتهم الإسلام بالدموية سنبقى عاجزين بالكامل عن إيجاد مصاديق لهذا الإدعاء على أرض الواقع، كما أنهم سيعجزون أيضا عن ذلك، أما إذا عكست المنطوق فإنك تجد حتما كما كبيرا من الدماء التي تقطر منها صفحات تاريخهم الذي لا يساوق تاريخنا بالقدم والعراقة، وتشم رائحة المكر والخيانة والخداع والكذب تنبعث من ثناياه، فهذا هو "غوستاف لوبون" يذكر في سياق حديثه عن الحرب الصليبية أن أول ما بدأ به قائد الحملة الصليبية الثالثة "ريكاردوس" هو قتله ثلاثة آلاف أسير مسلم سلموا أنفسهم إليه بعد أن قطع لهم عهدا

١. الجيوبولتيكا، فيفيلد، ص ١٨.

بحقن دماهم^١ وفي إحصاء جاء به "هنتنغن" (تبين أن العالم شهد في الفترة بين عامي ١٩٨٤ - ١٩٩٩ مائة وعشرين حرباً)^٢

منهج تعاقب الارتباطات

إن من الحقائق المهمة التي يجب أن نعرفها أن هنالك في علم الاجتماع منهجاً يعرف بمنهج "تعاقب الارتباطات" غايته دراسة الروابط بين المتغيرات، والإسلام في بداية تأسيسه لدولته وبنائه لكيان أمته الموحد كان يملك كما كبيرا من المتغيرات المحكومة بالارتباطات الجزئية، وهو ترجمة لما أشار إليه "مونتسكيو" بقوله: (إن كل مظاهر النشاط البشري من سياسية، ودينية، وعقلية، وفنية، ترتبط بعضها ببعض ويؤثر بعضها ببعض)^٣ عليه لا يعني خوض الإسلام لهذا العدد الكبير نسبياً من الحروب في فترة محدودة انه تقوّل على السادية والدموية ولاسيما وأن حروبه هي جزء من حركة التاريخ الإنساني العالمي الذي يعد الحرب أحد أهم آليات التأسيس. وأنها كانت تسعى لإيجاد الإتصال الثقافي بالمجتمعات الأخرى فـ"ولبرت مور" يقول: (إن علماء الاجتماع يعتقدون أن من أبرز أساليب الإتصال الثقافي أو ما يعرف بنقل الثقافة من مجتمع إلى آخر هي الحروب)^٤ وهذا الرأي إذا ما كان صحيحاً فإنه أكثر انطباقاً على الإسلام من سواء فالإسلام من أكبر المشاريع الثقافية التي عرفت البشرية، وأنه جاهد لتعميم مشروعه بالطرق السلمية، فجوبه بالرفض، ولذا اختار آلية الحرب لتكون إحدى الآليات المساهمة في نشر هذا المشروع، ونقل ثقافته إلى المجتمعات الأخرى. وحروب الإسلام

١. حضارة العرب ، غوستاف لوبون ، ص ١٣ .

٢. من نحن ، هنتنغن ، ص ٣١ .

٣. مقدمة في علم الاجتماع ، أرمان كوفيليه ، ص ٩ - ١٠ .

٤. التغيير الاجتماعي ، ولبرت مور ، ص ١٢٣ .

كانت تهدف إلى خلق اتصال ثقافي بالأمم الأخرى. وإذا كان صراع المشاعر المكبوتة يقف خلف حروبهم الدموية فإن الإسلام لم يكن يشكو من هذه الآلام، ولذلك لم تكن حروبه إلا إحدى آليات التأسيس، فثمة وسائل أخرى أعتمدها النبي لنشر الثقافة التي جاء بها من عند الله وهي كثيرة ومنها أنه ﷺ كان على علم وإدراك لديناميات الجماعات أو ما يعرف بـ "سيكولوجيات الجماعات" والتي يقصد بها: طرق تنظيم الجماعات، أو معرفة طبيعة الجماعات وقوانين نموها والذي يقول عنه "بونر": (إنه فرع من علم النفس الاجتماعي يبحث في تكوين وفي تغير بناء الجماعة ووظائفها)^١

حيث مارس النبي عملية تنظيم الجماعة المسلمة وفق تصور تكاملي يتناسب ومقدرته على فهم طبيعة هذه الجماعة، وقوانين نموها بأن مزج بين تعاليم التسامح التي جاءت بها الشريعة، وقانون الحرب الذي ورثته الجماعة تاريخياً، وأستخرج قوانين جديدة تعمل على بناء الإنسان وليس تدميره من خلال عقلنة الحرب، وتسييرها وفق العقائدية الدينية. وفي الوقت الذي كان فيه الفيلسوف "هوبز" يبشر بنظرية (حرب الكل على الكل) كان الإسلام يدعو لنبد الحرب وتنظيف المفروض منها قسراً من الأدران، واستعمالها بشكل بنائي أخلاقي، وبشكل لم تعرفه البشرية من قبل ولا من بعد، ولذلك نجح في سنين معدودات في بناء أمة عظيمة تمكنت بعد عصر البعثة من بسط سلطانها على أرجاء الدنيا المعروفة. لأنه قضى على الضراوة الحيوانية التي كان المجتمع العربي متطبعاً بها، وأنشأ بدلاً عنها أنماطاً سلوكية راقية لها قدرة التحكم بسلوكيات الفرد في السلم والحرب، ولذلك كان المسلم عادلاً إنسانياً في زمن الحرب، كما هو في زمن السلم.

أما ما أستجد بعد زمن البعثة من سلوكيات وتطرف أفضى إلى وقوع مجازر منكرة

١. اليهود وعلم الأجناس، محمد رشيد الفيل، الجزء ١/ ص ٤ - ٥.

داخل المجتمع الإسلامي وخارجه ابتداءً من حرب مانعي الزكاة، إلى مقتل ثلاثة من أصل أربعة من الخلفاء الراشدين بيد المسلمين أنفسهم بإستثناء الخليفة الثاني الذي قتل بيد مولى نصراني وقيل مجوسي، إلى حرب الحمل إلى صفين إلى النهروان إلى حرب العراق ضد الإمام الحسن بن علي إلى واقعة ألطف ومقتل الإمام الحسين إلى واقعة الحرة واستباحة مدينة رسول الله وصولاً إلى كل الحروب الأخرى، فمرده إلى تلك الرواسب الجاهلية التي استعصى على الإسلام أن يخلعها من النفوس، فبقيت خطراً قائماً يُستنفر متى دعت الحاجة إليه. وهي مرحلة الازدواجية التي نوه عنها حكماء الأمة. حيث كان الخليفة يلهو بالقرد والرقص والصيد وشرب الخمر، فإذا ذكره بالله أحد الحاضرين، جلس يبكي كطفل. وحيث كان المسلم يبكي بحرقة إذا رأى أرملة جائعة، أو يتيم عارياً، ولكنه لا يتحرج عن قتل ابن بنت رسول الله وكافة أفراد عائلته. وحيث كان المسلم لا يرضى أن يأكل حبة تمر سقطت تحت نخلة إلا بموافقة المالك، ويؤدي لأحد النصارى دية خنزيره الذي قتله لهوا، ولكنه لا يرعوي عن قتل التابعي عبد الله ابن الصحابي الجليل خباب بن الأرت وزوجته الحامل وأمه بسبب الاختلاف العقائدي.

أما الازدواجية ذاتها فقد جاءت من الأسس التي قامت عليها الدولة بعد عصر البعثة تحديداً، وذلك لأن المجتمع المسلم دخل مرحلة جديدة بعد عصر الخلفاء الراشدين، إذ جاء خلف ابتزوا ملكهم واستباحوا دنياهم^١ ثم أن الدولة التي أسسها الأمويون ومن بعدهم العباسيون هي وليدة العنف الدموي^٢ فالدولة الأموية التي قامت على أسس من السياسة والسيوف اتخذت خطأ من شأنه أن يبتعد بالمجتمع الإسلامي تدريجياً عن بساطته الأولى^٣

١. تاريخ الحضارة الإسلامية العربية، سعيد عبد الفتاح وآخرون، ص ٢٥٤.

٢. الفكر الإسلامي، محمد أركون، ص ١٦٧.

٣. تاريخ الحضارة الإسلامية العربية، ص ٢٥٣.

وفي هذه المرحلة من الازدواجية الغربية والابتعاد عن البساطة والواقعية وقع الخلط بين المفاهيم حتى طغت الدنيوية منها على الدينية، فعاش المسلم لحظاته التاريخية بشخصية مزدوجة تتعايش فيها روح الضراوة وروح العقائدية في نفس الوقت، بل في نفس اللحظة الزمنية حتى تكاد تشعر وكأنك تقف في ذات الوقت أمام شخصين مختلفين تلبس أحدهما الآخر فأصبحت شخصاً واحداً جسدياً بشخصيتين مختلفتين كلياً إحداهما شيطانية قبيحة والأخرى إيمانية رائعة..

ثم جاء المخالفون بعد دهور ليجردوا المجتمع الإسلامي من ثقافته وأخلاقه وإيمانه وكل حسناته الأخرى وليبقوا على روح الضراوة فيه، لإظهاره وكأنه كان يستعدي الكوارث على نفسه نتيجة التطبع العدواني الموروث، بما يوحي وكأنه لا يملك إرثاً فكرياً يذكر.

أما الوسائل التي اتبعوها لتأييد صحة مثل هذا الافتراض فإنها لم تقم على بناء علمي، كأن تكون عن طريق المراقبة والتسجيل، لاستحالة حصول ذلك، بسبب الفارق الزمني، بل قامت على افتراضات هزيلة استقوها من بعض النقول الضعيفة التي أوردها الرجال الذين رووا وكتبوا السيرة، إذ لا ينكر أن صياغة قصص السيرة النبوية بأسلوب ملحمي، والتأكيد فيها على أهمية الصراع المسلح تبعاً للموروث العربي الجاهلي القديم الذي كان يقدس البطولة والشجاعة، وليس تبعاً للمفاهيم الإسلامية الجديدة، هي التي أعطت للآخرين انطباعاتاً كلياً عن دموية الإسلام، وتعطش المسلمين لسفك الدماء.

وسبب ذلك أننا لم نفهم الروابط بين المتغيرات التي رافقت فترة التأسيس، فتعاملنا مع كل متغير منها وكأنه ثابت قائم بذاته، ثم بنينا تصوراتنا تبعاً لهذه النتيجة، ولذلك ثمة خلاف كبير في رؤانا، خلق تعارضاً كبيراً في قناعاتنا، مما دفعنا للضغط عسفاً على عقول الآخرين بغية إجبارهم على قبول ما جئنا به، دون دراسة أو تمحيص، والعقل

البشري يرفض أن يأخذ إلا ما يؤمن به ويرضاه. وهم إن كانوا قد نجحوا بموجب هذا الأسلوب التعسفي في إسكات الأمة زمنا طويلا ومنعوها من أن تبدي رأيها بالنقول بموجب نظريات الإكراه والمنع التي وضعوها في عصور متأخرة عن زمن البعثة، وادعوا أنها من أيام الوحي، فإن الآخر الذي لا سلطة لنظرياتنا القمعية عليه، وجد نفسه حرا في أن يبدي رأيه الصريح فيها بلا خوف أو تخرج، مستندا لما في نقولنا نفسها من ضعف ووهن وتعارض في الوقت الذي لا نملك فيه سلاحا نرد به على دعواه إلا التأويل والتعليل الذي ليس له عليه من سلطان. ولذلك يرى بعض الباحثين أن الإستشراق عمل على إعادة تشكيل الإسلام، وأنه وضع كاريكاتور متراص للظواهر الإسلامية. وأنهم أنتجوا نظرية للإسلام يبدو أنها ترفض الجوهرية أي أنتجوا تفسيراً لا يكون معه ممكنا اختصار الإسلام إلى خصائص أساسية ثابتة وأبدية تعرف ماهيته^١

عند هذه النقطة أجد أن الغرباء الذين طعنوا بالإسلام اعتمادا على نقول وردت في كتب السيرة والحديث، ليسوا وحدهم المذنبون، فالذنب ذنب المسلمين أنفسهم أيضا لأنهم لم يدركوا حقيقة ما كان يحدث. فأضفوا على الروايات والأخبار ما يلاءم عقائدهم وتطلعاتهم وولاءاتهم ثم جاء الكتاب والمؤلفون فاخذوا بها دون تدقيق أو تمحيص أو امتحان، لذا جاءت بعيدة عن الحقيقة كل البعد، فأضرت بالإسلام كثيرا، وكانت أحد أهم أسباب الخلاف بين المسلمين، فجاء الغربيون (مفكرون ومستشرقون) وأخذوا بها من كتبنا، واحتجوا بما فيها علينا لتوهين الإسلام. ومع ذلك لا زال هنالك بيننا من يرفض جملة وتفصيلا أي محاولة لتفكيك هذه النصوص واستنطاقها ومعرفة دوافعها وحقيقة منشأها، ويعتبر ذلك خروجاً على الدين وتحيزاً وعدم حيادية. إن الأعداء بكل صنوفهم يقتنصون الفرص لكسب أي معلومة يمكن توظيفها

١. الخوف الأصولي، بوبي س. سيد، ص ٨٧.

للطعن بالإسلام ولا سيما المعلومات الزائفة الكاذبة، أما نحن فإننا لم نكتف بكل الزيف والكذب التاريخي، فاخترعنا مجموعة كبيرة من الأباطيل والتزييفات التي نوجه من خلا لها الطعن للمسلم الآخر. وعلى سبيل المثال جاء عن بعض المخالفين لمدرسة أهل البيت في مجموعة من الكيديات المصطنعة أن الشيعة يُحضرون في كل خميس حصانا مسرجا ويأتون إلى سرداب سامراء بانتظار ظهور الإمام المهدي، ومع أنه لا يوجد مسلم حقيقي يؤمن بمثل هذه السخافات، ولا يوجد من يمكن أن يثبت مثل هذا الفعل وينسبه للشيعة، والشيعة أنفسهم لا يعتقدون مطلقا بوجود المهدي في السرداب، وأن الشيخ الوائلي رحمه الله تعالى قال أكثر من مرة في رده على هذا الاتهام أنه لو كان في يده لأمر بردم هذا السرداب بالتراب وأخفى معلمه، وأن هذا الفعل لو كان معتقدا حقيقيا لما كانوا قد تركوا العمل به، إلا أن هذه الدعوة انتشرت بين العامة من المخالفين لدرجة أن "بيتر غالبريث" وهو أحد أهم الخبراء الأمريكيين في الشؤون العراقية، وكان يعمل لدى لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ الأمريكي وعمل رئيسا لبعثة توثيق استخدام العراق للأسلحة الكيماوية ضد الأكراد قال في الفصل الأول من كتابه (نهاية العراق): (كان شيعة العراق عبر هذه القرون يجلبون حصانا مسرجا إلى مرقد الإمام العسكري حيث كانوا ينتظرون عودة محمد المهدي الإمام الثاني عشر والأخير الذي اختبأ في مغارة تحت المرقد عام ٨٧٨ ميلادية)^١

الحروب الإسلامية

ولذا أجد أن أسلم طريقة لفهم هذا الخلط المفضي للوهن هي البحث الموسع بشأن تلك الحروب ومقارنة ما جاء في كتب السيرة عنها مع ما جاء في كتب الحديث والكتب

١ . نهاية العراق، بيتر غالبريث، ص ٩.

الأخرى، حيث سنكتشف أن كتب السيرة الموجودة بين أيدينا اليوم، والتي يدعي بعض المتعصبين أنها أصدق السير، تضم كما كبيرا من التناقضات ومن الأخبار التي شوهدت الخلط التاريخي المقصود وغير المقصود، وأن الكثير مما ورد فيها من آراء ونتائج لم يحدث، ولم يقع أصلا في عصر البعثة، وإنما هو خيال من إفرازات الحراك السياسي للعصور التي تلت هذا العصر، وهي العصور التي كتبت قصص السيرة فيها، وتحت مؤثراتها إستنادا إلى روايات بعض التابعين من أولاد الصحابة بالأساس، وجل هؤلاء كانوا من المشتغلين بالسياسة، والخائضين في مبانيتها، والمتأثرين بمباني الخلاف الأول، مما يعني أن الحيادية والتجرد يصبحان من المستحيلات التي لا يقدر أي كان على تجاوز مؤثراتها.

للحرب الإسلامية في اللغة عند المسلمين عدة معان تفرضها طبيعة الحرب ذاتها، فهناك السرايا وتمتاز بقلّة عدد الجنود المشاركين بها، والغاية من إرسالها. فمن حيث العدد يتراوح عدد جنودها بين الجندي الواحد والثمانين جنديا، حيث كان عددهم في سرية عبدة بن الحارث وهي أول سرية في الإسلام ستون مقاتلا وفي سرية حمزة ثلاثون، وثمانية في سرية سعد بن أبي وقاص، وسرية عبد الله بن جحش، وكان قادتها وجنودها من المهاجرين حصرا في الفترة الأولى حيث لم يأمر النبي الأنصار بالمشاركة فيها. وكان النبي يرسلها للمراقبة، والاستطلاع وللإغارة، والاعتقال، وتنفيذ الأحكام التي كان يصدرها النبي في بعض الأحيان. كما هو في سرية زيد بن حارثة إلى القردة في نجد للإغارة على قافلة مهمة يقودها أبو سفيان حيث نجحت هذه السرية في السيطرة على ما في القافلة من غنائم ولكن المرافقين لها هربوا بما فيهم أبو سفيان^١ وسرية عمرو بن أمية الضمري وجبار بن صخر الأنصاري بعثهما رسول الله لقتل أبي سفيان، وسرية

١. سيرة ابن هشام ٤٦/ ٣.

سالم بن عمير أرسله النبي لقتل المنافق أبي عفك وقد نجح سالم في قتله ، وسرية عمير بن عدي الخطمي لقتل المنافقة عصماء بنت مروان فقتلها ورجع ، وسرية كرز بن جابر لقتل البجليين الذين قتلوا يسارا^١

وهناك الغزوات التي كان النبي يقودها بنفسه. وهناك أيضا الحروب التي كان قادتها من المسلمين أنفسهم ، ولا يشترك بها النبي. وهي الحروب الحقيقية التي جاءت بعد مرحلة السرايا ، وإن جاءت سرية عبيدة بن الحارث بعد الغزوة وليس قبلها.

إن الحديث واللغظ إنما كثر في شأن الحروب ، أما السرايا فلم يحدث فيها ما يستوجب الكلام ، وتعتبر هذه الحروب أحد أهم مراحل الطور المدني. وتجد فيها خلاصة تاريخه بسبب المدة الزمنية الطويلة التي استغرقتها ، لدرجة أن بعضها كانت تقع مباشرة بعد حرب سبقتها مباشرة ، وبعضها كانت تطول مدتها لشهر أو أكثر من شهر.

وتأتي أهميتها من كونها حققت النصر الناجز للإسلام الذي كان قد حقق الانتصارات وبنى قواعد التأسيس سلميا على مدى خمسة عشر عاما تقريبا. وبسببها وقع الخلاف بين المسلمين ، ووقع الاختلاف في الأحكام الشرعية بين المذاهب ، فيما يخص متعلقات الجهاد ، والأسر ، التي استقوها من قصصها.

وقد تعرضت قصصها في مرحلة الرواية الشفهية أي قبل التدوين للكثير من التزييف والإضافة والحذف والتغيير والتبديل والخلط التاريخي والاختلاف الجوهرى بين روايات الرواة ، كل ذلك لكي تتم نصره هذا المعتقد أو ذاك ، أو يتم الطعن بهذه الشخصية أو تلك ، أو يتم التأكيد على صحة هذا الموقف أو ذاك ، أو يتم خلق الفضائل لهذا الشخص أو ذاك ، أو إخفاء فضائل هذا الصحابي أو ذاك. وهي وإن كتبت قبل كتابة الحديث النبوي إلا أن ما تعرضت له في مرحلة التدوين لا يقل أهمية عما تعرض له

١. المصدر نفسه ، ٤ / ٢٥٠ - ٢٥١ - ٢٥٢.

الحديث من تلاعب ، ولا عن المؤثرات التي تعرضت لها قبل التدوين، أي أنها تعرضت لمرحلتين من التلاعب نجحتا في تغيير الكثير من حقائقها ووقائعها وقصص البطولة فيها. ويجد المتابع أن بؤادر الخلاف تظهر مع اختلافهم في عدد الغزوات الصحيح الوارد ذكرها في كتبها وفي الصحاح ، فأبن إسحاق وابن هشام قالوا أن عددها سبعا وعشرين غزوة بالتمام والكمال ، وكذلك قال ابن سعد^١ أما البخاري فقال في صحيحه : (سئل زيد بن أرقم : كم غزا النبي من غزوة؟ قال تسع عشرة ، قيل : كم غزوت أنت معه؟ قال سبع عشرة)^٢

امتازت الحروب والغزوات الأولى بالبساطة ، وكأنها كانت مرحلة تدريبية لإعداد الجيش الإسلامي وتهيئته لإحداث التغيير التاريخي للكون. ويجد من يتابع أخبارها ابتداء من أولها وهي غزوة (ودان) التي قادها النبي ﷺ بنفسه في شهر ذي الحجة ، أي بعد مقدمه الشريف في شهر ربيع الأول إلى المدينة بثمانية أشهر ، وحتى غزوة (صفوان) أو بدر الأولى التي وقعت في السنة الثانية للهجرة قبل معركة بدر الكبرى بثلاثة أشهر. وهي على كل حال تمثل عدداً لا يستهان به، ظاهرة التزامن أي وقوع أكثر من واقعة في فترة وجيزة من الوقت، أو قصر الزمن بين واحدة وأخرى ، وبساطة الأسلوب ، وعدم وقوع قتال فعلي فيها ، وتباين غاياتها والأسباب الداعية لها. فمن ناحية المدد الزمنية بينها نجد أن ودان وهي الأولى وقعت بعد ثمانية أشهر من الهجرة ، وبعدها بشهرين وقعت بواط وبعدها بشهر ونصف وقعت العشيرة التي لبث النبي والصحابة فيها شهرين كاملين خارج المدينة ، وبعد عودته إلى المدينة بعشرة أيام فقط وقعت صفوان ، ثم بعد ثلاثة أشهر وقعت بدر الكبرى. ثم بعدها بسبعة أيام فقط وقعت غزوة

١. طبقات غين سعد ٢ / ٧.

٢. صحيح البخاري ، حديث ٣٩٤٩ ص ٧٠٠.

بني سليم ، ثم بعدها بعدة أيام وقعت غزوة بني أمّr التي لبث النبي فيها شهر صفر كله خارج المدينة ، ثم بعدها بشهر وقعت غزوة الفرع وهكذا. كما يلاحظ أن النبي كان يلبث في بعضها مدة طويلة يمكن أن نعتبرها بموجب المفاهيم والمصطلحات العسكرية الحالية فترة إعادة تنظيم. حيث لبث في العشيرة شهرا ، وفي بني أمّr شهرا آخر وفي الفرع أكثر من شهرين. أو أنه كان يستغل تفرغ المسلمين من التزاماتهم الحياتية والعائلية بالكامل لتعليمهم أسس العقيدة.

الفصل الخامس

السرايا والغزوات والحروب الإسلامية

من خلال متابعة جزئيات الغزوات يمكن معرفة الكثير من الحقائق
الخافية وجلاء الكثير من المبهمات والتوصل إلى كثير من النتائج

غزوة ودان

كانت غايتها التعرض لقريش وبني ضمرة بن بكر. وقد نجح النبي فيها بموادعة بني ضمرة، ثم رجع إلى المدينة^١ وتأتي أهميتها أن النبي وادعهم (على أن لا يغزو بني ضمرة ولا يغزوه، ولا يكثروا عليه جمعا، ولا يعينوا عدوا)^٢ ولم يقع فيها قتال. ويبدأ الخلاف بين المؤرخين والرواة مع هذه الغزوة مباشرة من حيث الأسبقية والترتيب التسلسلي ومن حيث التسمية أيضا، فكتب السيرة تقول أنها الأولى، قال ابن هشام: (وهي أول غزوة غزاها)^٣ وقال المسعودي: (وكان أول غزواته صلى الله عليه وسلم من المدينة بنفسه إلى ودان وهي المعروفة بغزوة الأبواء)^٤ أما البخاري فقد أورد في صحيحة إن التابعين سألوا زيد بن أرقم: (فأيهم كانت أول؟ قال: العسيرة أو العشير، فذكرت لقتادة فقال: العشير)^٥ وهي الغزوة التي أورد ابن هشام عن ابن إسحاق قوله إن اسمها العشيرة لأن النبي

١. ينظر السيرة ٢ / ٢١١.

٢. طبقات ابن سعد ٢ / ٨.

٣. المصدر نفسه.

٤. مروج الذهب، جزء ٢ ص ٢٨٧.

٥. صحيح البخاري، كتاب المغازي، حديث ٣٩٤٩ صفحه ٧٠٠.

إعتدل به الطريق حتى نزل العشيرة من بطن ينبع فأقام بها^١ أما ابن سعد فقال أنها: ذي العشيرة^٢ حيث ترى الخلط التاريخي واضحا. بل سنراه بشكل أوضح عند الحديث عن غزوة ذات الرقاع وكيف اختلفوا في مصدر تسميتها.

غزوة بواط. أراد بها النبي قريشا ولم يلتقيان فرجع إلى المدينة غزوة العشيرة. التي أراد بها النبي ﷺ قريشا مرة ثانية، وقد وادع فيها بني مدلج وحلفاؤهم^٣

غزوة صفوان وتعرف ببدر الأولى وهي أول غزوات بدر الثلاث، أراد بها كرز بن جابر الفهري الذي أغار على سرح المدينة، فخرج النبي بطلبه ولم يدركه^٤ غزوة بدر الكبرى:

وقعت في السنة الثانية للهجرة المباركة الموافق لسنة ٦٢٤ م. وهي من أهم المعارك. بعد مجموعة المعارك التدريبية التي امتدت منذ بداية الهجرة إلى سنة إثنين هجريه. وتأتي أهميتها لكونها أول معركة يقع فيها قتال فعلي، وأول نصر يسجله المسلمون على قريش، رغم أن عدد المسلمين فيها كان أكثر من ثلاثمائة مقاتل بقليل، بينما زاد عدد جيش قريش على الألف. وأول المعارك التي وقع الإختلاف الحقيقي في أحداثها بين الإخباريين والرواة والكتّاب.

أشير هنا إلى أن ابن إسحاق أخذ بعض أخبارها عن يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير، والبعض الآخر عن ابن شهاب الزهري، وكلا الرجلين كانا قد كتبا في السيرة

١. السيرة ٢ / ٢١٨.

٢. الطبقات ٢ / ٩.

٣. السيرة ٢ / ٢١٨.

٤. السيرة ٢ / ٢١٩.

وأخبارها. كما أنهما كانا على خلاف شديد مع علي بن أبي طالب، وقد أوردنا فيما سبق حديثاً عن حقيقة موقف الزهري. أما عروة بن الزبير فهناك عدة روايات تؤكد انحرافه عن علي يطول ذكرها.

وبسبب هذا الانحراف يمكنك أن تتصور كيف سيكون موقفهما منه ومن أخباره وأفعاله فيها، ومقدار التلاعب الذي سوف يحصل فيها أيضاً. ولتوضيح ذلك أجد أنه لا بأس من التوسع في دراسة بعض مواقف رواة السيرة من علي بن أبي طالب هذه الشخصية المتفردة في كل شيء

غزوات المسار الأول الجديد:

وهناك أيضاً غزوات أخرى تختلف في مسارها عن تلك الغزوات التي تكلمنا عنها، والاختلاف وقع لمجموعة أسباب منها حجم هذه المعارك، وتصاعد نسب المقتولين فيها من الطرفين، وعظيم تداعياتها، والنتائج التي أفرزتها، ومحصلاتها النهائية ومنها

غزوة أحد:

وقعت هذه الغزوة في السنة الثالثة للهجرة الموافق لسنة ٦٢٥ م في شهر شوال بعد غزوة الفرع بأربعة أشهر. وكانت إحدى المعارك الدفاعية التي أجبر الإسلام على خوضها. كما كانت درسا تاريخيا عظيما، وامتحانا قاسيا، ومحكا حقيقيا لمعادن الرجال، ربما لأنهم فرضوا رأيهم علي النبي وأغروه بالخروج من المدينة، بل وأجبروه على ذلك، ولم يستمعوا لرأيه،

ثم قيام المنافقين بذلك العمل المشين، برجوعهم إلى المدينة، والتخلي عن جيش المسلمين في منطقة الشوط بين المدينة وأحد كما يقول ابن إسحاق. وهو الرأي الذي خالفه فيه ابن سعد الذي ادعى أن النبي هو الذي أرجعهم. في وقت كان فيه الإسلام

بأمس الحاجة لكل من يمد له يد النصر والعون.

ثم عدم التزام الفرسان الذين أمرهم النبي بالثبات في أماكنهم الدفاعية التي تم اختيارها بعناية وحنكة عسكرية فريدة تمثلت بوضع قوة إسناد احتياطية لمنع العدو من الالتفاف من الخلف (وكان رسول الله في سبعمئة رجل وأمر على الرماة عبد الله بن جبير، والرماة خمسون رجلا، فقال أنضح الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا، إن كانت لنا أو علينا فأثبت مكانك)^١ ولكن عبد الله بن جبير والذين معه لم يثبتوا في مكانهم وخالفوا أوامر النبي، مما أدى إلى إنكشاف ظهر الجيش ومهاجمة المشركين لهم بقيادة خالد بن الوليد.

فحاصت بالمسلمين الهزيمة النكراء وهربوا من أرض المعركة تائهين في الوهاد والشعاب والجبال حتى أن بعضهم ذهب إلى مسافة ثلاث ليال عن أرض الواقعة، بل أن بعضهم كما تروي كتب السيرة النبوية (انتهى إلى المنفى دون الأعوص قرب المدينة)^٢ ولذلك أراد الله سبحانه أن تكون هذه المعركة أحد الدروس المرة التي تنقي نفوس بعض المسلمين.

وآخر ما أريد ذكره عن أحد التي وقعت يوم السبت للنصف من شوال أنها أصابت الروح المعنوية للمسلمين بالانكسار. ليس بسبب الهزيمة فقط. بل لأنهم كانوا السبب في وقوع هذه الهزيمة من خلال إصرارهم على ترك الموقع الدفاعي في المدينة، ومن خلال انسحاب قوات الرماة الذين مع عبد الله بن جبير من مواقعهم، ومن خلال هروبهم وتركهم النبي في أرض المعركة يواجه المخاطر مع بعض من صمد من الصحابة معه. وكان النبي مطلعاً على خفايا نفوسهم. وظاهر حالهم وحقيقة الشد النفسي الذي

١. السيرة، ٣ / ٦٠.

٢. السيرة، ٣ / ٨٠.

يشعرون به ، وحاجتهم الفعلية للعلاج ، ولكل ما يعيد لهم ثقتهم بأنفسهم. فأراد أن يعيد لهم ثقتهم بأنفسهم عن طريق عمل فيه الكثير من التحدي ، لكي يحفز روح النصر في ضمائرهم ونفوسهم ، بمعنى أنه (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) أراد علاج الصحابة علاجا نفسيا ، فبات تلك الليلة ، فلما كان الغد يوم الأحد لست عشرة ليلة مضت من شوال أذن مؤذن رسول الله في الناس بطلب العدو. وما يؤيد غايته من هذا الأمر ، أي علاجهم نفسيا ومحو الانكسار النفسي الذي يشعرون به ، أنه لم يسمح لأحد لم يشارك في أحد أن يخرج معهم (فأذن مؤذنه أن لا يخرج من معنا أحد إلا أحد حضر يومنا بالأمس)^١ ، ويؤيد ذلك أيضا أنه لم يسر بهم إلا ثمانية أميال (فخرج رسول الله حتى إنتهى إلى حمراء الأسد وهي من المدينة على ثمانية أميال.. فأقام بها الإثنين والثلاثاء والأربعاء ثم رجع إلى المدينة)^٢

ويقينا أن هذه الحركة ليست عبثية ، وليست إنتقاما أوقعه النبي بأصحابه ، ولا إرهابا للعدو ولا ليلغهم أنه خرج في طلبهم ليظنوا به قوة كما تقول السيرة. لا هي ليست كذلك حتما ولكن لا رواة السيرة ولا الباحثين ولا المؤرخين تطرقوا لأسباب ودوافع هذه الحركة ، وعرفوا حقيقتها. وأعتقد أن خير من يجيد الكتابة في هذا الموضوع هم علماء النفس والاجتماع لأن بعض ما يمكن أن نفهمه من هذه الحركة أنها جاءت لتغطي أكثر من جانب ، وهي كما كانت علاجا نفسيا للمسلمين المنكسرين في معركة الأمس كانت كذلك أحد أساليب الضغط على قريش عن طريق إدانة شعورهم بالخطر مما قد يحفزهم لإعادة تقييمهم للموقف ، ومن ثم الموافقة على الدخول في الإسلام ، يؤيد ذلك سبيان :

١. السيرة ، ٩٢/٣ .

٢. السيرة ، ٩٢/٣ .

الأول: هو استمرار حالة اللاسلم التي مارسها النبي معهم.
والثاني: أنه في قمة الأزمة معهم ذهب اليهم بسبعمئة من أنصاره بلا سلاح،
وحقق أول مراحل التطبيع بإعلان الهدنة في الحديبية
إجلاء بني النضير.

بنو النضير جماعة من اليهود تأمروا على قتل رسول الله في واحدة من مؤامراتهم
الكثيرة ضد الإسلام، فقرر النبي إجلائهم عن المدينة اتقاء لشركهم وتخلصا من
مؤامراتهم. ومما يجلب الشك في صحة بعض قصص هذه الغزوة ما جاء في النقول عن
قضية تحريق الأشجار فقال المسعودي في حديثه عن حوادث سنة أربع للهجرة: (وفيها
كانت غزوته إلى اليهود من بني النضير، وامتنعوا عنه بمحصولهم، فقطعوا نخلهم
وشجرهم وأضرموا النار عليهم، فلما رأى ذلك صالحهم^١ بينما تجد في هامش
الصفحة إشارة من المحقق لوجود نسخة أخرى من الكتاب ورد فيها هذا النص بالشكل
التالي (فقطع نخلهم وشجرهم وأضرم النار عليهم فلما رأوا ذلك صالحوه)
بينما جاء في كتاب السيرة: (أنهم لما تحصنوا بمحصولهم أمر رسول الله بقطع النخل
والتحريق فيها فنادوه: أن يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعييه على من صنعه، فما
بال قطع النخل وتحريقها)^٢

ومثل هذا الخبر الغريب يحتاج للتحليل الدقيق حتما، لأنه يتعارض مع المنهجين
الأخلاقي والعسكري اللذين انتهجهما رسول الله قبل وبعد هذه الغزوة. حيث لم يرد
لمثل هذا العمل ذكر سوى في هذه الغزوة وواقعة أخرى ستحدث عنها في حينها حدثت
في غزوة الطائف حرق فيها النبي أعنابهم.

١. مروج الذهب، جزء ٢ ص ٢٩٥.

٢. المصدر نفسه، ٣ / ١٧٣.

إن هذا الخبر يتعارض مع قول رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): (أرحموا عماتكم النخل). وخال من الحكمة، ومتسرع لأن رسول الله كان عازما على إجلائهم عن المدينة، ومن الأفضل والأجدى له أن يستفيد من النخل بدل تحريقه. ويتعارض مع سمو أخلاق رسول الله ورفضه للفساد الذي يؤمن بصدقه وجديته اليهود أنفسهم، فكيف ينهى عن شيء ويأتي مثله؟

المهم أن هذه القصة و بسبب ورودها في كتاب السيرة بهذا الشكل، دخلت فيما بعد في فقه الحرب عند المذاهب الإسلامية وذلك بسبب تعارضها مع ما درج عليه النبي من التأكيد على جيوشه الخارجة للحرب بأن لا تقطع شجرة ولا تقتل طفلا ولا امرأة، فأحدثت نوعا من الإرباك الذي أفضى إلى الاختلاف بين المذاهب.

الغريب أن مسلم بن الحجاج صاحب الصحيح خصص كل حديثه عن هذه الغزوة لتأكيد صدق رواية التحريق تحت عنوان (جواز قطع أشجار الكفار وتحريقها)^١ وربما لهذا السبب قام الإرهابيون في مناسبات كثيرة بحرق البساتين وأشجار النخيل في الحلة وكربلاء والخالص والهويدر في ديالى ومناطق كثيرة أخرى لأنها تعود (لكفار) وتحريقها (جائز) استنادا للخبر الذي ورد في كتاب السيرة. وقد جاء في طبقات ابن سعد عن عبد الله بن عمر أن رسول الله حرق نخل بني النضير وهي "البويرة" فأنزل الله تعالى ((ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها)^٢

المهم أن إيراد كتب السيرة لقصة قيام رسول الله بتحريق نخيل اليهود في هذه الغزوة تسبب في ولادة مجموعة مفاهيم حربية متعارضة عند المذاهب الإسلامية تسببت في زيادة الهوة الفاصلة بينها وباعدت بعضها عن البعض الآخر أكثر وأكثر.

١. ينظر صحيح مسلم، صفحة ٧٨٢.

٢. طبقات ابن سعد ٢ / ٥٨.

غزوة ذات الرقاع. حيث غزا نجد يريد بني محارب، وبني ثعلبة من غطفان فلقى بها جمعا عظيما من غطفان... فخاف الناس بعضهم بعضا حتى صلى رسول الله بالناس صلاة الخوف ثم عاد إلى المدينة^١

هكذا وبكل بساطة تتحدث كتب السيرة عن عمل إرتجالي آخر غير محسوب النتائج من الأعمال المنسوبة للنبي.. هكذا وبكل بساطة تظهره وكأنه لا زال يرضخ لوطأة إرث البداوة الذي نشأ عليه وعاش في كنفه أربعين عاما من عمره. وإن عادات الإغارة والغزو البدوي لا زالت مستقرة في وجدانه ولم تنجح الرسالة في قلعها من روحه، ولذلك يغامر بنفسه وصحابته تماما كما كان رئيس القبيلة يغامر بأتباعه في العصر الجاهلي، ولا يلتفت للألم الذي يصيبهم، والخوف الذي يعتورهم. ومن دون أن تكون له القدرة على تجهيزهم وإعدادهم للمعركة بشكل سليم، حتى أنهم لجأوا إلى رقع جروح أرجلهم النازفة بالخرق البالية لأنهم ذهبوا إلى هذه المعركة حفاة!!

إن تحبط الرواة، وقلة إدراكهم، وعفويتهم، ومحدودية فهمهم، وطباعهم، وولاءاتهم، وتوجهاتهم السياسية والحزبية والعشائرية، وغمط حياتهم، وحالتهم المادية والاقتصادية، كلها كانت تتحكم بطريقة روايتهم للأثر. وتصرفهم بمعناه ومضمونه. ومن الأمثلة البسيطة على ذلك حديثهم عن حقيقة إسم هذه الغزوة بالذات. ورغم عدم أهمية هذا الموضوع من الناحية العقائدية إذ لا تفرق الاختلافات في التسمية ومصدرها ما دامت النتيجة واحدة. إلا أن التوسع فيه قد يكشف أمامنا أسراراً لم نسمع بها من قبل وأجدها مهمة جدا من الناحية العقائدية والتاريخية أيضاً. فما الضير في ذلك إذا؟

الملاحظ أن تسمية هذه الغزوة بهذا الاسم تعود لأربعة أسباب هي على التوالي :
 رقع الرايات / شجرة بهذا الاسم في أرض المعركة / أرض المعركة كانت مرقطة بالأسود

١. السيرة، ٣ / ١٨٤.

والأبيض / الجنود ربطوا الرقع على أرجلهم التي أدمها المسير الطويل !
 جاء ابن إسحاق برأين مختلفين بشأن تسمية هذه الغزوة فقال : (قيل لها غزوة ذات الرقاع لأنهم رقعوا فيها راياتهم . ويقال : ذات الرقاع شجرة بذلك الموضع)^١
 وجاء في هامش الصفحة ذاتها أن السهيلي قال عن أرض ذات الرقاع : أنها أرض فيها بقع سود وبقع بيض ، كلها مرقعة برقاع مختلفة ، قد سميت ذات الرقاع لذلك .
 وأخرج البخاري حديثا عن أبي موسى الأشعري حديثا فيه رأي آخر ، قال فيه : (خرجنا مع النبي ونحن ستة نفر بيننا بعير نعتقه ، فنقبت أقدامنا ونقبت قدمي ، وسقطت أظفاري ، وكنا نلف على أرجلنا الحرق . فسميت غزوة ذات الرقاع)^٢
 فأى الأسماء هو الأصح ؟ ومن أين أخذت هذه الغزوة اسمها ؟ هل أخذته من رقع المسلمين لراياتهم ؟ أم أخذته من إسم الشجرة التي كانت بذلك الموضع ؟ أم أخذته من بقع الأرض السوداء والبيضاء التي تمتاز بها أرضها ؟ أم أخذته من الحرق والرقع التي لف بها المسلمون أقدامهم ؟

لم يترك لنا تنوع الروايات واختلاف مصادر التسمية فرصة الاختيار ، أو تفضيل رأي على رأي آخر ، ثم أن هذا الأمر برمته لا يعنينا ، فمعرفتنا لن تساهم في حل ما بيننا من خلاف . إذا المهم عندنا هو الخلاف نفسه بعد أن تضخم بهذا الشكل المهول الذي هو عليه اليوم ، فوصل إلى درجة تكفير أحدنا للآخر وهي درجة متقدمة جدا تنذر بالخطر الجسيم ليس على مكوناتنا المذهبية فقط بل وعلى ديننا وعقائدنا وقيمنا وأوطاننا أيضا . وما يمكن أن نستفيد من الاختلاف في تسمية هذه الغزوة أن الصحابة لم يكونوا دائما متفقين وعلى رأي واحد ، وأن مجرد اختلافهم هذا يعني أن ما وصلنا عنهم مختلف

١ . المصدر نفسه .

٢ . صحيح البخاري ، حديث ٤١٢٨ ، ص ٧٣١ .

أيضا، وأن اختلافنا ناجم عن ذلك الاختلاف بالتأكيد.

أن أهم ما في الخلاف هي مصادره التي تمده بالقوة والاستمرارية، ومن أهم مصادر الخلاف هي الروايات التي ترد في الكتب والمؤلفات على لسان هذا الصحابي أو ذاك كالرواية التي ينسبها البخاري للصحابي أبي موسى الأشعري والتي يدعي فيها أنه إشتراك بغزوة ذات الرقاع التي كانت قد وقعت سنة خمس للهجرة، لأن هذا الإدعاء غريب جدا وغير معقول، فالأشعري وجماعته الأشعريين لم يقدموا من اليمن أو من الحبشة على إختلاف الروايات إلى المدينة إلا بعد فتح خيبر سنة سبع للهجرة أي بعد غزوة ذات الرقاع بسنتين كاملتين، فهل جاء من الحبشة في سنة خمس للهجرة للاشتراك في هذه الغزوة ثم العودة ثانية إلى الحبشة؟

وطبعا هذا الأمر من الأمور المنكرة، وفي كتب الصحاح عشرات الشواهد على إنكار هذا القول، منها ما ورد على لسان أبي موسى مباشرة ووثقت ذكره كتب الصحاح نفسها كالحديث الذي أخرجه البخاري: (عن أبي موسى الأشعري قال: بلغنا مخرج النبي [أي بعثته] ونحن باليمن فخرجنا مهاجرين إليه.. في ثلاثة وخمسين أو اثنين وخمسين رجلا من قومي، فركبنا سفينة فآلقنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة فوافقنا جعفر بن أبي طالب فأقمنا معه حتى قدمنا جميعا فوافقنا النبي حين إفتتح خيبر)^١

والمعروف أن جعفر بن أبي طالب وبقية المهاجرين الذين كانوا معه كانوا قد هاجروا إلى الحبشة في الطور المكي قبل الهجرة المباركة، وقدموا جميعهم ومعهم الأشعريين قوم أبي موسى الأشعري من الحبشة إلى المدينة فوجدوا النبي قد خرج لفتح خيبر. فلحقوا به إليها مع الدوسيين قوم أبي هريرة الدوسي، الذين تصادف وصولهم من اليمن إلى المدينة مع وصول جعفر وجماعته بما فيهم الأشعريين إليها، ووجدوه قد افتتحها.

١. صحيح البخاري، حديث رقم ٤٢٣٠ ص ٧٤٧.

فأعطاهم من الغنائم بسبب فقرهم وحاجتهم وهو أمر لم يفعله النبي من قبل .
وفي حديث آخر أخرجه البخاري أيضا تأكيد على أن الصحابي أبو موسى وقومه
الأشعريون وصلوا بعد فتح خيبر، والحديث كما في البخاري (عن أبي بردة عن أبي
موسى الأشعري قال : قدمنا على النبي بعد أن إفتتح خيبر، فقسم لنا، ولم يقسم لأحد
لم يشهد الفتح غيرنا)^١

وهذا اعتراف صريح على لسان الصحابي أبي موسى الأشعري بأنه لم يشهد حتى
ساعات فتح خيبر التي وقعت في السنة السابعة للهجرة لأنه وقومه وصلوا إلى المدينة ثم
إليها بعد أن افتتحها المسلمون ، فكيف يدعون على لسانه أنه اشترك في غزوة ذات
الرقاع التي وقعت في السنة الخامسة من الهجرة، ويوردون حديثا يصف فيه حال أقدام
المسلمين وأقدامه التي تمزقت من كثرة السير، وكيف أنه والذين معه لفوا أرجلهم بالخرق
البالية بعد أن قلعت أظافرهم؟

ألا يعني هذا أن في نصوصنا التي نمنحها القدسية والحصانة الكاملة ، ونغدق عليها
كل الصفات الكمالية التنزيهية أسراراً كثيرة تبحث عمن ينفذ عنها الغبار ويظهرها
على حقيقتها أمام الأمة، عسى أن يساهم ذلك في تخفيف التأزم بين المكونات
الإسلامية؟ وهل سننجح في يوم ما بالتححرر من سطوة بعض النصوص الواهية ومن
هيمنتها علينا ، ونخرج إلى دنيا التجديد والابتكار والعلمية القائمة على النهج الإسلامي
القيومي الأول؟

إن الجمود على النص يفضح عظيم ضعفنا وقلة حيلتنا، ويظهر مقدار هزالنا، ويثبط
عزيمتنا، ويغويننا بالكسل والخمول في عالم صارت السرعة ديدنه، والتطور دينه والتنويع
والتبديل منهجه وسبيله.. فأين سيكون موقعنا فيه ونحن بهذه الحال المزرية؟

١ . المصدر نفسه ، حديث رقم ٤٢٣٣ ص ٧٤٨ .

غزوة بدر الآخرة: بعد ثلاثة أشهر من فتح خيبر خرج رسول الله غازيا إلى بدر لميعاد أبي سفيان الذي تواعد عليه في أحد، ولم يحضر أبو سفيان فعاد النبي إلى المدينة. وهي الغزوة الثالثة من غزوات بدر

غزوة دومة الجندل: بعد غزوة بدر الآخرة جاءت غزوة دومة الجندل التي رجع النبي قبل أن يصل إليها^١ ولم تتحدث كتب السيرة عن أسباب الرجوع، فبدت وكأنها من سنخ الأعمال الارتجالية البعيدة عن التخطيط والدراسة.

إن التهيؤ والخروج إلى الحرب ليس بالأمر السهل، إضافة لما يترتب عليه من خسائر مادية، وما يحدثه التكرار من ملل في النفوس، وعظيم تأثيره على سير العمل والبناء والنمو الإقتصادي بسبب خروج الأيدي العاملة إلى الحرب وتركها لمصالحها وأخيرا استمرار تعرض المدينة لمخاطر العدوان نتيجة خروج النبي مع الجيش منها والذهاب بعيدا عنها، وهي كما هو معروف محاطة بالأعداء من كل جانب، فهل يعني تكرار الخروج العبي أن النبي لم يلحظ هذه الجوانب أو يشعر بتأثير الغزو المتكرر على بلاده ومعنويات صحابته حتى يستمر على هذا النهج الذي تؤكد عليه كتب السيرة باستمرار؟

غزوة الخندق (الأحزاب)

كانت قریش هي المبادرة بالهجوم في هذه الغزوة، وكان النبي مدافعا، حيث كانت غايتها القضاء التام على الإسلام وقتل النبي والتخلص من الدعوة. لذا قرر النبي أن لا يترك المدينة هذه المرة كما فعل يوم أحد، وأمر بضرب الخندق بإقتراح من سلمان المحمدي كما تقول كتب السيرة^٢

١. السيرة، ٣ / ١٩٤.

٢. السيرة ٣ / ١٩٦.

وقعت هذه الغزوة في شوال سنة خمس للهجرة الموافق لسنة ٦٢٦ ميلادية يوم زحفت أحزاب الشرك من قريش، واليهود، وغطفان، وبني فزاره، وبني مرة، وأشجع، وأهل تهامة، ونجد، حتى زاد عديدهم على العشرة آلاف مقاتل وحاصروا المدينة التي كان يدافع عنها ثلاثة آلاف مقاتل. لاحظ هنا أيضا أن عدد جيش المسلمين تبلغ نسبته ثلث عدد جيش المشركين وأقل لأن النسبة الحقيقية هي ثلاثة إلى عشرة.

وكان المنافقون يتركون العمل في الخندق ويتسللون إلى أهليهم، وهذا يعيدنا إلى تجربة إنسحاحهم من الجيش الذاهب إلى أحد وعودتهم إلى المدينة لتوهين جانب الإسلام، مما يعني أن مؤامراتهم على الإسلام كانت حتى تلك الساعة مستمرة. بل سنلاحظ أن تأثيرها كبر في السنين والغزوات اللاحقة بشكل واسع. كما أنهم صاروا يعملون بالعلن بعد أن كانوا يعملون بالخفاء. أي أن قوتهم كانت تنمو طرديا مع تنامي قوة الإسلام، وهذا مخالف لكل الفرضيات والاحتمالات لأن المفروض بهم أن يضعفوا كلما قوي الإسلام مما يعني أن هنالك خلا حقيقياً لم يؤشر لحد الآن.

وكعاداته في إستباق الأحداث لتقييم الموقف واقعياً وعياناً كما في إرساله لعلي بن أبي طالب خلف جنود قريش يوم أحد، هنا أيضاً أرسل النبي سعد بن معاذ سيد الأوس، وسعد بن عباد سيد الخزرج وبعض الصحابة لتقصي أخبار الأحزاب. فلما عادوا وأخبروه بأمر القوم قال رسول الله (الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين) لكنهم لم يأخذوا بهذه البشارة (وعظم عند ذلك البلاء واشتد الخوف)^١ وهكذا لم تستثن الأخبار الواردة في كتب السيرة منهم أحداً. لا من السابقين. ولا من المهاجرين ولا الأنصار. ويقينا أن هذا التعميم الشمولي خال من الإنصاف حيث كان هنالك بينهم من لم يهتم لأمر الأحزاب. بل أجزم أن هنالك نسبة كبيرة من الصحابة المخلصين الكرام لم

تفزعههم الجموع ولم يهتموا لمقدم الأحزاب وكثرة العدد.

ويدلل هذا النهج الروائي أحيانا على بساطة تفكير الرواة وسذاجتهم في أحيان أخرى بحيث أنهم كانوا يطلقون الأحكام جزافا. لذا أعتقد أن قيام المختصين من علماء النفس والإجتماع بإجراء الدراسات المعمقة بخصوص بعض الآراء الواردة في كتب السيرة ممكن أن يخرج بنتائج تختلف في مبادئها ومحصلاتها عن النتائج المعمول بسياقها حالياً. مما يشجع على تأسيس طرق جديدة لفهم القضايا الخلافية، وعسى أن يساهم هذا الفهم الجديد في تهديم السدود بين المكونات، وتقريبها من بعضها. ومع أن هذا الأمر صعب جدا لأن هنالك بيننا اليوم بعض الذين يقدسون النصوص، ويجمدون عليها ولا يغادرون أطرها ومنطوقها لأي سبب كان، إلا أن نتائج الدراسات إذا ما انتشرت وتقبلتها الناس بقبول حسن وعقل متفتح فقد يمتد أثرها إلى هؤلاء ويشيهم عن تشددهم.

موضوع آخر من مواضيع هذه الغزوة حدث فيه تلاعب أيضا وهو موضوع طلب النبي من أحد المسلمين أن يخرج لتقصي أخبار الأحزاب بعد أن طال أمد الحصار، وهو الموضوع الذي ذكرنا قسما منه آنفا. إذ تقول تكملة الخبر التي جاءت على لسان الصحابي حذيفة بن اليمان: (فلما لم يقم أحد دعاني رسول الله، فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني، فقال: يا حذيفة إذهب فأدخل في القوم فأنظر ماذا يصنعون، ولا تحدثن شيئا حتى تأتينا. قال: فذهبت فدخلت في القوم والريح وجنود الله تفعل ما تفعل ولا تقر لهم قدرا ولا نارا ولا بناء)^١

إن حديث الصحابي الجليل حذيفة يمثل وصفا حقيقيا صادقا للحالة التي كان عليها الأعم الأغلب من المسلمين يومذاك بحيث أنهم لم يستجيبوا لدعوة النبي، ولم يتطوع

١. السيرة ٣ / ٢١٠.

منهم أحد لمعرفة أخبار الأحزاب ونقلها لرسول الله. ولكن بعد عبور عمرو بن عبد ود العامري ومطالبة النبي لهم بالخروج لمقاتلته وامتناعهم جميعا عن ذلك، وتفرد علي بن أبي طالب بالموافقة على الخروج في المرات الثلاث أو الأربع التي كرر فيها النبي طلبه، والتي تعد واحدة من المناقب الكثيرة المسجلة حصريا بإسم علي بن أبي طالب، حاول بعض الرواة والكتاب أن يصوغوا على منوالها مناقب جديدة وينسبونها لأفراد آخرين من الصحابة غير ملتفتين لتناقض الأخبار حيث أخرج البخاري في صحيحه (عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: قال رسول الله يوم الأحزاب: من يأتينا بخبر القوم؟ فقال الزبير: أنا، ثم قال: من يأتينا بخبر القوم؟ فقال الزبير: أنا، ثم قال: من يأتينا بخبر القوم؟ فقال الزبير: أنا، ثم قال: إن لكل نبي حواريا وإن حوارياي الزبير)^١ فمجرد التعارض بين الروايتين المنسوبتين لجابر يؤكد بالضرورة على وجود غاية من وضع إحداهما، أي أن إحداهما صحيحة والثانية موضوعة، ولما كانت إحداهما تدخل في باب المناقب فإنها الأقرب للوضع من الأولى المجردة المقتصرة على خبر وصفي لحال المسلمين مما يعني أنها الأقرب للواقع وللتصديق. لكن ورود الرواية الثانية في صحيح البخاري الذي كما هو دارج بين الناس (أصح كتاب بعد كتاب الله) يمنحها حصانة تمنع تسقيطها لأي سبب كان. وورود الأولى في سيرة ابن هشام التي يقولون عنها (أنها أصح كتب السيرة) يمنحها أيضا نوعا من الحصانة وإن كان بمقدار أقل من ذاك، بمعنى أن تسقيطها ليس بالأمر الهين أيضا. فماذا نفعل؟ وبأي مصدر نؤمن؟ وبأي رواية نأخذ؟ وهي حالة لا تستوجب التكرار، أي الوقوع أكثر من مرة، وهي الحجة التي يتعلل بها المختصون في علم الحديث إذا صادفهم مثل هذا الإشكال حيث يؤثر عنهم قولهم (ولربما وقعت الحادثة أكثر من مرة وفي أكثر من مكان) ملاحظة أخيرة هي أن

١. صحيح البخاري، حديث رقم ٤١١٣ ص ٧٢٩.

الروایتین جاءتا عن طريق الصحابي حذيفة بن اليمان وفي هذا تعارض مرفوض. يوهن حتما إحداهما على حساب الأخرى.

استمر حصار الأحزاب للمسلمين في المدينة من شهر شوال إلى أواخر ذي القعدة^١ ثم انسحبوا مخلفين وراءهم خيبتهم وخسرانهم، وأنتصر الإسلام من جديد، في ذات الوقت الذي باتت فيه قريش تدرك عن يقين أن الإسلام أصبح أقوى من أن تتمكن من هزيمته ولو جمعت كل مشركي الأرض.

غزوات المسار الثاني:

كانت معركة الخندق قد أنهت المسار الأول للحروب الإسلامية، وهيئت الأجواء للمسار الثاني الذي يختلف عنه كلياً. والرسول من جانبه كان يعرف مقدماً نتيجة حروب هذا المسار وما ستؤول إليه، ولذلك وقف بعد الخندق ليهنئ المسلمين بالبشرى العظيمة (الآن، نغزوهم ولا يغزونا، نحن نسير إليهم)^٢ وفي مكان آخر (لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ولكنكم تغزونهم. فلم تغزهم قريش بعد ذلك وكان هو الذي يغزوها حتى فتح الله عليه مكة)^٣

إن بشرى رسول الله للمسلمين لم تأت رجماً بالغيب، ولا من باب نافلة القول، أو وعداً غير مبني على أدلة يقينية، ولكنها تأتي بالتأكيد من جانب استقرائي لنتائج وتدايعات المعركة. ودراسة حقيقية لحالة اليأس والضعف التي وصلت إليها قريش، مما يدل على عظيم الحنكة العسكرية التي كان يتمتع بها النبي، ومقدرته العالية على

١. السيرة ٣ / ٢١١.

٢. صحيح البخاري، حديث رقم ٤١١٠ ص ٧٢٨.

٣. السيرة ٣ / ٢٣٠.

التحليل والاستنتاج المنطقي المبني على أصول علمية.

إضافة إلى أنها جاءت وحيا إلهيا غايته تطمين المسلمين بالمستقبل المشرق الذي ينتظرهم، وإعلانا عن الانتصار الناجز، وانتهاء عهد الخوف والضعف. وأرى أن يبادر المعنيون بالدراسات الإسلامية والعسكرية والنفسية والتاريخية والاجتماعية لدراسة هذا الوعد ولا سيما أنه تطبق فعلا كما رآه رسول الله فكانت تلك الغزوة آخر الحروب التي شنتها قريش المشركة ضد المسلمين.

غزوة بني قريظة: وكانت هذه الغزوة أولى غزوات المسار الجديد حتى من حيث أسبابها إذ تقول السيرة المكتوبة (إن جبريل جاء إلى النبي بعد هزيمة الأحزاب وقال له: أوقد وضعت السلاح يا رسول الله؟ قال: نعم. فقال جبرائيل: فما وضعت الملائكة السلاح بعد، وما رجعت الآن إلا بطلب من القوم، إن الله عز وجل يأمرك يا محمد بالمسير إلى بني قريظة، فأني عامد اليهم فمززل بهم... فأذن مؤذن النبي بالناس: من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر إلا ببني قريظة)^١ كما وتقول كتب السيرة (إن النبي قدم علي بن أبي طالب برايته إلى بني قريظة. وحاصره خمسا وعشرين ليلة، وقيل خمس عشرة، وقيل بضع عشرة)^٢ وكانت هذه الغزوة من الغزوات السهلة، ولكنها كغيرها من الغزوات لم تخل من القصص الغريبة التي تحتاج للبحث العلمي الممنهج، ومنها ما له علاقة بسفراء النبي (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) الذين كان يكلفهم ببعض المهام الإدارية المحددة وكيف كانوا ينجزونها. ولذا سنتوقف قليلا عند هذه السفارات ورجالها، بعد أن نتحدث أولا عن موقف رواة أحاديث السيرة من علي بن أبي طالب، بعد أن نكمل الحديث عن باقي حروب هذا المسار.

١. السيرة ٣ / ٢١٢.

٢. السيرة ٣ / ٢١٢ - ٢١٣.

فالمدة بعد بدر شهدت غزوات أخرى منها:

غزوة بني سليم في الكدر: بعد عودته الميمونة لبث النبي في المدينة سبعة ليلة غزا بعدها بني سليم بالكدر فبلغ ماءً من مياههم يقال له الكدر فأقام فيه ثلاث ليال ثم رجع إلى المدينة^١

غزوة السويق. جاءت بعد أن أغارت قريش على المدينة وقتلت بعض المسلمين فخرج رسول الله في طلبهم وقد فاته أبو سفيان وأصحابه^٢

غزوة ذي أمر. فمكث النبي في المدينة بعضاً من شهر ذي الحجة ثم غزا نجدا يريد غطفان، وأقام هناك شهر صفر ثم رجع

غزوة ذي فرع وبعد ذلك بشهر واحد غزا غزوة الفرع من بجران يريد قريشا فأقام هناك أواخر ربيع الأول وربيع الآخر وجمادي الأول ثم رجع إلى المدينة

غزوة بني قينقاع ثم كانت غزوة بني قينقاع من اليهود الذين نقضوا العهد.

ومع إتمام الحراك في هذه الغزوة كان المسلمون قد شنوا أو صدوا عشرة حروب لا تقل أهميتها عن الحروب التي كان يشنها غيرهم. إضافة إلى عشرات السرايا التي حدث في بعضها قتال ومع ذلك لم يزد عدد قتلى الجانبين فيها كلها عن مائة شهيد وقتيل في أعلى الاحتمالات من الطرفين. وهذا لا يستوجب إتهام الإسلام بالدموية كما يحلو للبعض.

موقف رواية السيرة من علي:

لا يخفى أن الموقف الخلافي ترك أثره على نصوص السيرة النبوية التي تتحدث عن

١. السيرة، ٣ / ٤١.

٢. السيرة، ٣ / ٤٠ - ٤١.

شخصيات محددة بعينها مثل شخصية الإمام علي بن أبي طالب ، وقد استنبطوا بفعل هذا الخلاف مجموعة نظريات تشكيكية منها :

نظرية المشاركة.

نظرية عدم التوثق.

نظرية ذكر الحقيقة اللابدية.

يبتدئ الموقف الخلاف في باستنباط طريقة التشكيك التي اعتمدها كأساس للتشكيك بمقدرة علي القتالية ، وجاءت هذه النظرية للتشكيك بشأن عدد الذين قتلهم علي بن أبي طالب في معارك الإسلام حيث استعملوا بداية موضوع "المشاركة" أو الاشتراك ، وهو : الادعاء بأن أكثر من مسلم كانوا يشتركون في قتل عدو واحد عند حديثهم عن قتلى علي في هذه المعارك.

فقالوا عن حنظله بن أبي سفيان الذي قتله علي : ويقال اشترك فيه حمزة وعلي وزيد...

وقالوا عن عتبة بن ربيعة : اشترك فيه عبيدة بن الحارث وحمزة وعلي ،

وعن زمعة بن الأسود : اشترك فيه حمزة وعلي وثابت ،

وعن عقيل بن الأسود : قتله حمزة وعلي اشتركا فيه.

ويستوقفني هنا ويدهشني موضوع اشتراك مجاميع من المسلمين كل اثنين أو ثلاثة في قتل أحد الأعداء في أكثر من حالة وفي أكثر من حرب بينما المعروف أن عدد المسلمين الذين كانوا يشتركون في المعارك التي وقعت كان دائما أقل كثيرا من عدد جنود الأعداء. وفي إحداها كان عددهم يزيد قليلا على الثلاثمائة شخص مقابل ما يزيد على ألف شخص من المشركين. وفي أخرى كان عددهم ثلاثة آلاف مقابل عشرة آلاف. وفي هكذا حالة المفروض أن يحدث العكس أي أن يجتمع أكثر من شخص من

الأعداء لقتال الجندي المسلم وليس أكثر من مسلم لقتال جندي العدو، فذلك منافع للعقل وللمنطق وللتفكير السليم، كما أن رواية السيرة أنفسهم لم يذكروا موضوع المشاركة إلا نادرا وتحديدًا فيما يخص قتال علي، مع حالات متفرقة قليلة أخرى لا أهمية لها بالنسبة للآخرين الذين كانوا يحتاجون لمساعدة إخوانهم المسلمين لقتل أحد الأعداء تبعًا لظروفهم الجسدية والنفسية ومقدار شجاعتهم وإقدامهم. نعم قد تكون واحدة أو أكثر من هذه القصص صحيحة، ولكن ليس بسبب ما ذكره حتماً، وإنما لأن علي كان أشجع المسلمين باتفاق الآراء، وأنه تبعاً لذلك كان يهرع لنجدة إخوانه من المسلمين الذين يقعون تحت رحمة سيوف الأعداء فيقتل الأعداء وينقذهم من المحنة، فأعتبرهم الرواة قد اشتركوا معه في عملية القتل بدل أن يشركوه معهم، أما أن تكون بهذا التعميم الغريب فذلك ما لا يصدق المنصف، ولا يرضى به العاقل ولا يأخذ به العادل.

ثم تجاوزوا موضوع المشاركة إلى موضوع آخر هو "عدم التوثق" من القائم بالقتل. فقالوا عن عقبة بن أبي معيط: قتله علي بن أبي طالب، ويقال قتله عاصم بن ثابت..

وعن طعيمة بن عدي بن نوفل: قتله علي بن أبي طالب، ويقال حمزة بن عبد المطلب.. وعن عمير بن عثمان: قتله علي، ويقال قتله عبد الرحمن بن عوف.. وعن أبي مسافع الأشعري: قتله علي، ويقال قتله خارجة بن زيد.. وعن أبي قيس بن الفاكه بن المغيرة: قتله علي، ويقال قتله عمار بن ياسر.. وعن أبي العاص بن قيس: قتله علي ويقال النعمان بن مالك، ويقال أبو دجاجة.. وعن أوس بن معبر: قتله علي ويقال الحسين بن الحارث ويقال عثمان بن مضعون.. وعن معاوية بن عامر: قتله علي، ويقال عكاشة بن محصن.

ولأن دور علي كان أكبر من كل تحريف وتدليس وتشكيك لذلك لم يفتهم الادعاء بمجموعة أسماء أوقفوا عليه قتلهم من دون مشاركة أو تشكيك منهم: العاص بن منبه، حاجب بن السائب، عبد الله بن المنذر، مسعود بن أبي أمية، النضر بن الحارث، نوفل بن خويلد، العاص بن سعيد بن العاص، الوليد بن عتبة، عامر بن عبد الله^١

ويتبين لنا من خلال هذا الإحصاء البسيط أن عدد الذين قتلهم علي في معركة غزوة بدر من الأعداء دون شك هو: ٩ وعدد الذين اشترك بقتلهم مع آخرين هو: ٤ وعدد الذين قتلهم هو أو قتلهم غيره. يشكون في القاتل الحقيقي هو: ٨

ولما كان ابن هشام قد قال بداية: أن مجموع قتلى المشركين في هذه المعركة هو خمسون قتيلا (فجميع من أحصي لنا من قتلى قريش يوم بدر خمسون قتيلا) ثم عاد وقال: (حدثني أبي عبيدة عن أبي عمرو: أن قتلى بدر من المشركين سبعين رجلا)^٢، فسنعتمد الرقم الثاني في هذا الإحصاء لأنه الأكثر انتشارا وشيوعا وذيوعا بين الناس، فتكون النسبة كما يلي: أن عليا قتل ٢١ رجلا من أصل ٧٠ رجلا هم مجموع قتلى المشركين أي بحدود الثلث. وسنلاحظ عند مقارنة هذا الرقم مع معدلات قتلاه في المعارك الأخرى مثل أحد وغيرها أن هذا الرقم يمثل المعدل الثابت لقتلاه. بل قد يرتفع عما هو عليه، ونستنتج من هذا أن موضوع المشاركة وموضوع عدم التوثق هما من المواضيع المبكرة التي لا أصل لها في الواقع، وقد جاء بها من كان على خلاف مع علي لكي يوهن جانبه ويقلل من شأنه ومن دوره الجهادي العظيم الذي إذا ما وزن بميزان العدل والحق سوف يعطيه أسبقية في كل شيء. منها على الأقل أنه فاز بنسبة (٣٠٪)

١. يراجع بشأن الأسماء والإحصاءات، سيرة بن هشام، ٢ / ٣١٨ - ٣٢٥.

٢. السيرة، ٢ / ٣٢٣ وطبقات ابن سعد ٢ / ٩.

ثلاثين بالمائة من فخر الجهاد في هذه المعركة المصيرية بينما لا تبلغ نسبة كل واحد من الرجال الآخرين الذين شاركوه في هذه الغزوة إلا أقل من (٢ ، %) اثنان بالعشرة بالمائة. والنتيجة النهائية نحصل عليها بتقسيم باقي عدد القتلى $49 \div 312 = 0.15$ أي أن النسبة أقل من اثنين بالعشرة بالمائة. وحتى هذه النسبة يجدها البعض لا تليق بمنزلة علي استنادا إلى روايات أخرى أعطت أرقاما أخرى قد تكون هي الأرقام الحقيقية. فقد قال "الشيخ المفيد"^١: (كان المقتولون منهم سبعون رجلا تولى كافة من حضر من المسلمين، مع ثلاثة آلاف من الملائكة المسومين قتل الشطر منهم، وتولى أمير المؤمنين عليه السلام قتل الشطر الآخر وحده.. وقد أثبت رواية العامة والخاصة معا أسماء الذين تولى أمير المؤمنين قتلهم ببدر من المشركين على اتفاق فيما نقلوه من ذلك واصطلاح. ثم ذكر من سموه ثم قال: فذلك ستة وثلاثون رجلا سوى من اختلف فيه أو أشرك أمير المؤمنين فيه غيره. وجاء في موسوعة التاريخ الإسلامي: وقتل علي ببدر من المشركين ستة وثلاثين رجلا)^٢

من جانب آخر نجد أن هذه النسبة العالية من القتلى على يد علي كانت أحد أهم أسباب العداء والبغض الذي أضمره بعض أفراد مجتمع مكة والمدينة لعلي حتى في زمن النبي، والذي ترجموه على شكل أفعال وأقوال بدافع الثأر لمقتل آبائهم وأبنائهم وأخوانهم وأقربائهم. أي أن الأسباب التي دعتهم لذلك ليس بالضرورة أنها كانت بدوافع خلافية عقائدية كانت أم سياسية.

من جانب آخر أجد أن عليا كان يعرف بكل الاحتمالات القائمة ومنها احتمال التشكيك بدوره الكبير في هذه المعركة بالذات وغيرها من المعارك، وأن النبي أخبره

١. الإرشاد ص ٦٩ - ٧٢.

٢. موسوعة التاريخ الإسلامي، مصدر سابق ٢ / ١٣٤ عن أعلام الوري ١ / ١٧٠.

بذلك ، فاعتبر نفسه معهم على خصومة، ولذلك أورد البخاري في صحيحه عن "معتمر" قال : سمعت أبي يقول : (حدثنا أبو مجلز عن قيس بن عباد عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : أنا أول من يجثوا بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة) ^١ وقال "قيس بن عباد" : أن هذه الخصومة ستكون مع الذين بارزهم يوم بدر شيبة وعتبة والوليد بن عتبة. وقال وفيهم أنزلت ﴿هَذَا خِصْمَانِ إِخْتَصِمَا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ ^٢

هنا يثار سؤال على جانب كبير من الأهمية وهو : لماذا سيكون علي عليه السلام أول جاث بين يدي الله يوم القيامة إذا ما كان لم يقتل سوى واحدا من هؤلاء الثلاثة كما تقول نصوص السيرة. والآخر قتله حمزة، وأشترك معه في قتل الثالث؟ أي أنهما متساويان ، فلماذا لا يكون حمزة أول جاث بين يدي الله وهو الذي أستشهد قبل علي؟ أو لماذا لا يجثيان معا على أقل تقدير؟

أنا لا أشكك ولا أشك للحظة واحدة أن عليا سيكون أول جاث بين يدي الله يذكر ضلأته ، لكنني أشك كثيرا بالسبب الذي جعلوه داعيا لهذا الجثو. والذي قد يكون أسلوب تعاملهم مع إنجازاته العظيمة في هذه الغزوة وغيرها جزء منه، إضافة لآلاف الأسباب الأخرى التي نعرف بعضها ونجهل البعض الآخر ، ومنها التشكيك بدوره في هذه المعركة، بل والتشكيك الأكبر الذي وصل إلى حد إنكار مشاركته فيها. حيث جاء في صحيح البخاري (عن أبي إسحاق قال : سأل رجل البراء {بن عازب} - وأنا أسمع - قال : أشهد علي بدرا؟؟؟) قال : وبارز وظاهر ^٣

١. صحيح البخاري حديث رقم ٣٩٦٦ صفحة ٧٠٣ كتاب المغازي .

٢. المصدر نفسه.

٣. المصدر نفسه حديث رقم ٣٩٧٠ صفحة ٧٠٣ .

إن مجرد طرح مثل هذا السؤال في مجتمع مسلم المفروض بأفراده أن يكونوا ملمين بالنقاط المهمة من تاريخه، والمفاصل المهمة في حياة الأبطال الذين صنعوا هذا التاريخ يؤكد حجم التغيب القاسي الذي تعرض له فكر وعمل وبطولة هذا الشخص العظيم تاريخياً بسبب تصرفات بعض الرواة التي كانت تحركها الولاءات السياسية.

ومن الأمثلة الأخرى على ذلك أن الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك سأل الزهري: (أبلغك أن علياً كان فيمن قذف عائشة؟ يقصد بذلك قصة الإفك التي وقعت في غزوة المريسيع. وأن الزهري قال له: لا، ولكن قد أخبرني رجلان من قومك، أبو سلمة بن عبد الرحمن، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث أن عائشة رضي الله عنها قالت لهما: كان علي مسلماً في شأنها^١ فهل كان الخليفة بحاجة لأن يسأل عن موقف علي من أمر فيه إساءة للنبي ولواحدة من أمهات المؤمنين مثل أمر الإفك لو لم يكن هنالك تغيب كامل لكل مواقف علي عليه السلام الجهادية وكل وأخباره؟

وكالعادة كان لعلي في غزوة أحد الدور الأكبر، وكانت لمناوئيه الفرصة الكبرى. فهو لم يهزم مع المنهزمين الذين تركوا النبي لوحده في أرض المعركة، وإنما بقي مع النبي يفتديه بنفسه ويذود عنه ببسالة قل نظيرها، فكان يصول عليهم ويكشفهم عن وجه النبي ويقيه بجسمه من ضرباتهم، وحينما وقع النبي في إحدى الحفر التي حفرها أبو عامر لتكون مصائد للمسلمين (أخذ علي بيد رسول الله^٢) وأخرجه منها. وحينما اشتد القتال قبل الهزيمة جلس النبي تحت راية الأنصار وأرسل إلى علي أن قدم الراية فتقدم علي وقتل أبو سعد بن أبي طلحة حامل لواء المشركين^٣

١. المصدر نفسه، الحديث رقم ٤١٤٢ ص ٧٣٥.

٢. السيرة، ٣ / ٧٤.

٣. السيرة، ٣ / ٦٧.

هنا تعترض ابن إسحاق رواية أخرى يسارع بالإشارة إليها ، وتقول هذه الرواية :
 أن سعد بن أبي وقاص هو الذي قتل أبو سعد حامل الراية وليس علياً^١ وهذا مخالف لما
 هو مشهور عن قيام علي بقتل حامل راية الشرك. بل ومخالف للروايات التي أثبتت أن
 علياً قتل كل من حمل راية الشرك في هذه المعركة. فهو بعد أن قتل سعداً، أخذ الراية أبو
 سعيد بن طلحة فقتله علي، فأخذها مسافع بن طلحة فقتله علي، فأخذها عثمان بن أبي
 طلحة فقتله علي، فأخذها الحارث بن أبي طلحة فقتله علي، فأخذها غدير بن عثمان
 فقتله علي فأخذها عبد الله بن حميد فقتله علي، فأخذها صؤاب فقتله علي^٢

وحينما أراد النبي معرفة وجهة قريش بعد انسحابهم من أرض المعركة (بعث
 رسول الله علي بن أبي طالب فقال : أخرج في آثار القوم فانظر ماذا يصنعون ، وما
 يريدون، فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون المدينة^٣ فجاء من أنكر
 قيام علي بهذه المهمة الصعبة وادعاه لغيره ، بل وأشرك فيها أكثر من سبعين شخصاً
 آخرين حيث جاء في صحيح البخاري أن عائشة قالت لعروة : يا ابن أخي كان أبواك
 الزبير وأبو بكر لما أصاب رسول الله ما أصاب يوم أحد وانصرف عنه المشركون خاف أن
 يرجعوا قال : من يذهب في إثرهم فانتدب من بينهم سبعون رجلاً. قال كان فيهم أبو
 بكر والزبير^٤ فهذا الحديث لا يكتفي بحرف كرامة علي عن مسارها وخروجه وحيدا في
 أثر قريش يتتبع أخبارها ، بل وينسب الخوف لرسول الله ، خلاف ما جاء في السيرة من
 قول النبي لعلي عندما أمره بالمسير (والذي نفسي بيده لئن أرادوها { أي المدينة }
 لأسيرن إليهم فيها ثم لأناجزنهم. قال علي : فخرجت في آثارهم أنظر ماذا يصنعون ،

١. السيرة ، ٣ / ٦٨ .

٢. موسوعة التاريخ الإسلامي ، مصدر سابق ٢ / ٢٩٤ .

٣. السيرة ، ٣ / ٨٧ .

٤. صحيح البخاري ، حديث رقم ٤٠٧٧ ص ٧٢٢ .

فجنبوا الخيل وامتطوا الإبل ووجهوا إلى مكة^١ أي أن النبي لم يكن يخاف رجوعهم لقتاله ثانية وإنما كان يخشى توجههم إلى المدينة لإحتلالها ولذلك أرسل علياً وحده، أما ألطف ما في هذه الرواية فهي إشارتها إلى أن هذا الفعل كان يحتاج حقا إلى سبعين فارسا لإتمامه، بينما نجد أن النبي ﷺ أرسل علياً وحده.

كان دور علي في هذه المعركة الصعبة من أكثر الأدوار تميزا وتفردا، لكن ما في القلوب من غل وحقد لا يحتمل أن يرى ذكره يعلو إلى عنان السماء دفع بعض المصلحين غير الحريصين على روح الإسلام لإحداث جلبة فارغة كان منها ممارسة نفس الأسلوب ألتشكيكي الذي استعملوه يوم بدر بخصوص عدد الذين قتلهم أولا. وقد قال ابن إسحاق: فجميع من قتل الله تبارك وتعالى يوم أحد من المشركين اثنان وعشرون رجلا^٢

حيث تقول بعض الروايات أن عليا قتل منهم لوحده أربعة عشر رجلا أي أكثر من الثلاثين ولذلك ورد عن "ابن أبي نجيح" قوله: نادى مناد يوم أحد (لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي)^٣. شهادة من السماء لدور علي المميز، وهذه حقيقة لم نتفق عليها رغم أهميتها وألا لو لم يكن لعلي دورا مميزا عن أدوار الأمة كلها، فلماذا ينادي المنادي في السماء؟ ولو كان دوره مقاربا حتى ولو من بعيد لأفضل أدوار باقي الصحابة، هل تجد من حاجة لهذا النداء؟ ولو لم يكن لسيفه المشهور تلك الأهمية الكبيرة ماذا سينفع النداء؟ ومتى يستحق السيف التفرد؟ هل يستحقه وهو معلق في غمده أم نتيجة فعالة في الطعان؟ وهل نفهم من هذا النداء بالتفرد أن السيف كان

١. السيرة ، ٣ / ٨٧.

٢. السيرة ، ٣ / ١٢٠.

٣. السيرة ، ٣ / ٩٢.

مصنوعا من الذهب أو الفضة الخالصة، بينما لا يوجد أي نقل في كل المدارس الإسلامية يشير لذلك ولو من بعيد؟

إذا استحق هذا السيف تفرده من فعاله يوم أحد، وهو لا يستحق التفرد إذا قاربه بالنتيجة أي سيف آخر. وهذا يعني أن الفرق بينه وبين باقي السيوف كبير جدا وليس كما في إحصاءات كتب السيرة والصحاح.

ولم يعجب هذا الأمر بعض الذين أوغر علي صدورهم فاختلفوا شخصية وهمية أطلقوا عليها إسم (قزمان) ونسبوا إليها من الخوارق الشيء الكثير. وكما يتبين من الإحصاء الآتي :

يقول ابن إسحاق : إن عليا قتل طلحة بن أبي طلحة وعبد الله بن حميد وأبو الحكم بن الأخنس وأبو أمية بن أبي حذيفة وأبو سعيد بن أبي طلحة وصؤاب ، وهناك روايتان بشأن الاسمين الأخيرين (أبو سعيد) الذي ادعوا أن سعد بن أبي وقاص قتله و (صؤاب) الذي نسبوا قتله إلى علي أو قزمان أو سعد بن أبي وقاص أو أبو دجاجة. وبذا يكون مجموع من قتلهم علي من المشركين ستة فقط وأرى أن هذا العدد لا يستحق نداء السماء ، ولا سيما أن هنالك نسب أخرى أعلى من هذه النسبة من المفروض أن يكون النداء بإسم أصحابها. هذا إذا كان أصل النداء قد جاء للمفاخرة فقط بدور علي في هذه المعركة حيث تقول الإحصاءات أن (قزمان) هذا الشخص المجهول الذي قال عنه النبي : (أنه من أهل النار). قتل تسعة من المشركين ، ويزيد هذا العدد على عدد قتلى علي

كذلك عاصم بن ثابت قتل إثنين منهم

وحمزة قتل ثلاثة

أما رسول الله فقتل عمرو بن عبد الله صبرا وشيبة بن مالك بيده

أي أن رسول الله وعلي وحمزة وعاصم بن ثابت والمجهول قزمان اشتركوا بقتل من

قتل من المشركين في هذه المعركة ، فأين كان باقي الصحابة يا ترى؟ لقد كان عددهم يزيد على السبعمئة شخص فهل من المعقول أن يتفرد أربعة أشخاص منهم فقط بالقتل ولا نجد أثر للباقيين؟ ومن هو الرابع بينهم ذاك الذي حقق النسبة القصوى في عدد القتلى؟ إنه قزمان وما أدراك ما قزمان؟

تقول كتب السيرة أن المسلمين افتخروا بفعاله وقتاله وبشروه بالجنة فردهم بخشونة بأنه لم يكن يقاتل في سبيل دخول الجنة ، وتقول رواية السيرة عن هذه الواقعة أنهم قالوا له : (والله لقد أبليت اليوم يا قزمان فأبشر بالجنة؟

فرد عليهم: بماذا أبشر؟ فوالله إن قاتلت إلا عن أحساب قومي ولولا ذلك لما قاتلت..!

قال: فلما اشتدت عليه جراحه أخذ سهما من كنانته فقتل به نفسه^١ هكذا تحدثت كتب السيرة عن قزمان هذا الرجل المجهول الذي قال عنه المسلمون: (كان فينا رجل أتى لا يدري ممن هو يقال له قزمان)^٢ والذي جاء في بعض نقول السيرة الأخرى: (وكان في المدينة في بني ظفر رجل غريب لا يدري ممن هو يقال له قزمان فلما قامت الحرب عيرته نسوة ظفر لأنه لم يشترك فيها فخرج يعدو إلى أحد حتى انتهى إلى الصف الأول فكان فيه، فكان هو أول من رمى من المسلمين)^٣

فلو كان وجوده حقيقة لماذا إذا لم يسأله أحد من مادحيه عن أحساب قومه التي جاء يقاتل دفاعا عنها وحب الفضول في شأن الأنساب كبير عند العرب؟ وهل أن انتقاص النساء منه يعني أنهم من أنسابه التي كان يدافع عنها؟ بل كيف سمح له رسول

١. السيرة ، ٣ / ٨١.

٢. المصدر نفسه.

٣. السيرة ٣ / ٩٣.

الله بالمشاركة في هذه الحرب وهو المجهول الذي يضعه البعض في خانة المنافقين ويضعه البعض الآخر في خانة المشركين. ولا سيما وأن أبي حميد الساعدي أن رسول الله لم يقبل اشتراك غير المسلمين الحقيقيين في هذه المعركة فقال: (إن رسول الله خرج يوم أحد حتى إذا جاوز ثنية الوداع إذا هو بكتيبة خشناء فقال: من هؤلاء؟

قالوا: هذا عبد الله بن أبي بن سلول في ستمائة من مواليه من اليهود من أهل قينقاع وهم رهط عبد الله بن سلام

قال: وقد أسلموا؟

قالوا: لا يا رسول الله

قال: قولوا لهم فليرجعوا فإننا لا نستعين بالمشركين على المشركين)^١

واسأل لماذا لم يفتخر المسلمون بفعال علي الذي يعرفونه ويعرفون نسبه. ودوره بكل الأحوال لا يقل أهمية عن دور قزمان هذا؟ لأنهم تعودوا منه مثلاً هذه الفعال؟ أم أنهم إفتخروا به فجاء من أدعى فخارهم به لغيره؟ أم أن الله سبحانه أرسل منادياً ينادي في السماء بفضل علي ويفتخر بفعاله لأن المسلمين انشغلوا بقزمان؟

أما السيف المعروف بذي الفقار فقال عنه ابن هشام: وكان يقال لسيف رسول الله ذو الفقار^٢ ثم يسكت ولا يكمل الحكاية، حكاية السيف وحقيقته. وعلاقة علي به. ولماذا ربطه النداء في السماء بعلي وليس بالنبي، وحقيقة أنا لا أدري إذا ما كان الرجل قد ذكرها في سياق حديثه ولكنها حذفت فيما بعد أم أنه تجاهل ذكرها بالأساس؟ المهم أن هنالك أقوال مغايرة أخرى وردت في السيرة ذاتها عن هذا السيف أوردها محققا السيرة الشيخان محمد علي القطب ومحمد الدالي في هامش الصفحة تذهب هذه الرواية

١. طبقات ابن سعد ٢ / ٤٨.

٢. السيرة، ٣ / ٩٢.

إلى أن "ذي الفقار" هو سيف العاصي بن منه فلما قتل كافرا يوم بدر صار إلى النبي ثم جاء إلى علي بن أبي طالب، ولكنهما لا يذكران كيفية مجيئه إلى علي ولا يذكران السبب،

أما ابن سعد فقال: قال ابن عباس: تنفل رسول الله سيفه ذا الفقار يوم بدر^١. ويقال أنه كان معه يوم أحد بدلالة الرؤيا التي رآها النبي وكأنه في درع وكأن سيفه ذا الفقار قد أنقصم^٢ أما ابن هشام فقال أن النبي قال يوم أحد: من يأخذ هذا السيف بحقه؟ فقام إليه رجال فأمسكه عنهم حتى قام إليه أبو دجانة سماك بن خرشه.. فقال وما حقه يا رسول الله؟ قال: أن تضرب به العدو حتى ينحني فال: أنا آخذه يا رسول الله بحقه، فأعطاه إياه^٣ فكيف جاء إلى علي وأبو دجانة الذي يزعمون أن النبي أعطاه السيف لم يصب بأذى في هذه المعركة؟

كما أنك حينما تعود إلى إحصاء قتلى المشركين لا تجد لأبي دجانة ذكرا باستثناء قولهم: (وصواب غلام له حبشي قتله قزمان.. ويقال قتله علي بن أبي طالب ويقال سعد بن أبي وقاص ويقال أبو دجانة)^٤ فهل يا ترى وبقتل صواب وحده الذي يشك الرواة في قاتله الحقيقي أعطى أبو دجانة للسيف حقه؟ فما أهون حق هذا السيف لو كان الأمر كذلك؟

الذي أعتقده أن هنالك سيفان، الأول سيف عادي غير مشهور، وهو كباقي السيوف التي كانوا يستعملونها في حروبهم. أراد النبي بواسطته أن يستفز روح التحدي عند المسلمين وهو الذي أعطاه لأبي دجانة (سماك بن خرشه) بعد أن منعه عن عمر بن

١. المصدر نفسه ٢ / ٢٦.

٢. المصدر نفسه ٢ / ٣٨.

٣. المصدر نفسه ، ٣ / ٦١ .

٤. المصدر نفسه ، ٣ / ١١٩.

الخطاب وطلحه، مع أنني لا أدري لم منعه عن عمر وعن طلحة وهما من وجوه الصحابة!، وحقا كان أبو دجانة قد أعطى لهذا السيف حقه عندما بقي مع علي وسهل بن حنيف قرب الرسول يحامون عنه بعد أن انهزم المسلمون في أحد وبضمنهم الصحابيّن اللذين لم يعطهم النبي ذلك السيف. وأما السيف الآخر فهو ذي الفقار الذي أعطاه النبي لعلي دون أن يعرضه على باقي الصحابة لأنه يعرف عن يقين أن عليا سيعطيه حقه

أما آخر مواقفهم الملتوية بحق علي في أحد فهي قولهم: فلما إنتهى رسول الله إلى أهله ناول سيفه إبنته فاطمة فقال: أغسلي عن هذا دمه يا بنية، فوالله لقد صدقني اليوم. وناولها علي بن أبي طالب سيفه فقال: وهذا أيضا فاغسلي عنه دمه فوالله لقد صدقني اليوم..

فقال رسول الله: لئن كنت صدقت القتال لقد صدق معك سهل بن حنيف وأبو دجانة^١

وتجد كذلك في أخبار غزوة الخندق بعض المواقف الغريبة من بعض الأحداث الغريبة لأسباب معروفة. منها أن رواة السيرة هونوا كثيرا من بطولة عمرو بن عبد ود العامري الذي كان يعد بألف فارس حسب بعض الروايات، والذي إقتحم الخندق وعبره إلى جانب المسلمين غير خائف ولا وجل من ثلاثة آلاف مقاتل مسلم كانوا مستعدين للموت دفاعا عن الإسلام ونبيه.

إن عبور هذا الرجل المتحدي يعني الشيء الكثير، وهو ليس من الأمور الهينة التي يمر عليها المرء ولا يلحظ أهميتها ومدى خطورتها والعجرفة الظاهرة فيها من خلال التحدي غير المتعادل بين رجل مهاجم واحد وجيش مدافع قوامه ثلاثة آلاف مقاتل، مما

١. السيرة، ٣ / ٩٢.

يعني أن هذا الرجل ليس كالرجال الآخرين، وإلا ما كان قد عبر لوحده. لكنك وبغرابة كبيرة تجد كتب السيرة تتحدث عن هذا الحدث العظيم بميوعة معروفة فتقول: (إن فوارس من قريش منهم عمرو بن عبد ود، وضرار بن الخطاب تيمموا مكانا ضيقا من الخندق فاقتحمت منه فجالت بهم في السبخة، وخرج على بن أبي طالب في نفر معه من المسلمين فتنازل مع عمرو وقتله وخرجت خيلهم منهزمة)^١ هكذا وبكل بساطة. ومن دون تفاصيل أو تحليل.

هذا الخروج الغريب لعلي بن أبي طالب من بين صفوف المسلمين الذين تصفهم السيرة بأنهم كانوا مرعوبين خائفين (وأقام رسول الله وأصحابه فيما وصف الله من الخوف والشدة لتظاهر عدوهم عليهم وإتيانهم إياهم من فوقهم ومن أسفل منهم)^٢ وتقول كذلك أن النبي كان يطلب منهم الخروج للنظر فيما يفعل جند الأحزاب وليس لمقاتلة الصناديد ويضمن للخارج سلامة العودة وثواب الجنة ولكنهم يرفضون الخروج خوفا على أنفسهم. حيث ورد عنهم قولهم أن رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) قال: (من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم، ثم يرجع - يشرط له رسول الله الرجعة - أسأل الله أن يكون رفيقي في الجنة؟ فما قام رجل من القوم، من شدة الخوف، وشدة الجوع، وشدة البرد)^٣

يدلل هذا الخروج العلوي الغريب على عظيم شجاعة علي، وكثير إيمانه، وحبه الجرم للإسلام. وهو بمحصلته النهائية بحجم عبور عمرو بن عبد ود ويتساق معه بالمقدار، بل ويزيد عليه كثيرا جدا لأن عمرو هذا البطل العظيم الذي هو أهل للتحدي.

١. السيرة ٣ / ٢٠٣ - ٢٠٤.

٢. السيرة ٣ / ٢٠٧.

٣. السيرة ٣ / ٢٠٩ - ٢١٠.

كان عند عبوره برفقة مجموعة من صناديد الشرك الذين عبروا معه الخندق، ومدعوما بعشرة ألف فارس يقفون خلفه ويحيطون بالمسلمين إحاطة السوار بالمعصم، وقلوبهم تقطر حقدا وكرها للإسلام، وهم على أهبة الاستعداد للهجوم. أما علي فكان وحده حسب أصح الروايات وبدلالة قوله ﷺ : (خرج الإيمان كله إلى الشرك كله) وكان الذين يقفون خلفه مملوءين رعبا وخوفا كما تصفهم الآية الكريمة بالقول ﴿إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار﴾^١

أما ادعاء أهل السيرة أنه خرج في نفر معه من المسلمين فلا يعتد به، خاصة وأن السيرة أغفلت تسمية هؤلاء النفر. مع أنه من المفروض في مثل هذه الحالة أن يكونوا من أشجع الصحابة ومن الوجوه المعروفة فهم مشمولون بكلية الإيمان التي وصف بها النبي خروجهم بقوله (خرج الإيمان كله) ولأنهم قبلوا المخاطرة في وقت كان الرعب يفعل فعله بالمسلمين الآخرين كلهم، أي أنهم وجوه بارزة لا تخفى على أحد، ولا يمكن إغفالها، مما يعني أن هذا الإدعاء غير قائم على أسس صحيحة،

ومن قصص خبير المهمة جدا، قصة مقتل مرحب بطل اليهود التي يشابه سرد السيرة لها سرد قصة عمرو بن عبد ود والتي تجمع المدارس الإسلامية أن عليا هو الذي قتله أيضا حيث جاء في السيرة وفي نقولها ما يخالف ذلك ومنه أن محمد بن مسلمة قال للنبي جوابا على سؤاله : من لهذا؟ أي من يخرج لقتال مرحب؟ (قال : أنا له يا رسول الله، أنا الموتور الثائر، قُتل أخي بالأمس، وكان أخوه محمود ألقيت عليه رحا فقتلته عند افتتاح حصن "ناعم" أول حصون يهود في خيبر فقال : قم إليه... وضربه محمد بن مسلمة حتى قتله)^٢

١. سورة الأحزاب / ١٠.

٢. السيرة النبوية ، ٣ / ٣٠٨.

ومع أن المحققان الشيخ محمد علي القطب والشيخ محمد دالي بلطه أشارا في هامش الصفحة إلى خطأ هذا الرأي بقولهم: (عن غير ابن هشام، أن الذي بارز مرحب فارس اليهود، هو علي بن أبي طالب كرم الله وجهه)، إلا أن ذلك لا يعني أن ابن إسحاق وابن هشام لم يسمعا بهذه الرواية. والذي اعتقده أنهما تجاوزا الإشارة إليها بدوافع وتعمد، وقد أوقعهم هذا التخليط المقصود في تعارض إخباري أو هن مؤلفهم حيث ورد في كتابهم قولهم: (إن النبي دفع كنانة بن الربيع إلى محمد بن مسلمة فضرب عنقه بأخيه محمود)^١ فإذا سمح النبي له بقتل شخص آخر انتقاما وثأرا لمقتل أخيه فذلك إسراف لا يرضى به الشرع ولا يقره الدين. وقد يكون سبب هذا التوهين الكتاب الأوائل للسيرة والمغازي كعروة بن الزبير ومحمد بن شهاب الزهري اللذين اعتمد ابن إسحاق عليهما كثيرا في كتابة سيرته

إن خروج مرحب من الحصن وتحديه لجيش المسلمين يعني أنه قوة خارقة تملك روح التحدي عن يقين وليس إدعاءً فارغاً. وهو يحتاج إلى قوة مساوية له بالمقدار أو تزيد عليه لكي تقف قبالته وتتحداه. ولا يصلح لمثل هذه الأمور سوى علي بن أبي طالب. أما محمد بن مسلمة فمع شديد احترامنا له فإنه ليس أهلاً للتصدي لمثل هذه المواقف. وأما بالنسبة لعلي فهناك آلاف الشواهد على امتلاكه مثل هذه المقدرة، منها تصديه لعمر بن عبد ود العامري يوم الخندق والذي وضع المسلمين في نفس المأزق الذي وضعهم فيه مرحب، فلم يخرج إليه محمد بن مسلمة ولا أي من الصحابة الآخرين. وكان المتصدي الأواحد هو علي بن أبي طالب

ومن قصص غزوة خيبر أيضاً قصة الباب الذي تترس به علي بن أبي طالب (وكان عند الحصن باب تترس به وقاتل حتى فتح الله عليه ثم ألقاه من يده حين فرغ، فلقد

١. المصدر نفسه، ٣ / ٣١١.

رأيتني في سبعة معي أنا ثامنهم نجهد على أن نقلب ذلك الباب فما نقلبه ^١ وهي منقبة عظيمة تستحق التمجيد والتخليد، وتدعو للمباهاة والفخر والاعتزاز، ولكننا لم نسمع في أي يوم أوفي أي مناسبة دينية أو وطنية أوفي أي محطة فضائية لها ذكرا وكأنهم يرتعبون عند محاولة ذكرها فيعجزون عن ذلك.

وحتى كتب السيرة جاءت بها مجتزأة مقطوعة، لأنها تكلمت عن أحد الأبواب وهو الأصغر أما الباب الأكبر الذي عجزت عن هزه أكف أربعون وأربع وهو باب حصن خبير الرئيس الذي جعله علي جسرًا للجيش فعبر عليه بعد أن أقتلعه من مكانه وهو كما معروف ليس من الأبواب الصغيرة العادية لأن قوافلهم المحملة تدخل إلى خبير من خلاله فإنها لم تتكلم عنه، وأنا هنا لا أتهم الذين كتبوا السيرة بالتحيز فما أدراني بعلم الغيب فلربما يكونون قد ذكروا هذه المناقب لعلي ولكن من جاء بعدهم لم يستسغ أن تذكر مثل هذه المناقب العظيمة ولذلك حذفها، أو تلاعب بنصوصها فأختزلها إلى الشكل الذي بدت عليه. وهي إن كانت قد تعرضت لضغوط أي من هؤلاء فإن ذلك يدل على وجود انتقائية غريبة تحكمت في كتابة تاريخنا العظيم

أما أن تغفل السيرة وكتب التاريخ الأخرى تحليل هذه القضايا وتمتنع عن إعطائها الحيز الذي تستحقه من البحث فذلك يدلل بالتأكيد على وجود انتقائية غريبة في اختيار النصوص التي يجب أن تطلع عليها الأمة من بين تلك التي لا يجوز لها الإطلاع عليها. وإن هذه الانتقائية كانت تتم وفق منهجية علمية محكمة دون الإلتفات لآثار هذا العمل التدميرية التي كانت ولا زالت آثارها المدمرة تنخر العلاقة بين المسلمين وتزيد بينهم الفرقة والتباعد والتباغض والتقاتل.

ومن قصص غزوة فتح خبير العجيبة الغريبة قصة ذكرنا من قبل قسما منها

ووعدناكم أن نذكر القسم الآخر في موقعه المناسب، وهنا محله، وهي تخص موضوع إعطاء الراية إلى من يقدر أن يفيها حقها إذ ورد في السيرة أن النبي عند مسيرهم إلى خيبر أعطى الراية إلى علي وكانت بيضاء (قال ابن هشام: وأستعمل على المدينة فمئله أليشي، ودفع الراية إلى علي بن أبي طالب وكانت بيضاء)^١ ثم أنها لسبب ما تحولت إلى غيره، ربما لأن هنالك من اعترض على هذا التخصيص وربما نتيجة الحسد الذي كان فاشياً بينهم آنذاك، ومنه أن الشاعر حسان بن ثابت قال يوم قرد أبياتا من الشعر منها قوله

ولسر أولاد اللقيطة أننا سلم غداة فوارس المقداد

فغضب سعد بن زيد وهو أحد الثمانية الذين فزعوا خلف السلب يومها، وحلف أن لا يكلم حسانا، فأعذر إليه حسان وقال والله ما ذاك أردت ولكن الروي وافق اسم المقداد ثم قال أبياتا أمتدح بها سعداً فلم يقبل منه سعد ولم يغن شيئاً. وكان المقداد أول من انتهى إلى رسول الله من الفرسان بعد أن صرخ النبي: الفزع، الفزع^٢، عليه تقول السيرة أن النبي أخذها منه ودفعها إلى أبي بكر، فقاتل ثم رجع ولم يك فتح، ثم من الغد بعث عمر بن الخطاب فقاتل ثم رجع ولم يك فتح، وهنا قرر النبي إعادة الأمور إلى نصابها الطبيعي فقال: (لأعطين الراية غدا رجلاً يحب الله ورسوله يفتح الله على يديه، ليس بفرار)^٣ فاستدعى علياً وكان أرمدا فتفل في عينه وأعطاه الراية فتم الفتح على يديه. ورافق عودة الراية إلى علي موقفان مهمان:

الأول: بخصوص قول رسول الله الذي أورده ابن هشام (لأعطين الراية غدا رجلاً

١. السيرة ٣ / ٣٠٣.

٢. السيرة ٣ / ٢٥٧ و ٣ / ٢٦١.

٣. السيرة ٣ / ٣٠٩.

يحب الله ورسوله) ففي هذا القول تعميم وإطلاق غريب ، ولا فضيلة فيه أو ميزة لعلي عن غيره من الصحابة الحاضرين ، فمن من الصحابة لم يكن يحب الله ورسوله ؟ إن العقل والمنطق والإنصاف وواقع الحال وما وردنا عنهم من أخبار تجمع كلها أنهم كانوا بأجمعهم يحبون الله ورسوله . فهل كان عليا وحده يحب الله ورسوله لكي يخصه النبي بهذا القول ؟ كلا بالطبع . إذاً هنالك تلاعب مكشوف في هذا القول وهذا التلاعب هو الذي أظهره بهذه العمومية وهذا الإطلاق .

وهو التلاعب الذي كشف عن وجوده البخاري في صحيحه، فقد أخرج البخاري عن سلمة أن النبي قال : (لأعطين الراية غداً ، أو ليأخذن الراية غدا رجلاً يحب الله ورسوله)^١ وفرق كبير جدا بين من يحب الله ورسوله فهذا أمر مقدور عليه ، وبين من يحبه الله ويحبه رسوله ، فتلك درجة لا يبلغها إلا من هم بدرجة الأنبياء والصديقين ، فكم من شخص في الدنيا كلها يجمع حب الله وحب الرسول معا؟ وحتى هذه الدرجة ليست هي الدرجة القصوى والسمو الأعلى ، وإنما هنالك درجة تتربع في القمة وليس فوقها شيء ، وهي الدرجة التي تكلم عنها سهل بن سعيد الذي أخرج له البخاري قوله : (إن رسول الله قال : لأعطين الراية غدا رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله)^٢ إنها درجة الحب المتبادل التي حاول بعض الرواة إغفال ذكرها فاستعصى عليهم ذلك لأن الله يأبى أن يتحكم هؤلاء بمثل هذه الفضائل .

ويدل هذا الاختلاف الجذري على حقيقة وقوع التحريف في تاريخنا بصورة عامة والسيرة النبوية بصورة خاصة. هذا التحريف الذي دفع الأمة عنوة وقسرا للاختلاف ، وكتبَ لهذا الاختلاف أن يصمد ويبقى إلى يومنا الحاضر ، وأن يبقى فعله التدميري ينخر

١. البخاري ، حديث ٤٢٠٩ ص ٧٤٥ .

٢. البخاري ، حديث ٤٢١٠ ص ٧٤٥ .

وحدة الأمة الإسلامية.

الثاني: أن ابن هشام وغيره من المؤرخين لم يصفوا الحالة التي خرج بها الصحابيان الجليلان للمعركة، ولكنهم وصفوا عودتهم غير المثمرة، أما عن طريقة خروج علي فقال سلمة: (فخرج والله بها يأنح)^١ ومعنى يأنح: أي يلهث من الإعياء نتيجة الهرولة، ذلك لأن عليا لم يكن يبالي أوقع الموت عليه أم وقع هو على الموت.

إن وقوع النصوص تحت سطوة الرواة وسيطرتهم، ترك أثرا سيئاً في المجتمع الإسلامي على مر التاريخ، لأنهم تحكموا بها وأعادوا صياغتها تبعاً لتوجهاتهم السياسية وميولهم الحزبية وولاءاتهم العقائدية والقبلية وحالتهم النفسية وعلاقتهم ببطل الواقعة التي يرومون التحدث عنها، فحولوها من حقيقة فطرية تلقائية تتناسب مع واقع الحال وأقرب للتصديق والقبول، إلى قصة أسطورية تتعارض في أغلب الأحيان مع الكثير من الحقائق العلمية فشوه ذلك جمالية السيرة وحقائق التاريخ الجميلة وحول تاريخنا الناصع إلى مجموعة أكاذيب ساهمت في تضخيم الخلاف بيننا وأوهت قوتنا وأضعفت عزيمتنا.

وفي غزوة حنين كان علي بن أبي طالب أحد القلائل الذين صمدوا دفاعاً عن النبي وهنالك أكثر من رواية تقول أنه بقي في البداية الهزيمة لوحده يدافع عن النبي، إلى أن عاد إلى مساعدته مائة من الأنصار، وفي هذه الغزوة قتل عليّ حامل راية الأعداء وبعدها انتصر المسلمون وهرب الأعداء إلى الطائف وعسكروا في أوطاس^٢ فهل من المعقول مساواة علي من حيث الشجاعة والصمود على أقل تقدير مع كثير من الصحابة الآخرين الذين سبق وأن تخلوا عن النبي وتركوه في عين الخطر في أكثر من واقعة؟

١. السيرة ٣ / ٣٠٩.

٢. السيرة ٤ / ٧٧.

وكنا قد تكلمنا في الفصل الأول عن علاقة النبي الأكرم بمجبرائيل وكيف أنه جاء إلى النبي وهمزه بقدمه لكي يوقظه من نومه للإسراء به إلى بيت المقدس. وقد تبين أن الرواة لم يقفوا عند هذا الحد بل تراهم يزعمون أن النبي تعلم من جبريل أسلوب الهمز بالقدم فأستعمله فيما بعد في التعامل مع أصحابه إذا ما أراد أن يقوظهم ليخبرهم بأمر ما قد يكون مهما جدا كما كان الأمر الذي أيقظه جبرائيل من أجله (الإسراء والمعراج) فقد جاء فيها عن عمار بن ياسر قال: (كنت أنا وعلي بن أبي طالب رفيقين في غزوة العشيرة... فانطلقت أنا وعلي حتى اضطجعنا في صور من النخل وفي دفعاء من التراب فمنا، فوالله ما أهبنا إلا رسول الله يحركنا برجله وقد تتربنا من تلك الدقعاء التي نمنا فيها فيومئذ قال رسول الله لعلي بن أبي طالب: ما لك يا أبا تراب، لما يرى عليه من التراب؟ ثم قال: ألا أحدثكما بأشقى الناس رجلين؟ قلنا بلى يا رسول الله قال: أحيمر ثود الذي عقر ناقة صالح، والذي يضربك يا علي على هذه - ووضع يده على قرنه - حتى يبل منها هذه، وأخذ بلحيته^١

وقد وقع خلط كثير في هذه الواقعة وتسمية النبي الأكرم لعلي بـ(أبي تراب) أنتج مجموعة من الروايات التي تشتمل بعضها قدحا بعلي، وهناك روايات أخرى أخرجها البخاري وغيره منها عن عبد العزيز بن أبي حازم عن أبيه: (أن رجلا جاء إلى سهل بن سعد فقال: هذا فلان، لأمير المدينة يدعو علياً عند المنبر، قال: فيقول ماذا؟ قال: يقول أبو تراب. فضحك، قال: والله ما سماه إلا النبي وما كان له إسم أحب إليه منه. قال: فاستطعمت الحديث سهلا وقلت: يا أبا العباس كيف؟ قال: دخل علي على فاطمة ثم خرج فاضطجع في المسجد فقال النبي: أين ابن عمك؟ قالت: في المسجد، فخرج إليه فوجد رداءه قد سقط عن ظهره وخلص التراب إلى ظهره، فجعل يمسح التراب عن ظهره

١. المصدر نفسه ، ٢ / ٢١٨.

فيقول: اجلس يا أبا تراب مرتين^١ إذ أن جهل المسلمين بهذه التسمية وسببها يؤكد وجود التغيب المتعمد لسيرة علي وما يخصه، ولو لم يكن سهل بن سعد موجودا لإصلاح الخلل لكان قد أستر دون أن يجد له رادعا.

كما جاء في كتاب السيرة حديث آخر جاء فيه: (قال ابن إسحاق: وقد حدثني بعض أهل العلم أن رسول الله إنما سمى علياً أبا تراب أنه كان إذا عتب على فاطمة في شيء لم يكلمها ولم يقل لها شيئاً تكرهه إلا أن يأخذ تراباً فيضعه على رأسه قال: فكان رسول الله إذا رأى عليه التراب عرف أنه عاتب على فاطمة فيقول: (ما لك يا أبا تراب؟)^٢ إن مقارنة الحديثين الواردين في السيرة مع الحديث الوارد عن سهل بن سعد في البخاري يؤكد وقوع التلاعب في قصص السيرة كما ويؤكد على مقدار التشويه والتشويش الذي تعرضت له أخبار علي مما يدعونا لإنصاف هذا الرجل العظيم وإعطائه ما يستحقه، إن مجرد محاولة بعض الأطراف الأخرى لرفع الغبن عن أخبار علي سيكون أحد العوامل المساعدة على لم شمل الأمة، فمتى سيبادر المختصون في الجهات الأخرى بهذه المبادرة العظيمة؟

سفارات وخيانات:

من قصص غزوة بني قريظة قصة الصحابي "أبو لبابه بن المنذر الأوسي" الذي أرسله النبي إلى يهود حسب طلبهم الشخصي لهذه الشخصية بالذات، وذلك لأن بني قريظة كانوا يساندون الأوس في نزاعهم مع الخزرج قبل الإسلام، أي كانت بين الطرفين مصالح ومنافع وعلاقات حميمة، وربما كانت هذه المصالح هي السبب الذي

١. البخاري، حديث رقم ٣٧٠٣ ص ٦٥٩.

٢. السيرة ٢ / ٢١٩.

دفعهم لطلبه بالإسم وتوجيه السؤال سبب المشكلة إليه.

وتقول كتب السيرة أنه حينما دخل بينهم سألوه عن رأيه إذا ما إستسلموا للنبي دون قتال، وكيف سيتعامل الرسول معهم؟

فقال لهم: (إنه الذبح)^١

أي أن هذا الرسول المؤتمن خان المسلمين وخان رسول الله وكذب على اليهود وأعطاهم عذرا لأن يستسلموا بالدفاع عن مساكنهم لأنهم سيقتلون في الحالتين مما يعني أن إندفاعهم المستमित سوف يتسبب بمقتل عدد أكبر من المسلمين، أي أنه بفعلته هذه سوف يتسبب بسفك الدماء بدل أن يحقنها، ويزيد المشكلة تعقيدا بدل أن يساهم في حلها.

أبو لبابه هذا ورغم فعلته النكراء التي لا تُعرف أسبابها ودوافعها، والتي يُقيّمها هو بنفسه في قوله الذي أوردته السيرة (فوالله ما زالت قدمي من مكانهما حتى عرفت لأنني قد خنت الله ورسوله)^٢ لم يرجع إلى النبي بعد فعلته، بل ذهب وربط نفسه في أحد أعمدة المسجد وقال: (لا أبرح مكاني حتى يتوب الله علي. وأقام مرتبطا بالجذع ست ليال.. ونزلت توبة الله عليه والنبي في بيت أم سلمه)^٣

هذا الدرس التاريخي الكبير، وهذا العمل الغريب بكل المقاييس والذي تكرر مرات عدة وبتواريخ مختلفة وأشخاص مختلفين، والذي يشير إلى خيانة بعض رسل النبي الذين كان يرسلهم في بعض المهام الإدارية، لم يحظ بالتحليل المطلوب ولم يلتفت إليه ذووا الاختصاص والعلماء منذ وقوعه وإلى الآن، إلا من ناحيته الفقهية أي العقاب الذي

١. السيرة ٣ / ٢١٤.

٢. السيرة ٣ / ٢١٤.

٣. السيرة ٣ / ٢١٥.

يوجبه مثل هذا العمل، وهي أضيق النواحي وأقلها أهمية للمجتمع، لذا أجد أنه يحتاج اليوم لمن يتبحر في تداعياته، ويسبر غوره، ويستخرج مكنوناته، ويجلي حقيقته، ويعرف دوافعه، وعلاقته بالسلوكيات العامة لبعض المسلمين في زمن البعثة. تلك السلوكيات التي تبدو بمنتهى الغرابة، والمفرقة بالتقصير الفاضح، والموسومة بالدونية والتعارض مع السلوك الإسلامي السوي العقائدي، خاصة وأن خيانة رسل النبي للأمانة وعدم تأدية الرسالة على وجهها الأكمل، بما كاد يفضي إلى وقوع الحرب، تكرر مرات عديدة إحداهما قصة أبي لبابه هذه.

والأخرى خيانة الوليد بن عقبة بن أبي معيط التي كادت أن تتسبب أيضا في وقوع معركة كبيرة بين المسلمين أنفسهم هذه المرة، وموضوعها أن "الحارث بن أبي ظرار" والد جويرية زوجة النبي التي تزوجها بعد المعركة جاء إلى النبي مطالبا بقومه الأسرى عند المسلمين، فرد له رسول الله السبايا إكراما لأُم المؤمنين جويرية. وكذلك فعل المسلمون فقال الناس (أصهار رسول الله، وأرسلوا ما بأيديهم... فلقد أعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بني المصطلق حتى قال القائل: فما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها)^١ ولذلك أسلم بنو المصطلق كلهم لما رأوه من عمل المسلمين الذي لم يألوه في غزواتهم كلها.

ثم بعد حين أرسل لهم النبي رسوله وسفيره الوليد بن عقبة بن أبي معيط مصدقا. أي: جامعا للصدقات. فلما سمعوا بمقدمه، خرجوا للترحيب به، فظن - وبعض الظن أثم لما رأيهم أنهم قاتلوه، فهرب وعاد إلى المدينة المنورة، هكذا تقول السيرة، أما أنا فأرى أن هذا السفير الخائن اصطنع هذه الحركة بمهارة وكيد مخطط له بحكمة وخبث، ليقع

١. السيرة ٣ / ٢٦٩.

بين النبي وبينهم العداوة، انتقاماً من النبي، ومن الإسلام والمسلمين، ولكن رواية السيرة إكتفوا بذلك القول لأسباب معروفة. ثم أنه لما قدم إلى النبي لم يدع أنه هرب منهم قبل أن يصلوه، وإنما ادعى إنهم منعوه الصدقة، وهموا بقتله، فهرب منهم وعاد. فأكثر المسلمون في ذكر غزوهم، أي ألحوا على الرسول لغزوهم مجدداً، حتى هم رسول الله بأن يغزوهم. هكذا تقول كتب السيرة أيضاً. فصادف أن وصل وفدهم إلى النبي في الوقت المناسب، وأخبروه الخبر اليقين فأنزل الله تعالى قرآناً جاء فيه ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾* وأعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم... ﴿١﴾

هنا لو عدنا إلى قولهم (حتى هم رسول الله بأن يغزوهم، فبيننا هم على ذلك) أي بينما هم يتهيئون للحرب، وقارناه مع الآية الساسة أعلاه نجد فيه تعارضاً معها، فالآية جاءت لتخاطبهم هم دون رسول الله وتأمّرهم بالتحقق من الأمور، وعدم الاستعجال والتسرع في إتخاذ القرارات الحاسمة، بما يفضي إلى الندم. وأما الآية رقم سبعة فتتفي قطعياً أن يكون النبي قد أطاع الصحابة وهم بغزوهم لأنه يعمل ما يعمل بأمر الله وليس بأمره أو بمشورة الصحابة وحثهم له، وأنه لو كان يطيعهم في الكثير من الأمر لأصابهم التعب والنصب، مما يؤكد أن النبي لم يرضخ لطلبات الصحابة بغزو بني المصطلق ثانية كما تقول السيرة. ولو عدنا ثانية إلى نفس الآية نجد أنها تصف الوليد بن عقبة بن أبي معيط هذا بالفسق (إن جاءكم فاسق بنبأ) فهل كان صحابة رسول في قلة وضعف وغفلة وجهالة، لكي يلجأ النبي إلى رجل فاسق ويرسله جامعاً للصدقات، وسفيراً ونائباً عنه؟ أليس بين الصحابة الكرام من هو أعلى وأعز على الله من الوليد هذا لكي يرسله النبي

سفيرا ومصداقا؟ وهل يعني هذا أن النبي لم يكن يعرف فسق الوليد هذا، وهو الرجل الذي تأمر وأبوه على الإسلام أكثر من مرة؟ إن موضوع هذه السفارة كغيره يحتاج من الباحثين المتخصصين جهدا ووقتا لدراسته بعلمية واحتراف، لجلاء حقيقة موقفه، وصدق ما جاء به الأولون عنه.

و هناك خيانة الصحابي "حاطب بن أبي بلتعة" الذي تطوع بإرسال رسالة تحذير لقريش بما يصلح أن يكون عملا جاسوسيا حقيقيا بمعنى الكلمة. حيث تقول كتب السيرة أن رسول الله كان يدعو الله عند تهيئته للمسير إلى مكة بقوله (اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها)^١ حيث كان يرغب بتوظيف عنصر المفاجئة والمباغطة نظرا لما بين المسلمين وقريش من شحناء ستجعلهم يستعدون للأمر ويستमितون لمنع النبي من دخول مكة. ولكنه وهو في هذه الحال استلم عن طريق الوحي خبراً مفاده أن الصحابي البدري حاطب بن أبي بلتعة كتب إلى قريش يعلمهم بخروج النبي لغزوهم، وأعطى الكتاب إلى امرأة لتوصله إلى قريش في مكة. فبعث النبي ﷺ علي بن أبي طالب والزبير بن العوام فقال: أدركا امرأة قد كتب معها حاطب بكتاب إلى قريش يحذرهم. فأدركوها بالخلقة أو بذي الحليفة وفتشا رحلها فلم يجدها. فقال لها علي بن أبي طالب: إني أحلف بالله ما كذب رسول الله ولا كُذِّبنا. ولتُخرجين لنا الكتاب أو لنكشفنك. فأخرجته لهن فأتى به رسول الله.

فهذا العمل الجاسوسي الكبير لم يصدر عن منافق معروف، بل صدر عن أحد الصحابة الذين شاركوا في معركة بدر. وكاد أن يُفشِل خطط النبي، ويحذر المشركين، فيمنحهم فرصة الإستعداد للحرب. مما كان ينذر بوقوع مذبحة بين العرب مسلميهم ومشركيهم. وتقول السيرة (إن النبي دعا حاطب وسأله: ما حملك على هذا؟

١. السيرة ٤ / ٣٣.

فقال: أنا رجل ليس لي في القوم من أصل، ولا عشيرة، وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل، فصانعتهم عليهم.

فقال عمر بن الخطاب: دعني يا رسول الله فلاضرب عنقه، فإن الرجل قد نافق.
فقال رسول الله: وما يدريك يا عمر، لعل الله أطلع إلى أصحاب بدر يوم بدر فقال: أعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم^١

هذا الموقف يحتاج أيضا للبحث الحقيقي عن الأسباب التي دفعت حاطب ألبدر الذي سبق وأن أرسله رسول الله سنة ست من الهجرة إلى المقوقس القبطي صاحب الإسكندرية يدعوه إلى الإسلام^٢ لخيانة الإسلام والمسلمين، والأسباب التي دفعت النبي للعفو عنه رغم عظيم جرمه

هناك أيضا قصة السفير الصحابي "عبد الله بن خطل" وهو رجل من تيم قوم أبي بكر. بعثه النبي مصدقا وبعث معه رجلا من الأنصار. وكان معه مولى يخدمه مسلم. وفي الطريق أمر مولاه أن يذبح له تيسا فيصنع له طعاما. فنام المولى وأستيقظ ولم يصنع شيئا. (فعدا عليه فقتله ثم ارتد مشركا وذهب إلى مكة)^٣ فهل سأل أحد ما عن سبب اختيار النبي لمثل هذه الأنموذجات القميئة ليكونوا سفراءه ورسله وجامعوا صدقاته؟ وهل كان رسول الله جاهلا بأهمية السفير وما يعنيه؟ إنه لو كان جاهلا لذلك ما كان قد بعث جعفر بن أبي طالب سفيرا إلى الحبشة، وما كان قد اختار أفاضل أصحابه ليرسلهم سفراء للملوك والوجهاء ورؤساء وشيوخ القبائل، وما كان قد أرسل علي بن أبي طالب سفيرا إلى اليمن يدعوهم للإسلام

١. السيرة ٤ / ٣٤.

٢. طبقات ابن سعد ١ / ١٣٤.

٣. السيرة ٤ / ٤٤.

إن وجود حالات خيانة حقيقية في زمن البعثة، وبين أبطالها من بين أفراد الجيل المثالي، يعني الشيء الكثير ويحتاج من المختصين للاجتهاد ودراسة هذه الظاهرة بعناية فائقة لأن نتائج الدراسة سوف تقودنا بالتأكيد لمعرفة الكثير من الخيانات الأخرى التي قام أصحابها مثلاً بوضع الأحاديث الكاذبة، أو القصص المزيفة، أو الروايات المدسوسة، أو الطعون الموهومة، بحق الصحابة الكرام المخلصين. ثم إدخال ذلك كله في كتب الحديث والسيرة والتاريخ، وهي الكتب التي استند إليها المسلمون في الاحتجاج وفي استنباط الأحكام والحدود أفراداً ومذاهب. مما وسع شقة الخلاف بينهم وأدامها إلى يومنا الحاضر، وحولها إلى صراع دموي في أحيان كثيرة.

ورغم صعوبة معرفة الدوافع وراء تصرف هؤلاء الناس بهذا الشكل المنحرف عن الشريعة وعن الخلق القويم، واعتراف علماء النفس أيضاً بهذه الصعوبة، كما في قول عالم النفس "فينيك" في كتابه (من ترهقهم الحياة): (من المستحيل حتى على الخبراء أن يفهموا تماماً لماذا يتصرف شخص ما بالصورة التي يتصرف بها)^١ إلا أننا يجب أن نوظف كل معطيات الحضارة الحديثة المتوفرة عندنا والعلوم التي نجدها للتحري عن هذه الأسباب ومعرفتها، أو معرفة بعض المعلومات عنها. لأن ذلك سيكشف لنا حقيقة بعض الرجال الذين نسبوا أنفسهم، أو نسبتهم جهات أخرى إلى مراكز متقدمة من النبي والقرب منه، فاستغلوا هذا القرب المصطنع في إدخال الكثير من المفاهيم التي لا تمت للإسلام بصلة في المنظومة الفقهية والروائية، فأخذت بها بعض المذاهب الإسلامية لصلتها بهذه الأسماء ليس أكثر. لأن هذه الأسماء منزهة لديهم، ثم أدخلتها في مناهج تعبدها على أنها من السنة النبوية، فساهم ذلك في توسيع الفجوة بين المسلمين، ولا سيما مع أولئك الذين لم يلتفتوا للأسماء الرنانة، ولم يشغلوا أنفسهم بها، بل التفتوا لصحة

١. العقدة النفسية، عباس البلداوي، ص ١٧.

الخبر وسنده وموافقته للقرآن فأخذوا به ، ولأن ما يوافق القرآن يخالف ما يوافق الأهواء ، فقد وقع ما بيننا من خلاف ، وإذا لم ننجح في معرفة المسيبين وأسباب عملهم الخلافي هذا لن ننجح في تجاوز مرحلة الخلاف أبداً. كما إن من المفروض بالمجتمع الإسلامي أن يكون قد وصل مرحلة البعثة إلى أعلى درجات التطور الإدراكي على مستوى الفرد والجماعة. بل أن الإدراك الفردي يجب أن يتواءم مع إدراك الجماعة لأن التطور الإدراكي للفرد في إطار شروط اجتماعية معينة يؤكد وجود علاقة سببية دائرة بين سيرورات التعلم الفردية وسيرورات التعلم الجماعية كما يقول هابرماس^١

وأقول إنصافاً: إن قبالة هذه الأسماء هنالك أسماء تعلوا على قمم الجبال، وتشمخ فوق النجوم. أدت ما عليها، وصانت الأمانة وفدتها بروحها، منهم على سبيل المثال الرجال الستة الذين أرسلهم النبي بعد أحد سفراء مع رهط من عضل والقارة يعلمونهم شرائع الإسلام، فغدروا بهم بما يعرف بـ(يوم الرجيع) فقتلوا مرثد بن أبي مرثد، وخالد بن بكير. وعاصم بن ثابت وأخذوا زيد بن الدثنة وخبيب بن عدي وعبد الله بن طارق أسارى. قتلوا منهم عبد الله بن طارق حين حاول الهرب. وباعوا خبيب لجمير بن أبي أهاب التميمي. وباعوا زيد إلى تاجر السلاح المعروف صفوان بن أمية ليقتله بأبيه أمية بن خلف. فأخرجوه ليقتلوه وأجتمعت رهط فيهم أبو سفيان ومعاوية أبنة. ثم حينما قدموه للقتل سأله أبو سفيان: أنشدك يا زيد أتحب أن محمداً عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه وأنت في أهلك؟ قال: والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وإني جالس في أهلي^٢

وما دمنا بصدد الحديث عن كيفية إختيار النبي لرسله وعماله التي تظهرها كتب

١. بعد ماركس ، هابرماس ، ص ٥٠.

٢. السيرة ٣ / ١٥٨.

السيرة وكأنها عملية جاءت مخالفة لأبسط المعايير العلمية والقيادية والإدارية والعسكرية. لأن النبي (حاشاه الله) يظهر من خلالها وكأنه لم يكن يحسن تقدير الأمور. ما دمننا بصدد ذلك لا بأس من الحديث أيضا عن الثقة العمياء التي كان يوليها النبي للذين يأتونه يدعون الإسلام. ثم يأخذون مجاميع من المسلمين معهم ليغدروا بهم ويقتلونهم. ومنها قصة "يوم الرجيع" التي وقعت بعد أحد مباشرة. ثم قصة "بئر معونة" التي وقعت بعدها بأربعة أشهر. حيث يظهر من هاتين القصتين وكأن النبي لم يكن يحسن الاختيار. وأنه كان يقع في شرك الخداع بسهولة. وأن لا أبايته هذه تسببت بمقتل مجموعة من الصحابة الأبرياء. وهذا كله مخالف لما عرف عنه (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) من حرص على صحابته، ومن حسن تقدير الأمور ووضعها في نصابها حتى في أحلك اللحظات. إضافة للدعم الروحي الذي كان يقدمه الوحي المستمر كما لاحظنا في سرعة نزول الوحي لإخباره بخيانة حاطب بن أبي بلتعة مثلا.

تبدأ قصة يوم الرجيع بقدم رهط عضل والقارة إلى النبي يطلبون معلمين يذهبون معهم إلى أهلهم يعلمونهم شرائع الإسلام. فبعث رسول الله معهم ستة من الصحابة. حتى إذا كانوا على الرجيع وهو ماء لهذيل بناحية الحجاز بين عسفان ومكة غدروا بهم^١ وقد قدمنا بعض القول عن هذه الواقعة.

ومثلها قصة بئر معونة على رأس أربعة أشهر من أحد حيث جاء إلى النبي في المدينة "أبو البراء عامر بن مالك" فعرض عليه النبي الإسلام. (فلم يسلم، ولم يبعد عن الإسلام). هكذا تقول الرواية في كتاب السيرة. ولا أدري كيف لهذا الرجل أن يرفض الإسلام، ولكنه في نفس الوقت لم يبعد عنه أي لم يرفضه. فهذا الموضوع حدي جدا لا خيار ثالث فيه. ولا تقف الرواية عند هذا الحد بل تدعي أنه قال للنبي: يا محمد، لو

١. السيرة ٣ / ١٥٥ - ١٥٦.

بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد فدعوههم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك؟ أي أنه لم يقبل الإسلام ولكنه تحول إلى رجل حريص جداً على الإسلام وانتشاره بين الناس ليطلب من النبي إرسال المبشرين معه لنشر الإسلام في نجد.

فقال رسول الله: إني أخشى عليهم أهل نجد!

قال أبو براء: أنا لهم جار. أي: أنا لهم حام

فبعث رسول الله المنذر بن عمرو في أربعين رجلاً من الصحابة، فساروا حتى نزلوا ببئر معونة وهي بين أرض بني عامر وحرّة بني سليم، وأرسلوا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله إلى عدو الله عامر بن الطفيل، فأستصرخ عليهم قبائل بني سليم من عصية ورعل وذكوان فأحاطوا بهم في رحالهم وقتلوه عن آخرهم^١

حيث تقود النتائج المساوية لهذه الإرساليات للتساؤل عن سبب إرسال النبي لهم دون التوثق من صحة ووجاهة الأسباب الموجبة، فالتضحية بستة وأربعين صحابياً دون مسوغ ليس بالأمر الهين ولا سيما وأن رسول الله كان لا ينجز أمراً إلا بأمر الله سبحانه. فأين يكمن الخلل إذاً؟ هل يكمن في الأسلوب القيادي للنبي؟ أم بمستوى الإدراك الفكري؟ أم بقلّة الوعي السياسي؟ أم بعدم الحرص؟ أم في قضايا غيبية لا يتسنى لنا إدراك كنهها؟ أم في الرواية أنفسهم؟ أم فيمن تصدى لكتابة سيرة رسول الله؟

هنا أود الوقوف عند أمرين مهمين لهما علاقة بما سبق ذكره.

الأول منهما: أننا حتى لو كنا لا نعرف تاريخ إسلام الصحابي حاطب بن أبي بلتعة، إلا أن مشاركته ببدر تعني أنه من المسلمين الأوائل، واعتماد النبي عليه بإرساله إلى المقوقس يعني أنه من أهل الثقة، والمفروض بهذه الشريحة الكريمة أنها وصلت في السنة الثامنة للهجرة إلى مرحلة وعي وإدراك متقدم جداً، وإنها اكتسبت من خلال طول

معاشرتها للنبي مهارات كثيرة، وعرفت شخصية النبي على حقيقتها، وتجمّع لديها كم كبير من الأحكام والتشريعات الفقهية بما يؤهلها لتولي المناصب القيادية المتقدمة في صفوف الدعوة، لا أن تكون بهذه السذاجة واللاأبالية والإستعداد الفطري لإرتكاب بعض ابغض الأمور للإسلام وأخطرها عليه!

أما الثاني منهما: فهو عدم تعلم بعض الصحابة من النبي تلك الطريقة السهلة اللبقة في التعامل مع المستجدات والهفوات والمشكلات، وظهورهم في الكثير من المواقف خشنين، صليين، متسلحين بالصرامة العقلية التي يعرفها "روكيش" على أنها: (عدم قدرة الشخص على تغيير جهازه الفكري أو العقلي عندما تتطلب الشروط الموضوعية ذلك، وعدم القدرة على إعادة ترتيب أو تركيب حقل ما تتواجد فيه عدة حلول لمشكلة واحدة، وذلك بهدف حل هذه المشكلة بفاعلية أكبر)^١

ومع أن ذلك قد يكون بسبب تلك الروح الجهادية الثورية التي اكتسبوها من خلال مسيرة الجهاد الأولى، ومن شدة امتعاضهم من أعمال بعض الصحابة الآخرين، إلا أن موقفهم المتشدد يدل حتما على الفارق الكبير بين سلوكياتهم الإدارية وبين طريقة الإدارة النبوية للأزمات في زمن البعثة، والتي كان من المفروض بهم تعلمها منه لاستخدامها في الممارسات الحياتية اليومية. أي أنهم ألما بجانب واحد من المعادلة أما الجانب الآخر فبيدوا أنهم عجزوا عن إدراك أبعاده الحقيقية لا في زمن البعثة فقط بل وفي الفترات اللاحقة أيضا، بدلالة عجزهم عن حل المشكلات التي طرأت على المجتمع والتي أحدثت الاختلاف بين قياداته الروحية والسياسية منذ سنة ١١ هجرية وهو تاريخ تولي الصحابة للحكم بعد النبي ولغاية سنة ٤١ هجرية حيث تحول الحكم إلى وراثية كسروية. هذه الخلافات التي نجحت بعد هذا التاريخ في ترجيح كفة السياسة على كفة

١. ينظر مقدمة المترجم هاشم صالح لكتاب الفكر الإسلامي لمحمد أركون ، ص ٥.

العقيدة فحدث الانشقاق بين الاثنين وأستمر إلى هذا اليوم.

وفي هذا الصدد هناك على سبيل المثال لا الحصر موقفان مشهوران جدا أحدهما موقف أم المؤمنين عائشة من اليهود الذين دخلوا على النبي فقالوا لهم: السام عليكم. أي الموت لكم يا نبي المسلمين فأنبرت أم المؤمنين للدفاع عن النبي بعنف وشدة وقالت لهم: وعليكم السام. ثم لعنتهم، فقال لها رسول الله: (يا عائشة، إن الله رفيق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على سواه)^١

وثانيهما تطالعنا في أكثر من واقعة، وفي مواقف متعددة، مقولة الصحابي عمر بن الخطاب الشهيرة جداً (يا رسول الله دعني فلاضرب عنقه) منها مع حاطب بن أبي بلتعة^٢ ومع أبي سفيان^٣ ومع ذي الخويصرة^٤ ومع ابن سلول، وغيرهم. كما وتطالعنا ردود النبي عليها (وما يدريك يا عمر) وغيرها من الردود المشابهة. فهذا التناقض الغريب بين تشدد الصحابة في أحكامهم وحدثها، وبين حكمة النبي الأكرم وتأنيه في اتخاذ القرارات بما يؤكد أن الرجال الذين تصدوا لقيادة المجتمع الإسلامي بعد البعثة، ورغم معاشتهم المستمرة لرسول الله ومعرفتهم بأنماط سلوكه في المواقف كافة إلا أنهم لم يكونوا قد استوعبوا كلياً خلق النبي وأسلوبه القيادي الذي يؤهل من يحيط به لحمل المشروع الكبير. لأنهم لم يكونوا قد تخلصوا بعد من رواسبهم القديمة، ولذلك كان التسرع أحد أبرز المؤشرات الطاغية على قراراتهم. فهل كان صحابة رسول الله بهذا المستوى من العنف الذي يصبح ثورياً في بعض الأحيان، أم أن كتب السيرة والرواة توهموا أو ضخموا الأمور فبدت الأحداث بهذا الشكل؟

١. صحيح مسلم، حديث رقم ٢٥٩٣، ص ١١٠٥.

٢. السيرة ٤ / ٣٤.

٣. السيرة ٤ / ٣٨.

٤. السيرة ٤ / ١١٩.

العلاقات المجتمعية:

قصة غريبة أخرى من قصص غزوة بني قريظة تحتاج للدراية والعناية والبحث والتحقق هي غيرة الأوس من إخوانهم الخزرج، وقولهم للنبي: (إنهم مواليينا) يقصدون يهود بني قريظة [دون الخزرج، وقد فعلت في موالي إخواننا بالأمس ما عملت، يقصدون بني قينقاع] وكان بنو قينقاع أنصارا للخزرج في خلافهم مع الأوس في الجاهلية [وهم الذين حَكَّم النبي بهم عبد الله بن أبي سلول فوهبهم له]^١ رغم عدم رضاه بحكم عبد الله ابن أبي سلول!

ويمكن أن نستدل بهذه القصة على بضعة حقائق منها مثلا: هل يعقل أن يبقى وفاء الأوس والخزرج وبعد كل هذه السنين قائما للمجموعتين اليهوديتين اللتين كانتا تستغلان ما بينهما من خلاف لزيادة شدة العداء لدرجة أنهما يطلبان من رسول الله أن يحكمهما في مصائرهما بعد أن وقعتا في قبضة المسلمين على التوالي؟ وهل يعقل أن جهود النبي الإصلاحية ذهبت سدى ولم تنجح في إصلاح الأوس والخزرج حتى ذلك الوقت، لدرجة أنهم كانوا مستعدين لإحياء مآسي الأمس القريب، والعودة للتقاتل لأتفه الأسباب؟ وإذا كان حكم عبد الله ابن أبي سلول شيخ الخزرج قد جاء موافقا لأهواء يهود بني قينقاع، فلماذا أقر النبي حكمه ولم يعترض عليه، ولماذا يطلب الأوس تحكيمهم بنفس الذرائع التي استخدمها الخزرج وهم يعلمون أن النبي لم يقبل بحكم الخزرج؟

قد يقول البعض أن حكم الأوس في بني قريظة الوارد في قول سيدهم سعد (فإني أحكم فيهم أن يُقتل الرجال وتُقسم الأموال وتُسبى الذراري والنساء)^٢ إنما جاء مطابقا

١. السيرة ٣ / ٢١٦ - ٢١٧.

٢. السيرة ٣ / ٢١٧.

لهوى النبي بدلالة قوله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم): (لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة)^١ للتدليل على صدق ولاءهم، فأقول نعم. ولكن طريقة طلبهم للتحكيم جاءت مشابهة لطلب الخزرج وبنفس آلياتها،

وفي أكثر من موقع من كتاب السيرة وردت صور أخرى يظهر فيها أن ما بين القبيلتين العربيتين المسلمتين الأوس والخزرج من التشاحن والتباعد والتنافس كان بنفس الروحية القديمة التي كانت سائدة بينهما قبل الإسلام، وإنهما كما يصفهما كتاب السيرة (كانا يتصاولان ويتفاخران تصاول الفحلين)^٢ ولتدليل على ذلك أورد ابن هشام قصة قيام أحد الأنصار بإصابة رجل من المسلمين عن طريق الخطأ، ثم تقاتل جهجاه بن مسعود وسنان بن وبر بسبب الازدحام على السقي (الماء) وصراخ الجهني: يا معشر الأنصار^٣ كما أورد ابن إسحاق قصة أخرى بخصوص الإفك حيث (قال أسيد بن حضير الأوسي: (يا رسول الله إن كانوا من الأوس نكفيكهم وإن كانوا من إخواننا من الخزرج فمرنا بأمرك.. فقام سعد بن عباد الخزرجى وقال: كذبت.. أما والله ما قلت هذه المقالة إلا أنك قد عرفت أنهم من الخزرج.. فقال أسيد: كذبت لعمر الله.. وتساور الناس حتى كاد يكون بين هذين الحيين من الأوس والخزرج شرا)^٤

كذلك حدثت في غزوة بني المصطلق بعض الأمور الجسام التي لها علاقة بهذا الشأن منها حادثة أظهرت أن ضعف الوشائج لم يكن بين الأوس والخزرج من الأنصار فقط بل كان بين المهاجرين من جهة والأنصار مجتمعين من جهة أخرى، وأنهم كانوا

١. السيرة ٣ / ٢١٨.

٢. السيرة ٣ / ٢٤٨.

٣. السيرة ٣ / ٢٦٥.

٤. السيرة ٣ / ٢٧٤.

لأبسط الأمور يستفزون ويتخفي كل منهما بقومه وجماعته فيصيح هذا (يا معشر الأنصار) ويصيح ذاك (يا معشر المهاجرين)^١ وهذا مخالف لما شاع في النقول والأخبار عن تحابهم وتراحمهم الذي شهد به كتاب الله العزيز حينما وصفهم سبحانه بقوله ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في جباههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطئه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً﴾^٢ وأجد أن هذه الروايات وأشباهها قد دست في السيرة لغايات تدميرية توهينية، وإنها تحتاج منا جهداً وعناية لكي نلقيها من مثل هذه الشوائب.

ومن قصص غزوة بني المصطلق أيضاً قصة "مقيس بن صبابه" الذي جاء إلى النبي من مكة مدعياً الإسلام ومطالباً بدية أخيه هشام بن صبابه الذي قتله رجل أنصاري بطريق الخطأ في الحادثة المعروفة التي كادت أن تتحول إلى صراع دامي بين المسلمين أنفسهم يوم صاح سنان الجهني: يا معشر الأنصار وصاح جهجاه: يا معشر المهاجرين. حيث أمر له النبي بدية أخيه، ثم بعد حين عدا مقيس بن صبابه على قاتل أخيه فقتله وخرج إلى مكة مرتداً^٣ حيث يبدو من هذه القصة وكأن رسول الله كان إنساناً ساذجاً بسيطاً سهل التصديق والانخداع بالكلام المعسول. فأوردتها كتب الصحاح والسيرة كما هي أو كما رواها الرواة دون مناقشة أو بحث، وذلك لأنهم لم يعرفوا التركيبة الفريدة التي تتكون منها منظومة الأخلاق النبوية المفتوحة على كل الاتجاهات

١. السيرة ٣ / ٢٦٥.

٢. سورة الفتح / الآية ٢٩.

٣. السيرة ٣ / ٢٦٤ - ٢٦٨.

والمدعومة بالتواصل السماوي المستمر والمتابع لكل المستجدات.

الإسرائيليات المدسوسة:

لم يجمع المسلمون على أمر كما أجمعوا على صحة وجود الإسرائيليات في كتاب السيرة، ولم يبدر منهم أي اهتمام لتخليص السيرة من هذه العوالق التي شوهت وجه كتب السيرة فخلدت كما خلدت القصص البيضاء الناصعة، وهذا من الأسرار التي تحتاج لمن يميّط اللثام عنها ويكتشف الحقيقة.

ومن الإسرائيليات قصة غريبة من قصص غزوة بني قريظة يرويها الرواة عن أم المؤمنين عائشة أنها قالت: (لم يُقتل من نسائهم إلا امرأة واحدة. قالت: والله أنها لعندي تحدث معي وتضحك ظهرا وبطنا ورسول الله يقتل رجالها في السوق، إذ هتف هاتف بإسمها أين فلانة؟

قالت: أنا والله.

قلت لها: ويلك مالك؟

قالت: أقتل.

قلت: لم؟

قالت: لحدث أحدثته.

قالت [عائشة]: فأنطلق بها، فضربت عنقها. فكانت عائشة تقول: فوالله ما أنسى عجا منها طيب نفسها، وكثرة ضحكها، وقد عرفت أنها تُقتل^١

فهذه القصة التي وردت على لسان أم المؤمنين عائشة تمجد فعال نساء اليهود وعقائديتهم وعدم رهبتهم من الموت هي حتما من الإسرائيليات التي أدخلت إلى السيرة

١. السيرة ٣ / ٢١٩.

على لسان عائشة، والتي لم يأبه لها رجال الجرح والتعديل، وتساهلوا كثيرا بشأنها رغم أثرها التدميري.

ومثلها قصة اليهودي "الزبير بن باطا" الذي توسط له ثابت بن قيس عند النبي فرد رسول الله عليه ماله وعياله، ولكنه لم يفرح بكل ذلك، وإنما ألتفت إلى ثابت وسأله: (ما فعل الذي كأن وجهه مرآة صينية يترأى فيها عذارى الحي كعب بن سعد؟ قال ثابت: قتل).

قال فما فعل سيد الحاضر والبادي حيي بن أخطب؟

قال: قتل.

قال: فما فعل مقدمنا إذا شددنا وحامينا إذا فررنا عزال بن السموءل؟

قال: قتل.

قال: فما فعل المجلسان يعني بني كعب بن قريظة وبني عمرو بن قريظة؟

قال: ذهبوا، قتلوا.

قال: فإني أسألك يا ثابت بيدي عندك إلا لحقتني بالقوم، فوالله ما في العيش بعد هؤلاء من خير فما أنا بصابر له فتلة دلو ناضح حتى ألقى الأحبة، فقدمه ثابت فضربت عنقه^١

فهذه القصة التي تتغنى بأمجاد اليهود ورجالهم وتمتدح بطولاتهم ووفائهم ورجولتهم وتفضيلهم للموت بعز وشرف على حياة الذل والخنوع، لا تقل غدرا ولؤما عن سابقتها ولا أدري كيف انطلت حقيقتها على كتاب السيرة ورواتها؟

ومنها أيضا قول ابن إسحاق: وكان رسول الله قد أمر بقتل كل من أنبت [أي بلغ وحلم] منهم، في حديثه عن بني قريظة، ثم قال - أرجوهنا الانتباه إلى سلسلة السند في

١. السيرة ٣ / ٢٢٧.

الرواية -: حدثني شعبة بن الحجاج عن عبد الملك بن عمير عن عطية القرظي قال :
(كان رسول الله قد أمر أن يقتل من بني قريظة كل من أنبت منهم، وكنت غلاماً
فوجدوني لم أنبت فخلوا سبيلي)^١، فهذه الرواية مأخوذة عن اليهودي عطية القرظي بعد
أن أسلم، حيث يدعي أن النبي أمر بقتل كل البالغين من اليهود، وهذا الأمر لا يتناسب
أبداً مع ما هو معروف عن النبي في مثل هذه المواقع، فلم يسبق له ﷺ أن قتل
المخالفين من بني النضير، أو يهود خيبر، أو يهود فدك، ولا حتى المشركين من العرب
بهذه الطريقة، فلماذا يقتلهم في هذه الغزوة بالذات بهذا الشكل الإجشائي غير المعهود
منه؟

إن هذا النص والنصوص التي سبقتة، وعشرات النصوص الأخرى التي لم نذكرها
خوف الإطالة يدل دلالة أكيدة على وجود عشرات النصوص التي تحتاج إلى إعادة
تقييم من قبل المختصين، ولا سيما منها الإسرائيلية المكشوفة والتي لا تحتاج إلى جهد
لاكتشافها والتي شوهت وجه كتاب السيرة. ويجب أن نسارع لإعادة تقييم كتاب السيرة
بشكل علمي، فما هو إلا مجموعة روايات وردت على لسان مجموعة من التابعين وتابعي
التابعين، وتعرضت عبر العصور ولا سيما المتقدمة منها، للتحريف والتصحيف والخطأ في
الكتابة والنقل، والدس والتشويه والتلاعب. فذلك قد يكشف لنا حقيقة بعض النقول
التي كانت من أسباب فرقتنا، والتي لا زالت مؤثراتها توقد نار المشاحنة والبغضاء بين
المسلمين. كما يساعدنا في اكتشاف النقول المدسوسة التي يستند إليها المخالفون
لاستنباط كل ما يقدح بالإسلام، وبرسول الإسلام، وبأمة الإسلام

وهناك قصة أخرى من قصص غزوة بني قريظة تقول أنه : (لما انقضى شأن بني
قريظة انفجر بسعد بن معاذ جرحه فمات شهيدا فنزل جبرائيل من جوف الليل معتجرا

بعمامة من إستبرق فقال : يا محمد من هذا الميت الذي فتحت له أبواب السماء وأهتز له عرش الرحمن؟ فقام رسول الله سريعا يجر ثوبه إلى سعد فوجده قد مات^١ فمن المؤكد أن هذه القصة قد جيء بها لمدح سعدا ووضعها في ميزان فضائله وإلا كيف ينزل جبريل مستفسرا من النبي؟ وهل هو حر الحركة ينزل متى يشاء بدون أمر الله الذي جاء في محكم كتابه ﴿تنزل الملائكة والروح فيها بأمر ربهم﴾ فإذا قلنا: نعم هو حر فذلك مناف لمنطوق الآية وإن قلنا: لا هو مقيد ولا ينزل إلا بأمر الله فإن الله يعلم من مات ولا يحتاج إلى إرساله للاستفسار من النبي عن الميت. ومنه نعرف أن عملية صنع الرواية وتسويقها بين الناس لم تكن بالأمر الصعب. فالصعوبة لا تكمن في ذلك، بل في مقدرة هذه النصوص على الصمود كل هذه الفترة وبقائها حاكمة ومتحكمة في عقول وضمائر وعقائد بعض الناس إلى الآن.

قصص زيجات النبي في الغزوات:

سبق وإن قلنا أن المجتمع الإسلامي الأول لم ينجح في فهم آليات عمل النبي التنظيمية والتنظيرية بشكل سليم، ولذلك تكلموا عنه في حياته وبعد مماته تبعا لفهمهم الخاص، وتكلموا عن أعماله أيضا تبعا لفهمهم الخاص وليس لحقيقتها وأسبابها ودوافعها. ومن جزئيات هذا العمل التي خفي عليهم فهم أمرها على حقيقته هو موضوع زيجات النبي المتكررة.

لقد أجاز الله سبحانه لرسوله الزواج بأكثر من حد الأربعة الشرعي، لأن هذا الحد لم يكن قادرا على احتواء كل الحالات التي تغطي كل الأسباب وهي كثيرة منها توفير الدعم المادي للحركة في بداية أمرها.

١. السيرة ٣ / ٢٢٧.

نشر الإسلام في القبائل كما في زواجه من جويرية بن الحارث الذي دفع قومها لاعتناق الإسلام بعد الزواج.

زيادة النمو السكاني لعاصمة الدولة الإسلامية عن طريق الروابط الإثنية والنسبية.

استمالة قلوب القبائل عن طريق هذا التناسب.

دفع شروء بعض الأفراد وبعض القبائل ولو إلى حين.

الإنفاق على عوائل بعض شهداء المسلمين.

تبديل بعض السنن المتوارثة كما في قصة زيد التي ذكرها القرآن.

وكثير من الأمور الخافية الأخرى

يؤيد ذلك ويؤكد نوعية الزوجات التي أختارهن رسول الله فقد بنى بسودة بنت زمعة وهي عجوز كبيرة لا يرغب بها خاطب، وبنى بزينة بنت جحش وعمرها أكثر من خمسين عاما، وبنى من قبل بخديجة وعمرها كما تقول بعض الروايات أكثر من أربعين عاما. كما أنه لم يتزوج بكرا كما تقول بعض الروايات سوى بعائشة، أي أن جميع زيجاته الأخرى كانت بتيات من النساء مما يستبعد أن يكون زواجه منهن لغرض شخصي أو جسمي لإشباع رغبة أو نزوة.

إن تكرار زواج النبي جعل الرواة يطلقون لنزواتهم العنان فاختلفوا في عدد هذه الزيجات حتى قال بعضهم: إن النبي تزوج خمسا وعشرين مرة، وكان في ملك يمينه إحدى وعشرين امرأة، وقال البعض تزوج بخمس وعشرين امرأة، وخطب خمسا وعشرين، وقال البعض تزوج بخمس عشرة امرأة، ومنهم المسعودي الذي قال: (وكان عدة من تزوج من النساء خمس عشرة دخل بإحدى عشرة منهن ولم يدخل بأربع وقبض عليه عن تسع)^١، وقال البعض الآخر تزوج بثلاث عشرة امرأة، غير ما كان في

١. مروج الذهب، جزء ٢، ٢٩٠.

ملك يمينه. وهذا الاختلاف يعود أصله لعدم التدبر في السيرة وفي الأحاديث وفي حركة الدعوة^١

ويجد المتابع لأقوالهم بشأن هذه الزيجات أنها بعيدة كل البعد عن الحقيقة والهدف. وأن بعضها جاء ترضية لهذا الطرف أو ذاك، منها على سبيل المثال قصة زواجه من عائشة حيث أظهرت الروايات أمر هذه الزيجة وكأن نبي الله لم يكن يطيق العيش بدون أمنا عائشة لدرجة أنه سعى أو تأمر مع أبيها لأخذها من خطيبها جبير بن مطعم الذي أصبح فيما بعد زميله ورفيقه في هجرة الطائف، حيث جاء عن أبي مليكة قوله: (إن رسول الله عندما خطب عائشة قال أبو بكر: إني أعطيتها مطعما لابنه جابر فدعني حتى أسلمها منهم)^٢

أما عن قصص زيجاته الأخرى ولاسيما منها زيجاته في الغزوات والسفريات فقد جاءوا بأقوال وآراء ما أنزل الله بها من سلطان تتحدث كلها عن علاقة النبي بالسبايا من النساء وكيف أنه كان يزاحم أصحابه للحصول على هذه السبي أو تلك حتى صاغوا لكل غزوة قصة.

ومن قصص غزوة بني قريظة، قصة "ريحانة بنت عمرو بن خنافة القرظية" التي اصطفاها النبي من بين نساء بني قريظة، وكيف أنه عرض عليها أن يتزوجها ويضرب عليها الحجاب، فقالت: بل أتركني في ملكك فهو أخف عليّ وعليك، فتركها على دينها لأنها كما تقول كتب السيرة رفضت الإسلام وأبت إلا اليهودية. والتي تقول السيرة أيضا أنها (أسلمت بعد حين)^٣ فهل أن النبي أراد الزواج بها حقاً ثم لما رفضت الزواج منه أبقاها في ملك يمينه لكي يتآلف بها قومها من اليهود مثلاً. وهو الذي أمر بقتل كل

١. زوجات النبي، سعيد أيوب، ص ١٧.

٢. طبقات بن سعد ٥٩/٧.

٣. السيرة ٣ / ٢٢٢.

البالغين منهم كما مر قبل قليل؟ أم أنه تزوجها ليقال أنه لا يتزوج إلا بنات الملوك مصداقا لقول عمه العباس لعرب قريش (افتتح محمد خيبر وترك عروسا على بنت ملكهم)^١ ألا تجد في هذا النقل الغريب أن رسول الله كان يسابق الصحابة لإقتناص الجميلات من السبايا بما لا يتناسب مع كل ما نعرفه وما لا نعرفه عنه؟

ومن قصص غزوة بني المصطلق كذلك قصة وقوع "جويرية بنت الحارث" زعيم وقائد بني المصطلق في أسر المسلمين، ووقوعها بعد تقسيم السبي في سهم "ثابت بن قيس" كما يقول ابن إسحاق أوفي سهم ثابت وعبد الله ابن عمر سوية كما يقول ابن سعد، وكيف أنها كاتبته، أو كاتبتهم على نفسها، وكانت امرأة حلوة ملاحه لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه، وكيف أنها جاءت رسول الله تستعينه في كتابتها، فما أن رأتها عائشة على باب حجرتها حتى كرهتها، وعرفت أن النبي سيعجب بجمالها، ثم كيف صدق حكم عائشة على النبي. فالرسول الأكرم ما إن رآها حتى نسي مركزه ورسالته ونسي الدنيا كلها، لأنها أسرته بجمالها الخلاب، الذي لم يقدر على مقاومته، كما تقول السيرة. فقرر الحصول عليها وإن كلفه ذلك سلبها من سهم صاحبها عنوة أو تحت التهديد، حتى قالوا أنه ﷺ بدل أن يساعدها في أمر مكاتبته الذي جاءت من أجله إليه قال لها (فهل لك في خير من ذلك؟

قالت: وما هو يا رسول الله؟

قال: أقضي عنك كتابك وأتزوجك،

قالت: نعم يا رسول الله.

قال: قد فعلت^٢

وهي من المرات العديدة المتكررة التي اتهمت فيها روايات السيرة نبينا الأكرم بأنه

١. السيرة ٣ / ٣٢٠.

٢. السيرة ٣ / ٢٦٩.

كان يتزايد مع أصحابه على ما في أيديهم من نساء السبي ويتسابق معهم عليه بلا خجل أو حياء، لأنه سريع الافتتان. ويهوى الجمال. ويعشق الملاحاة، ولا يصبر على رؤية إحداهن في سهم غيره، حتى أنه لم يكن يلتفت إلى ما يسببه هذا السلوك الجشع من حقد في قلوب الصحابة الذين كان يسلبهم حسناواتهم.

إن قول عائشة (وعرفت أن النبي سيعجب بجمالها) يظهرهم وكأنهم كانوا قد شخصوا هذا العيب الكبير في شخصية رسول الله (حاشاه الله) هذا العيب الذي كان يدفعه للإعجاب بكل جميلة يراها والاندفاع بتهور للحصول عليها مهما كانت ظروفها. ولا يخفى على أحد أن هذا القول وأشباهه هو الذي دفع المستشرقين لإتهام النبي الأكرم بأنه كان ينساق خلف نزواته الجنسية لأنه كان مغرما بكل الجميلات حتى لو كن زوجات لربائبه كما هو قولهم في قصة زواج النبي من امرأة ربيبه زيد. العجيب أن الصحابة الذين نسبت لهم هذه الأقوال غالبا ما كانوا بريئين منها، وهناك أكثر من دليل على براءة أمنا عائشة من هذا القول بالذات، فسياق القصة يبين أنها وقعت بعد عودتهم إلى المدينة بدلالة قولهم (وما أن رأتها عائشة على باب حجرتها) وحجرة عائشة كانت في مسجد النبي في المدينة. وحتى لو كانوا يقصدون بالحجرة: الخيمة، فإن تقسيم السبي والغنائم يقع عادة بعد إحصائها وبعد إنتهاء المعارك كليا، وساعتها سواء قصدوا الخيمة أو الحجرة فإن أم المؤمنين عائشة كانت حينها مشغولة بقصة أكبر وأعظم وأشد خطرا من هذه وهي قصة الإفك، ذلك الأمر الجسيم الذي شغلها عن الدنيا وما فيها. فهل يُعقل أن تنسى هذا الموضوع الكبير بكل المقاييس، وتنشغل بالنظر للسبايا لتعرف أيهن سوف يعشقها النبي؟ وهل أن النبي نسي أمر الإفك والطعن بإحدى نساءه ولم يتأثر بهذه القصة المرعبة بقدر تأثره بجمال جويرية؟

ومع ذلك قال ابن سعد (ويقال جعل صداقها عتق كل أسير من قومها. ويقال

جعل صداقها عتق أربعين من قومها)^١

ومن هذا التهافت الكبير ندرك أن هذه القصص والأقوال والآراء المنسوبة لبعض الصحابة ونساء النبي المحترمات هي من الإسرائيلية ومن فعل الإسرائيليين، أو من فعل بعض رجال دولة الإسلام الذين كانوا يفكرون بعواطفهم وليس بعقولهم، ومن الواجب علينا التصرف مع هذه النقول بعلمية ومسؤولية بعيدا عن أي مواقف وأحكام مسبقة، وتحت أي دافع. وأن لا نبقى جامدين على نصوص فيها إساءة كبيرة للدين وللقيمين عليه.

وعن غزوة خيبر قال كتاب السيرة أن دحية الكلبي طلب السبي "صفية بنت حيي" من رسول الله فأعطاه رسول الله بدلا عنها سيبتين هما ابنتي عمها، لكي يصطفيه لنفسه لأنه أعجب بها، ثم أعرس بها بخيبر أو ببعض الطريق، ولا تزال دماء زوجها وأبيها وأهلها وذويها طرية على وجه أرض المعركة، والنيران ناشبة في ديار أهلها وممتلكاتهم، وأصوات قومها السبايا ترن في أذنيها. وإن الصحابي "خالد بن يزيد" أدرك شعورها، وشعور قومها، وأدرك ما لم يدركه النبي (فتوشح سيفه ووقف يحرس الخيمة التي دخل بها النبي مع صفية، فلما أصبح فرآه قال له: مالك؟ قال: خفتُ عليك من هذه المرأة، وكانت امرأة قد قتلت أباهَا وزوجها وقومها وكانت حديثة عهد بكفر)^٢

ويستوقفني في هذه القصة ما استوقفني في قصة جويرية من قبل. فهي تظهر النبي رجلا مزواجا يبحث عن الجميلات فقط وينازع أصحابه عليهن ويعطي بعض صحابته الذين يزاحمونهم عليهن أكثر من حصتهم الشرعية في القسمة لكي يتركون الجميلات له وحده ولا ينازعوه عليهن. ثم لا يؤجل دخوله عليهن حتى ينسين مصائبهن، وإنما

١. الطبقات ٢ / ٦٤.

٢. السيرة ٣ / ٣١٤.

يدخل عليهن مباشرة قرب مقاتل أعزائهن من الآباء والأزواج دون أن يلتفت لأهمية هذا الجنبه النفسية والأخلاقية المهمة جدا والتي ترفض الأخلاق السوية الإتيان بها، فكيف يعقل صدورها من سيد القيم والأخلاق؟، بل أنه لا يعطيهم حتى فرصة الإستبراء، وهي الفترة القانونية الشرعية للطهارة وإنما يباشرهن حال وضع يده عليهن. وقد تسببت هذه الإسرائيليات المدسوسة في اختلاق كم كبير من الأكاذيب التي روج لها المستشرقون والكتاب الغربيون إعتقادا على هذه الروايات لإتهام النبي الأكرم من خلالها بأسوأ التهم وأشنعها، لدرجة أنهم وصفوا النبي أنه كان مهووس جنسيا!!.

الذي أؤمن به عن يقين أنه لم يصدر عن النبي الأكرم مثل هذا الفعل القاصر، وأن هنالك من صاغه بهذه الصياغة ثم أدخله في السيرة بعد أن وقعت حوادث تجاوز على الشريعة كان أبطالها من الوجوه المعروفة مجتمعا لكي يبرروا هذه الأخطاء عن طريق ربطها بفعل من نسخها منسوب للنبي، فتصبح لمرتكبها عذراً حتى ولو كانت مع سيدة عربية مسلمة مفجوعة.

ثم تعود السيرة لتقول أن "حنش الصنعاني" قال: (إن رويغ بن ثابت الأنصاري قائد جيش المسلمين الذي غزا المغرب خطبهم قائلاً: سمعت رسول الله يقول: لا يحل لإمرئٍ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقي ماء زرع غيره.. ولا يحل لإمرئٍ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يصيب امرأة من السبي قبل أن يستبرئها)^١ فإذا كان هذا هو حكم النبي، بل حكم الإسلام، وحكم الله تعالى في هذه المسألة، فكيف يخالفها النبي ويدخل على سبي يعرف أنها كانت متزوجة، ولا يعطيها فرصة الإستبراء؟ بل يسرع ويقيم عليها بطريق خبير ثلاثة أيام حتى أعرس بها كما يقول البخاري في الحديث الذي

١. السيرة ٣ / ٣٠٦.

أخرجه عن الصحابي أنس بن مالك^١ وهو يعلم أنها صاحبة زوج اسمه كنانة بن الربيع؟ وتقول السيرة عن عمرة القضاء أن النبي تزوج أيضا في سفره ذاك "ميمونة بنت الحارث" (وهو محرم)^٢ ولأن زواج المحرم يخالف الشريعة فقد تعلل محققوا السيرة في هامش الصفحة نفسها بأن الزواج كان يقصد به عقد القران وليس الدخول. وهي واحدة من مئات التعليقات التي يلجأ لها ذووا الاختصاص لتعليل غرابة هذا النقل أو ذاك. عندما يجدون أنه يتعارض مع السنة والكتاب.

والذي أراه أنهم لم يوفقوا هذه المرة لأن ما جاءوا به يتعارض مع أحاديث أخرجهها مسلم والبخاري تقول أن النبي منع الزواج والتزويج في الحج، أي منع الخطبة والدخول والسعي في الزواج أيضا، وهي قاعدة فقهية متداولة. كما ويتعارض حتى مع ما ورد في خواتيم هذه القصة في السيرة ذاتها حيث جاء فيها أن النبي دخل مكة وأقام بها ثلاث ليال فأثاه "حويطب بن عبد العزى" ليخرجه منها لأنه قد انقضى الأجل الذي بينهما فقال النبي: وما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم وصنعنا طعاما فحضرتموه، فقال حويطب: لا حاجة لنا بطعامك. (فخرج وأثاه أبو رافع مولاه بميمونة في السرف وهو موضع قرب التنعيم، أي في حدود مكة، ومنطقة الإحرام، فبنى بها هناك ورجع إلى المدينة)^٣ وعليه أجد أن ما جاء به المحققان في هامش الصفحة في قولهم عن الحرام (وهو حرام: أي محرم أو ما يزال في الحرم. والزواج هنا عقد قران وليس الدخول) كلام مردود لا يعتد به. وقد رصد الأوائل ما أحدثته هذه الزيجة ومنهم المسعودي الذي قال في حديثه عن سنة سبع للهجرة: (وفيها تزوج ميمونة بنت الحارث في سفره حين

١. صحيح البخاري، حديث رقم ٤٢١٢ ص ٧٤٦.

٢. السيرة ٤ / ٧.

٣. السيرة ٤ / ٧.

اعتمر، على ما ذكر من التنازع في نكاحه لها، أفي حال حله نكحها أم في حال إجماعه؟^١

هذه القصة تبدو شديدة الشبه في كثير من جوانبها بقصص زيجات النبي الأخرى سواء زواجه بجويرية بنت الحارث أو بصفية بنت حيي بن أخطب. وهي بالأساس روايات إسرائيلية تحاول تشويه صورة النبي الأكرم، سواء من خلال إظهاره وكأنه مهووس جنسياً، أو من خلال إظهاره وكأنه أول المخالفين للتشريعات التي يسنها. أو من خلال إظهاره وكأنه دكتاتور متسلط يتحكم بالمغانم على هواه فيطلق الأسرى صداقاً لنسائه ويعطي سبيتين وأكثر بدل السببية التي تحوز رضاه. أما كيف انطوت حقيقة هذه الروايات على الاختصاصيين في الحديث والسيرة فذاك موضوع آخر يطول الحديث عنه، بل أن مجرد الحديث بخصوصه قد يغضب جمعا كبيرا من الناس لذا أجد أن من المفروض بالمؤسسات الدينية الإسلامية أن تولي هذا الموضوع عنايتها وتخرج بمحصلة ترضى بها الأمة تمنع غير المسلمين من التطاول على شخص رسول الله بلا سبب.

غزوة بني لحيان:

وقعت هذه الغزوة بعد ستة أشهر من فتح قريظة. خرج فيها النبي إلى بني لحيان يطلب بأصحاب الرجيع فأخطأ القوم فقال للصحابه: (لو أنا هبطنا إلى عسفان لرأى أهل مكة أنا قد جئنا مكة، فخرج بمائتي راكب من أصحابه حتى نزل عسفان ثم كر قافلاً)^٢

وتبدوا هذه الغزوة وكأنها من سنخ تلك الغزوات العبثية كما تحاول السيرة أن

١. مروج الذهب، المسعودي، جزء ٢ ص ٢٩٦.

٢. السيرة ٣ / ٢٥٤.

تصورها، والغزوات العيشية هي مجموعة من الغزوات التي أظهرتها كتب السيرة وكأنها كانت من الأعمال الارتجالية التي يقوم بها النبي دون تخطيط أو إعداد مسبق أو هدف واضح أو غاية محددة وأنها كانت تنتهي عادة بالفشل الذريع أو دون تحقيق أي هدف يذكر.

والذي أراه أن لهذه الغزوة ولاسيما ذلك الجزء منها الذي يتحرك فيه النبي مع مجموعة من الفرسان ليكون قريباً من مكة غاية عظيمة لم يتسنى للرواة إدراكها، يؤكد ذلك حديث الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الذي يقول فيه: (سمعت رسول الله يقول حين وجه راجعاً: آيئون، تائبون إن شاء الله لربنا حامدون، أعوذ بالله من وعشاء السفر [أي مشقته] وكربة المقلب وسوء المنظر في الأهل والمال)^١

لأن الذي أراه أنه ﷺ لم يكن يقصد الإياب إلى المدينة من وراء قوله هذا، وإنما هو عهد قطعه لمكة المكرمة وهو واقف على حدودها في عسفان يبشرها فيه بقرب عودته إليها منتصراً وحامداً لله على النصر، وإنه وأصحابه لن يلقوا في سفر عودتهم إليها مشقة، سواء بسبب طول الطريق، أو المواجهة مع الكفار، لأنهم موعودون بنصر سهل سلمى لا تعب طريق ولا تعب قتال فيه.

غزوة ذي قرد: هجوم مقابل قام به المسلمون (رداً على إغارة عيينة بن حصن على إبل حوامل للنبي بالغابة وفيها امرأة ورجل من بني غفار فقتلوا الرجل واحتملوا المرأة والإبل. وقد وقعت بعد عودة النبي من غزوة بني لحيان)^٢

١. السيرة ٣/ ٢٥٥.

٢. السيرة ٣/ ٢٥٦ - ٢٥٧.

غزوة بني المصطلق:

وقعت هذه الغزوة سنة ست للهجرة بعد شهرين من غزوة ذي قرد حيث بلغ النبي أنهم برئاسة الحارث بن أبي ضرار أبو جويرية التي تزوجها النبي يمحشون الجيوش لحربه (فلما سمع رسول الله بهم خرج اليهم حتى لقيهم على ماء لهم يقال له المريسيع.. فتزاحفت الناس وأقتتلوا فهزم الله بني المصطلق^١ ورغم أن هذه الغزوة هي من الغزوات البسيطة إلا أنها لم تخل من المماحكة، ومنها تلك الرواية التي أظهرت الأنصار من الخزرج وساداتهم وكأنهم حتى هذا التاريخ كانوا لا يزالون يرون أنفسهم أسياد المدينة كما في الخبر الذي يدعي أن سيد الخزرج ابن أبي سلول قال: (أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل) وإن أسيد بن حضير الخزرجي قال لرسول الله معتذرا عن سيده بعد أن وصل الخبر إلى النبي: (يا رسول الله إرفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك، وإن قومه لينظّمون له الخرز ليتوجوه، فإنه يرى أنك قد إستلبته ملكا^٢) كما هرع بعض رجال الخزرج لتكذيب "زيد بن أرقم" الفتى اليافع الذي نقل حديث بن سلول إلى النبي، وتقول كتب السيرة (فقال من حضر رسول الله من الأنصار من أصحابه [أي من الخزرج أصحاب ابن سلول]: يا رسول الله، عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه، ولم يحفظ ما قال الرجل) وتكمل السيرة سرد الخبر قائلة عن سبب قولهم هذا القول للنبي أن القول الذي صدر منهم كان (حدبا على ابن سلول. ودفعنا عنه)^٣

الظاهر من خلال تناول السيرة لتداعيات هذا الخبر أن قول ابن سلول أحدث هياجا بين الناس وتدمرا بين المسلمين بدأ يتضخم بسرعة حتى وصل الأمر إلى درجة

١. السيرة ٣ / ٢٦٤.

٢. السيرة ٣٢٥٣ - ٢٦٦.

٣. المصدر نفسه.

الاحتقان والتهديد بالانشقاق ، وأصبح بحاجة إلى معالجة حكيمة وفورية وعاجلة. هنا برزت الشخصية المتفردة للنبي الأكرم ﷺ الذي سارع بإتخاذ الخطوات اللازمة لتطويق هذه الأزمة الكبير وحلها. وسنلاحظ من طريقة تعامل النبي معها أنه ﷺ كان ملماً بأصول القيادة وفن التعامل السليم مع السلوك الجمعي أي ما يعرف اليوم في علم الاجتماع بـ (سيكولوجية الجماعات والقيادة) وهي أيديولوجية سياسية تتناول الطرق التي يجب أن تُنظَّم بها الجماعات. ومجموعة أساليب مثل العملية الجماعية، والحل الجماعي للمشكلة، وقرار الجماعة^١ ويقول "بونز" عنها: (إنها فرع من علم النفس الاجتماعي، يبحث في تكون، وفي تغير الجماعة، ووظائفها، بحيث تصبح ذاتية التوجيه)^٢ ذلك لأنه يتصل بسلوك الإنسان وعلاقته الإنسانية كما قال أساتذة علم الاجتماع "كارتررايت" و"زاندنر"

فالنبي بعد أن سمع قول ابن سلول أدرك أن التباطؤ وعدم الإسراع بإتخاذ ما يلزم بخصوص هذا الأمر سوف يضخم الموضوع. وقد يدفع بعض المتحمسين من المهاجرين الثوريين لإرتكاب حماقات لا تحمد عقباها ولا سيما وأن هنالك منهم من كان يدعو للإسراع بقتل ابن سلول مثل قول الصحابي عمر بن الخطاب للنبي: (مر به عباد بن بشر فليقتله)^٣.

قرر رسول الله حل هذا الإشكال الكبير وفق منهجية علمية تنقسم إلى عدة مراحل كانت مرحلتها الأولى مرحلة (الإجهاد القسري) أو (الإنهاك) وهي من الطرق الناجعة التي يتبعها عادة الضباط القادة ومدراء المعامل الإنتاجية التي تضم أعدادا كبيرة من

١. ينظر سيكولوجية الجماعات والقيادة ، د. لويس كامل مليكه ، الجزء ١ ص ٣/.

٢. المصدر نفسه ١ / ٤ - ٥.

٣. السيرة ٣ / ٢٦٥.

العمال عندما يصيب جنود القطعة العسكرية أو عمال المعمل نوع من الشد العصبي أو المؤثرات النفسية التي قد تفضي إلى وقوع أعمال شغب أو تخريب نتيجة مؤثر خارجي حيث يلجأون إلى تكثيف التمارين وزيادة ساعاتها أو زيادة ساعات العمل وتفرعاته لفترة محدودة من الزمن كافية لإمتصاص غضبهم نتيجة الإنهاك الجسدي الذي يؤثر على الإنشغال الفكري. وقام النبي في هذه المرحلة بتحريك القطعة العسكرية كلها (جيش المسلمين) وسارع المشي بالناس يومهم ذلك حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح ، وصدر يومهم حتى آذتهم الشمس. ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض ، فوقعوا نياما. (وإنما فعل ذلك رسول الله ليشتغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس من حديث عبد الله بن أبي)^١ وهذا الحل وإن كان يبدو طريقة بسيطة في التفكير إلا أنه على بساطته كان أنجح الحلول الآنية التي ممكن أن تعتمد في مثل هذا الموقف الطارئ. ولا ننسى أن الفيلسوف " ديكارت قال : (إن الطرق المبسطة في التفكير هي عادة وليدة الرقي والتقدم)^٢ ولم يكن يساور النبي أدنى شك برجاحة هذا الحل على سواه ، مع أن الشك قد ينشأ كما يقول " ولبرت مور" من تعقد النماذج الدينامية – المتحركة – أي من عامل خطأ كبير نسبيا بسبب عدد التغيرات غير المقيدة التي يتفاعل بعضها مع بعض.^٣

الثقة الكبيرة بالنفس والتخطيط المحكم ساعد النبي على إمتصاص نقمة وغضب المهاجرين ، والقسم المؤيد لهم من الأنصار (الأوس) والحيرة التي أصابت القسم الآخر من إخوانهم الأنصار (الخزرج) امتصاصا وقتيا ساهم في تهدئة الموقف إستعدادا للمرحلة الثانية.

١. السيرة ٣ / ٢٦٦.

٢. العقدة النفسية ، عباس البلداوي ، ص ٣.

٣. التغير الإجتماعي ، ولبرت مور ، ص ١٢.

قام النبي في المرحلة الثانية بطمأنة عبد الله (الابن) على مصير أبيه ابن سلول حينما جاءه يطلب الإذن بقتله لكي لا يأمر النبي مسلماً آخر بقتله فقال له النبي : (بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا)^١ فكسب حب الإبن من جهة ، وأثار الندم في قلب الأب من جهة أخرى. وقلب كل الذين أيدوه أو سكتوا عنه. فلما سمع الخزرج قول النبي طغى حبه على ولائهم القبلي وأعلنوا الندم.

من ثمار هذه الخطوة أن الخزرج كانوا بعدها إذا ما أحدث عبد الله بن سلول الحدث هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه^٢ وهكذا أثمر التخطيط المحكم بحل هذه المشكلة الكبيرة.

أما النبي فإنه حينما أدرك زوال الخطر قال لعمر بن الخطاب الذي اقترح من قبل قتل ابن سلول : (كيف ترى يا عمر ؟) أي هل ترى كيف حللت المشكلة يا عمر ، ليس عن طريق التسرع والتهور والآليات المفضية إلى نتائج كارثية. ثم قال له : (أما والله لو قتلته يوم قلت لي أقتله لأرعدت له أنف [جمع أنف] لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته).. هنا تقول السيرة أن عمر بن الخطاب اقتنع حينها برأي النبي فقال : (قد والله علمت لأمر رسول الله أعظم بركة من أمري)^٣

واعتقد أن النص الأخير المنسوب لعمر هو إحدى هفوات الرواة الكثيرة التي يسوقونها عادة سوق النعاج بلا فحص أو تدقيق في سبيل اختلاق فضيلة ما ، أو تعليل لقول ما ، حتى لو كان فيها تشكيك بمصداقية أحد صحابة النبي المعروفين. وإلا هل من المعقول أن عمر بن الخطاب كان حتى تلك الساعة من عمر الإسلام غير مدرك لبديهة

١. السيرة ٣ / ٢٦٧.

٢. المصدر نفسه.

٣. السيرة ٣ / ٢٦٧.

أن أمر رسول الله أكبر بركة من أمره ومن أمر جميع صحابته ، بل ومن أمر كل البشر الآخرين؟

ومن قصصها الكبيرة قصة الإفك واتهام أم المؤمنين عائشة زوج الرسول بما لا يجوز ولا يصح عقلا أو شرعا ، وكيف استغلت السن المسلمين هذا الأمر فأكثرُوا فيه القول دون الالتفات لما يصيب النبي من الأذى. حيث كان هنالك رأي "مسطح بن أثاثه" ورأي "حسان بن ثابت" ورأي "حمنة بنت جحش" وغيرهم كما تقول السيرة. مما يؤكد أن بعض المسلمين حتى تلك الساعة لم يكونوا قد فهموا الإسلام على حقيقته ، أو أن هنالك بين المسلمين من كان يعمل على تدمير منظومتهم الحياتية بعمل مدروس بعناية ومخطط له بمكر ودهاء لا يوجد إلا عند اليهود ، أو من تتلمذ على أيديهم. وإن المسلمين لم يكونوا ملتفتين لهذا الأمر ، أو أن وضعهم العام لم يكن يسمح لهم بمتابعته وكشفه على حقيقته ، أو أن هنالك من المسلمين من كان يخطط للاستفادة من تداعيات فعل هؤلاء لدواع دينوية ولذلك كان يتستر عليهم ويساهم معهم في بث دعاياتهم وأقوالهم بين الناس. أو أن هذه القصص لم تكن في حقيقتها كما وصلت إلينا ، وأنها كانت بشكل مختلف. أو أنها لم تحدث أساسا ، ولكن الحراك السياسي الذي رافق بداية تدوين السيرة ، ومن ثم كتابة الحديث هو الذي أوقع التغيير أو أوجدها من العدم ، ليستفيد منها في دعم منهجه السياسي الذي كان بحاجة ماسة إلى مثل هذه القصص ، لتساهم في شرعنة وجوده على رأس السلطة السياسية للإسلام. ولقد وجدت ما يوافق رأيي هذا في أقوال الشيخين اللذين حققا السيرة حيث جاء عنهما قولهما : (غير بعيد أن يكون إتهام حسان بن ثابت رضي الله عنه بالوقوف ضد عائشة رضي الله عنها فرية من أعداء الله على صحابة رسول الله الذين آووه ونصروه ودافعوا عنه بأيديهم وألسنتهم. واتهامهم حسان ليقبلوا من قيمته في نظر المسلمين)^١

١ . السيرة، هامش ٣ / ٢٨١ .

غزوة الحديبية:

وقعت هذه الغزوة أواخر السنة السادسة للهجرة المباركة الموافق لعام ٦٢٨ ميلادية. وأجمعت أقوال الذين شاركوا فيها أن عدد جيش المسلمين الذين شارك فعليا في المسير إليها كان يتراوح ما بين ١٣٠٠ و ١٤٠٠ مسلم، حتى أن الصحابي "البراء بن عازب" قال: إن عددهم زاد على الألف وأربعمائة كما في الحديث الذي أورده عنه البخاري في صحيحه (أنهم كانوا مع رسول الله يوم الحديبية ألفا وأربع مئة أو أكثر)^١ وكذلك الصحابي جابر بن عبد الله كما في حديثه الذي أخرجه البخاري أيضا^٢. أما "عبد الله بن أبي أوفى" فقال: كان أصحاب الشجرة ألف و ثلاث مئة^٣

هذا بالنسبة لكتب الصحاح ورواتها، وأما السيرة ورواتها فتتنزل بالعدد إلى النصف استنادا إلى رواية وردت عن طريق عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم وتقول هذه الرواية: (خرج رسول الله عام الحديبية... وكان الناس سبع مئة رجل)^٤

الذي يهمنا هنا ليس اختلاف العدد فقط بل الأسماء الأخيرة الثلاث التي استقى منها المؤرخون وكتاب السيرة مصادر قصصهم أيضا، تلك القصص التي تختلف عادة عن قصص الآخرين كثيرا، رغم أن حملة هذه الأسماء لم يدركوا عصر البعثة ولم تر أعينهم شيئا من وقائعها، لأنهم حينها لم يكونوا قد بلغوا مرحلة الإدراك، ولا حتى مرحلة الطفولة التي تسمح ببقاء بعض الذكريات المشوشة عالقة في الدماغ، يوم كانت

١. البخاري حديث رقم ٤١٥١ ص ٧٣٧.

٢. المصدر حديث رقم ٤١٥٤ ص ٧٣٧.

٣. المصدر نفسه حديث رقم ٤١٥٥ ص ٧٣٧.

٤. السيرة ٣ / ٢٨٢.

الأحداث تترى على الأرض، وتتصاعد وتيرتها من مكان لآخر من أرض جزيرة العرب. بل سمعوا بأذانهم بعض القصص التي ترك الزمان تأثيراته البالغة عليها بسبب التقادم والرواية الشفاهية التي يتحكم بها عادة منظور الراوي، ومقدار تطويعه للحدث بما يتناسب ومقدار الفائدة التي يجنيها من خلال روايته له، وبالطريقة التي يرتاح إليها شخصيا، أو التي تدفع عنه تبعات ما قام به يومها من فعل أو قول غير مقبول، أو مقدار ما تضيفه من الفضائل على من يحب، والردائل على من يكره، أو مقدار نصرتها لمعتقد الذي يؤمن به، أو حتى طريقة فهمه للواقعة ذاتها التي تختلف عادة من شخص لآخر

وربما لم يتسنى لهذه الأسماء أن تسمع الشيء الكثير، أو ربما أنها لم تسمع أساسا أي شيء بالمرّة، وأن الذي جاءوا به إنما سمعوه في مراحل لاحقة، ولكن حب التشوف والظهور دفعهم لقول ما قالوه ورواية ما روه، ولذلك اختلفوا عن غيرهم بأبسط الأمور، فأنزلوا مثلا العدد إلى النصف، ولربما كانت كل رواياتهم على هذا المنوال من عدم الدقة ولكن الإخباريين وكتاب السيرة أخذوا بها لأن هؤلاء كانوا المصدر الرسمي الوحيد المخول له بالحديث والتصريح لوسائل الإعلام، سواء كانت هناك جهة ما قد عينتهم بمناصبهم هذه، أو أنهم جعلوا من أنفسهم قيمين على قصص حياة النبي وسنته فعينوا أنفسهم في هذه المراكز. المهم أن هؤلاء لم يدركوا من الأحداث شيئا وحتى في طفولتهم كانوا بعيدين عن ساحات الأحداث، لذا لم يعلق في أذهانهم من ذكرياتها شيء بتاتا، حيث قال ابن حجر عن المسور بن مخرمة: (قال يحيى بن بكير: وكان مولده بعد الهجرة بستين)^١ وقال الأثري: (وقبض النبي وهو ابن ثمان سنين)^٢ وقال ابن حجر

١. المعارف لابن قتيبة الدينوري، ص ٤٢٩.

٢. الوجيز في عقيدة السلف الصالح عبد الله بن عبد الحميد الأثري ١٧٤.

عنه أيضا: (وقدم المدينة في ذي الحجة بعد الفتح سنة ثمان وهو غلام أيفع ابن ست سنين)^١ وكذلك حال الآخرين فقد قال الذهبي عن مروان بن الحكم: إنه كان ابن عشر سنين عندما توفي النبي، وكذلك الحال بالنسبة لعروة بن الزبير الذي ولد في سنة ٢٢ هجرية والذي كان يتساق معهم في الرواية والحديث. ولكن هؤلاء وبقدرة قادر تحولوا إلى المصدر الأوحى للأخبار والقصص والروايات التي تغطي تاريخ البعثة كله في طوره المكي والمدني. هذا المصدر المخول الذي كان يجهد نفسه بشدة لمعرفة أسماء خيول المسلمين في كل غزوة ومعركة وسرية وواقعة ثم يذكرها في روايته^٢، ويعرف عدد وأنواع الهدى الذي ساقه معه النبي في مسيره إلى الحديبية^٣ ولكنه يجهل عدد الفرسان مثلا. ولا أدري أيهما أكثر أهمية، معرفة أسماء الخيل، أم معرفة أسماء الفرسان الذين كانوا يركبونها؟

أهم ما في صلح الحديبية أو غزوة الحديبية أن بعض المسلمين المشهورين لم يفهموا حقيقة الصلح والبيعة رغم أن النبي قدم لهم المقدمات في ذلك. ومنها (إن النبي حينما سلك في "ثنية المزار" بركت ناقته، فقال الناس: (خلأت الناقة) أي حرنت قال: ما خلأت وما هو لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة. لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها)^٤ وقبلها التعاهد مع مكة الذي جرى في غزوة بني لحيان والذي أشرنا له من قبل من قوله ﷺ: (أيون تائبون) ولذلك اعترضوا بشدة على المعاهدة والصلح واعتبروه هزيمة وليس نصرا كما كان يبدو

١. الإصابة، ج/ ٣ ص / ١٨٣٨ رقم ٧٩٩٦.

٢. ينظر السيرة في مواقع عديدة منها ٢٥٨/ ٣.

٣. السيرة ٢٨٢ / ٣.

٤. السيرة ٢٨٤ / ٣.

للنبي وباقي الصحابة، وقد ذكرت كتب السيرة أن الصلح لما تم، والتأم الأمر، لم يبق إلا الكتاب فوثب عمر بن الخطاب فأتى أبا بكر فقال: (يا أبا بكر، اليس برسول الله؟

قال: بلى

قال: أولسنا بالمسلمين؟

قال: بلى

قال: أوليسوا بالمشركين؟

قال: بلى

قال: فعلام نعطي الدنية [الدنية: الذل والأمر الحسيس كما في الهامش] في ديننا؟

ثم أتى النبي وقال له مثل ذلك: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ فقال له النبي: أنا عبد الله ورسوله ولن أخالف أمره^١ ثم أن النبي لما قفل راجعا حتى إذا كان بين مكة والمدينة نزلت سورة الفتح ﴿إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويديك صراطا مستقيما﴾ والظاهر أنهم حتى بعد نزول السورة كانوا مصرين على موقفهم ولذلك جاء عمر إلى النبي أو أن بعض الروايات تقول أن النبي هو الذي أرسل إليه وقرأ عليه السورة فقال عمر: (أهو نصر؟، أو أهو فتح يا رسول الله؟)

نستفيد من هذه الواقعة أن اندفاع وثورية وعصبية بعض أتباع النبي كانت تحول بينهم وبين فهم أسس الحراك النبوي القائم على العلمية المطلقة والدعم الإلهي المطلق، بدلالة قوله ﷺ لعمر (أنا عبد الله ورسوله ولن أخالف أمره) الذي يعني أنه كان مأمورا بما يقوم به من سعي لعقد الصلح. وفي بعض الروايات إن بعض من كان مع رسول الله قال له لما قدم مكة: (ألم تقل يا رسول الله أنك تدخل مكة آمناً؟ قال: بلى.

١. السيرة / ٢٩١.

أفقلت لكم من عامي هذا؟ قالوا: لا، قال: فهو كما قال لي جبرائيل عليه السلام ^١ ولذلك كان النبي يسعى بجد لأن ينهي مرحلة التحارب مع قريش بكل الوسائل الممكنة لكي يتفرغ كلياً لتثقيف الأمة على أصول القيادة والحكم، ويفرغهم ليهتموا بشؤون الدعوة، بعد أن كان كل همهم خوض الحروب لصعد الأعداء وتحقيق الانتشار. وحتى هذه اللحظة كان النبي مدركاً أن هنالك عقبتان كبيرتان تقفان عائقا في طريق مشروع الثورة الكبرى، هما عقبة اليهود ومؤامراتهم المستمرة، وعقبة قريش وتهديداتها القائم المستمر. فقرر أن يتجه إلى الأقرب منهما أولاً لكي يجمع كل جهده باتجاه قريش فيما بعد.

أهم ما حققته غزوة الحديبية وصلحها أنها سارعت في تصاعد نسب النمو السكاني في المجتمع الإسلامي عن طريق تكاثر أعداد المنتمين له، ففي خلال سنتين فقط هما الفترة الفاصلة بين الحديبية وفتح مكة تضاعف عدد المسلمين كثيراً، فجاءهم النبي عام الفتح بعشرة آلاف مقاتل مقابل ألف وأربعمائة مقاتل فقط يوم الحديبية، وتقول كتب السيرة: لم يتمكن النبي من جمع هذا العدد إلا بعد أن استنفر العرب ومن حوله من أهل البوادي من الأعراب ليخرجوا معه... (فأبطأ عليه كثير من الأعراب، وخرج رسول الله بمن معه المهاجرين، والأنصار، ومن لحق بهم من العرب) ^٢

غزوة خيبر:

لبث النبي بعد عودته من الحديبية أقل من شهرين في المدينة المنورة، ثم خرج إلى خيبر في أواسط محرم سنة سبع للهجرة الموافق لعام ٦٢٨ ميلادية. وتأتي أهمية خيبر من كونها كانت مقر قيادة اليهود ومقر تجارتهم في يثرب والجزيرة كلها، ومركز اليهود

١. السيرة ٣ / ٣٠٢.

٢. السيرة ٣ / ٣٠٢.

الروحي ، وأساس قوتهم الاقتصادية والدينية. وكانت تضم حصنا رئيسا هو حصن "خير" وحصون أخرى أصغر منه تقع على أطرافه منها حصن "ناعم" وحصن "القموص" وحصن "بني أبي الحقيق" وحصن "الصعب بن معاذ" وحصن "الوطيح" وحصن "السالام" وحصن "الشق" وحصن "نطاة" وحصن "الكتيبة" وحصونا صغيرة أخرى غير هذه. ولذلك ظن اليهود أن حصونهم مانعتهم كما يذكر القرآن الكريم. وقد ابتداء النبي بفتح هذه الحصون الفرعية أولاً قبل التوجه لفتح حصنها الكبير خير لكي يوهن قوة اليهود ويبث فيهم الرعب ويأمن خروج الأعداء منها لمهاجمة مؤخرة جيش المسلمين، (وأصاب منهم سبايا فيهن صفية بنت حيي بن أخطب زوجة كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق فاصطفاهما لنفسه)^١

ولخبر قصص كثيرة منها إن النبي بعد أن إنصرف من خير فكان ببعض الطريق من آخر الليل قال مَنْ رجل يحفظ علينا الفجر لعلنا ننام؟ قال بلال : أنا ، ونزل الناس فناموا ، وأما بلال فانه إستند إلى بعيره فغلبته عينه فنام حتى إرتفعت الشمس ولم يصلوا الصبح. فأمر بلالا أن يؤذن للصلاة فصلى رسول الله بالناس فلما سلم أقبل على الناس فقال : (إذا نسيتم الصلاة فصلوها إذا ذكرتموها)^٢

فهل يعقل أن تشريع قضاء ما بالذمة من صلاة لم يبلغ للمسلمين إلا في هذا الوقت وفي السنة السابعة للهجرة تحديدا؟ وبموجب أي تشريع كانوا يقضون ما بذمتهم من صلاة منذ بداية فرضها وحتى السنة السابعة للهجرة؟ وهل يعني هذا التشريع أن من لا يذكر ما بذمته من صلاة فائتة لا يجب عليه قضاؤها؟

ومن محطات خير وقصصها المهمة قضية فدك هذه القضية الشائكة التي كانت ولا

١. السيرة ٣ / ٣٠٥.

٢. السيرة ٣ / ٣١٤ - ٣١٥.

زالت أحد أسباب فرقة المسلمين، والتي كُتبت فيها وبشأنها مئات البحوث والكتب والروايات التي تدافع عن رأي هذا الطرف، وتفند رأي ذاك على مر التاريخ. فعلى الرغم من أن ابن إسحاق كتب السيرة في القرن الثاني للهجرة، بعد أن تحولت قصة فذك إلى مشكلة عويصة وكثر الكلام بشأنها حتى عم الآفاق بعد أن احتار الحكام بها، فكانوا بين ظالم مصادر لها، أو منصف معيد، إلا أنه لم يتكلم عنها بأكثر من عدة أسطر خلاصتها: (انه بعد فتح خيبر قذف الله الرعب في قلوب أهل فذك فصالحوا النبي على نصفها فكانت لرسول الله خالصة لأنه لم يوجف [أي يجمع] عليها بخيل أو ركاب)^١ وكأنه أراد تجاوز محتتها وعدم تذكير الأمة بقضيتها، بينما نراه في أماكن أخرى يسهب في الحديث عن أمور تافهة فائدة ذكرها مثل عدم ضرر نسيانها، كحديثه عن غنم اليهود التي سرق منها كعب بن عمرو شاتين ليطعم النبي وجيشه^٢ والدواجن التي أعطهاها النبي لابن لقيم العبسي، وقصة أول حيضه حاضتها أم المؤمنين عائشة ووصايا النبي لها بهذا الخصوص، والتي التزمت بها حرفيا حتى بعد وفاته^٣ وقصة الأسود الراعي الذي كان يرعى غنم اليهود فأمرها أن تعود إلى أهلها فعادت إليهم كأن سائقا يسوقها، وأمر الحجاج بن علاط السلمي، ومقاسم خيبر وأموالها^٤ بل ويذكر قصصا وحوارات لأشخاص إنفرد بهم العدو ولا يوجد شاهد عيان لينقل ما دار بينهم وبينه من حديث، كما في قصة "محرز بن نضله" أحد الفرسان الثمانية الذين انطلقوا خلف "عبيدة بن حصن الفزاري" وجماعته الذين أغاروا على لقاح لرسول الله وأخذوها، والذي كان أول

١. السيرة ٣ / ٣٢٧.

٢. السيرة ٣ / ٣١٠.

٣. السيرة ٣ / ٣١٨.

٤. السيرة ٣ / ٣٢٢ - ٣٢٦.

واصل لهم (ثم قال لهم: قفوا يا معشر بني اللكية... وحمل عليه رجل منهم فقتله)^١ حيث كان محرز قبل أن يقتل وحيدا مع الأعداء، فمن نقل حوارهم معهم إلى الرواة لكي يذكرونها في كتبهم؟

ومن قصص كتب السيرة عن خيبر تلك القصة التي تظهر الفروقات الكبيرة بين الرواة في طريقة روايتهم الخبر الواحد، وهي أن النبي قال لـ "عامر بن الأكوع": (انزل يا ابن عامر فخذ لنا من هناتك [أي أشعارك وأخبارك] قال فنزل يرتجز برسول الله، فقال عمر: وجبت والله يا رسول الله [أي الجنة لعامر] لو أمتعتنا به؟ فقتل يوم خيبر شهيدا)^٢ هكذا وردت القصة في كتاب السيرة، بينما نجد البخاري ينقلها في صحيحه بصيغة أخرى يتبين منها أن المسلمين هم الذين اختاروه سائقا، وأن النبي لم يكن يدري من يسوق (فقال رجل من القوم لعامر: يا عامر ألا تسمعنا من هنيئاتك، وكان عامر رجلا شاعرا... فقال رسول الله: من هذا السائق؟ قالوا: عامر بن الأكوع، قال: يرحمه الله، قال رجل من القوم: وجبت يا رسول الله)^٣

الاختلاف بشأن المحرمات والتشريعات:

ومن قصص هذه الغزوة، قصة الاختلاف بشأن المحرمات التي حرمها النبي ولم تذكرها السيرة أو تتطرق إليها، والتي تصلح أيضا أن تكون أمثلة على تعارض الرواة في نقل الحديث الواحد. مثلا نجد أن "زاهر الأسلمي" قد قال في غزوة الحديبية: (إني لأوقد تحت القدور بلحوم الحُمر إذ نادى منادي رسول الله: أن رسول الله ينهاكم عن لحوم

١. السيرة ٣ / ٢٥٨.

٢. السيرة ٣ / ٣٠٣.

٣. صحيح البخاري، حديث ٤١٩٦ ص ٧٤٣.

الحمر)^١ أي أن لحوم الحمر حُرمت سنة ست للهجرة يوم الحديبية، أما البخاري فقد أورد حديثاً آخر نسب التحريم إلى يوم غزوة خيبر سنة سبع للهجرة أي بعد مرور عام على التحريم الأول جاء فيه: (إن النبي قال: ما هذه النيران، على أي شيء توقدون؟ قالوا على لحم، قال على أي لحم؟ قالوا: لحم حمر الإنسية، قال النبي: أهرقوها واكسروها)^٢ وفي رواية أخرى: فنادى منادي النبي: (إن الله ورسوله ينهيانكم عن لحوم الحمر فإنها رجس)^٣ وفي رواية أخرى (إن النبي جاءه جاء فقال: أكلت الحمر، فسكت، ثم أتاه ثانية فسكت ثم أتاه ثالثة فقال: أفنيت الحمر فأمر منادياً: إن الله ورسوله ينهيانكم عن لحوم الحمر الأهلية)^٤

وهنا أسأل عن سبب امتناع المسلمين عن تطبيق أمر المنع الأول الذي صدر قي السنة السادسة يوم الحديبية؟ مما دفع النبي لأن يأمرهم بإراقة اللحم والمرق وكسر القدور التي طبخ بها لحم الحمير؟

هذه الروايات المختلفة إلى حد التعارض تُظهر أن النبي إنما حرم لحم الحمير لأنها رجس بدلالة أمره لهم بإراقة اللحم وكسر القدر، أما الرواية الثانية فتدعي أن حرص بعض الصحابة على الحمير أن تنقرض دفعه للذهاب إلى النبي والإلحاح عليه ليصدر أوامر المنع، الأعجب من ذلك أنهم ذكروا روايات على لسان صحابة آخرين لا يعترضون على الاختلاف الحاصل بين تاريخي أمر التحريم وإنما عن سبب التحريم ذاته، كما في الحديث الذي أخرجه البخاري عن ابن عباس قال: (لا أدري أنهى رسول

١. البخاري. حديث رقم ٤١٧٣ ص ٧٣٩.

٢. البخاري، حديث ٤١٩٦ ص ٧٤٣.

٣. البخاري، حديث ٤١٩٨ ص ٧٤٣.

٤. البخاري حديث ٤١٩٩ ص ٧٤٣.

الله من أجل أنه كان حمولة للناس، فكره أن تذهب حمولتهم أو حرمة يوم خيبر^١ ثم أوردوا روايات أخرى تجيز للمسلمين أكل لحوم الخيول بدل لحوم الحمير.

طريقة تبليغ التشريعات في زمن النبي نجد عنها قصة أخرى حدثت في عمرة القضاء وأوردتها كتب السيرة، يتبين من خلالها وكأن التشريعات الإسلامية لم تكن تبلغ بشكل منتظم للأمم، وأن هنالك قصورا كبيرا في هذه الجنبه المهمة ولاسيما وأن الظاهر أو المفهوم من النقل أن النبي كان يترك للصدفة وحدها طريقة فهم المسلمين للنص وتطبيقه، وكأن هنالك خللا وجهلا كبيرا في طريقة التبليغ، حيث يقول هذا النقل: (فلما دخل رسول الله المسجد... قال رحم الله امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة. ثم أستلم الركن وخرج يهرول ويهرول أصحابه معه حتى إذا وراه البيت منهم وأستلم الركن اليماني مشى حتى يستلم الركن الأسود ثم هرول كذلك ثلاثة أطواف ومشى سائرها. فكان ابن عباس يقول: كان الناس يظنون أنها ليست عليهم وذلك أن رسول الله إنما صنعها لهذا الحي من قريش للذي بلغه عنهم، حتى إذا حج حجة الوداع فلزمها فمضت السنة بها)^٢ ويفهم من النص أن النبي أدى أشواط الحج هذه في أواخر سنة سبع للهجرة في شهر ذي القعدة ولم يؤدها المسلمون بعده لأكثر من سنتين لأنهم كانوا يظنون أنها ليست عليهم أي لا تخصهم، أي أنهم حتى تلك الساعة لا يعرفون إذا ما كانت تشريعا عاما للمسلمين أو استعراضا إرشاديا تعليميا صنعه النبي لهذا الحي من قريش. وأنه لو لم يحج حجة الوداع ويؤديها أمامهم ثانية لما عرفوا أنها سنة، ولا عملوا بها إلى يوم الدين. فهل يعقل أن التشريعات كانت في زمن البعثة تسوق وتبلغ بهذا الشكل؟ لماذا إذا يزعل بعضنا على البعض الآخر ويوجد عليه إذا ما وجد في عقائده بعض الاختلاف؟

١. البخاري حديث ٤٢٢٧ ص ٧٤٧.

٢. السيرة ٤ / ٦.

لقد أوردت هذا التعارض لأنفذ من خلاله إلى مجموعة مواقف أخرى تخص موضوع التشريعات. فالملاحظ أن النبي كما كان يستغل تجمعهم في المسجد ليعيد على مسامعهم التشريعات التي نزلت من قبل، فإنه كان يستغل تجمعهم في الحروب والغزوات للغرض نفسه، ولكن اختلاف مداركهم كان يدفعهم للاعتقاد أنها تشريعات جديدة. كما كان بعضهم يعتقد أن التشريع نزل في تلك الساعة لأنه لم يسمع به من قبل. ومن أمثلة ذلك تحريم لحوم الحمير الأهلية الذي نزل يوم الحديبية وأعاد النبي تذكيرهم به يوم خيبر فأعتقد بعضهم أنه نزل يوم خيبر فقال "عبد الله بن أبي سليط" عن أبيه: (أتانا نهي رسول الله عن أكل لحوم الحمر الإنسية والقدور تفور)^١ وقول "عبد الله بن أبي نجيح" عن مكحول: (إن رسول الله نهاهم يومئذ عن أربع: عن إتيان الحبالى من السبايا، وعن أكل الحمار الأهلي، وعن أكل كل ذي ناب من السباع، وعن بيع المغانم حتى تقسم)^٢ وأما "يزيد بن عبد الله" فقد حدث عن عبادة بن الصامت قال: (نهانا رسول الله يوم خيبر عن أن نبيع أو نبتاع تبر الذهب بالذهب العين، وتبر الفضة بالورق العين، وقال ابتاعوا تبر الذهب بالورق العين وتبر الفضة بالذهب العين)^٣ إلى هنا أكتفي بهذا الموضوع وأعود إلى قصص خيبر.

ومن قصص خيبر قصة عودة جعفر بن أبي طالب وصحابته الذين كانوا معه في الحبشة، إذ عاد جعفر ومن معه بعد أن افتتحوا خيبر (فقبله رسول الله بين عينيه، والتزمه [أي احتضنه] وقال: ما أدري بأيهما أنا أسر، بفتح خيبر، أم بقدوم جعفر؟)^٤ فجعل فرحته بقدوم جعفر تعدل فرحته بفتح خيبر.

١. السيرة ٣ / ٣٠٥.

٢. السيرة ٣ / ٣٠٦.

٣. المصدر نفسه.

٤. السيرة ٣ / ٣٣٢.

إن من ينظر لأمر جعفر ويحلله تبعا للمفاهيم المادية البحتة يجد :

- أنه من أوائل المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة، تلك الهجرة التي تبدوا من خلال نقول السيرة التي مرت علينا وكأنها هروب جماعي من مواجهة عرب قريش المشركة.

- وأنه لم يعد مع الذين عادوا إلى مكة بعد إسلام عمر بن الخطاب ، أو قبل الهجرة إلى يثرب أو بعدها كما عاد غيره من المهاجرين وجاهدوا بين يدي النبي وقتلوا وقتلوا. أي أنه ليس من مهاجري المدينة ولم يشترك في بدر التي غفر الله للمشاركين فيها كل ما بيد منهم حتى ولو كان عملا جاسوسيا على غرار ما قام به حاطب بن أبي بلتعه.

- ولم يكن من الذين صمدوا دفاعا عن النبي في أحد.

- ولم يحضر الأحزاب.

- ولم يبايع تحت الشجرة.

- ولم يحضر أو يشترك بفتح خيبر.

- ولم يعايش نزول الوحي بالتعليمات والتشريعات الإسلامية فبقي جاهلا بها ولا يعرفها. وكأنه أستطاب المكوث في الحبشة بعيدا عن مكة ومشاكلها قبل الهجرة، والمدينة ومشاكلها بعدها.

- بل لم يفكر بالعودة، لا هو ولا جماعته المقيمين معه إلا بعد أن أرسل رسول الله إليهم "عمر بن أمية الضمري" ليعيدهم إلى المدينة، حتى بدت عودتهم وكأنها كانت قسرية.

هذا مجمل ما يمكن أن يعطيه التحليل الموضوعي من نتائج في هذا الشأن، لكن مع ذلك نجد أن النبي رحب به كثيرا وأحتضنه إلى صدره الشريف وقبله وقال له : (لا أدري

بأيهما أفرح أكثر، بقدمك أم بفتح خيبر؟) ولم يقف الأمر عند هذا الحد وإنما تعداه إلى أمر فريد آخر وهو أن النبي أشرك كل من وصل إلى خيبر بعد الفتح بمغانمها (جعفر وجماعته، الدوسيين جماعة أبي هريرة، والأشعرين جماعة أبي موسى الأشعري) إكراما لجعفر. ولم يشرك قبلها أو بعدها أحد في المغانم ما لم يكن قد شارك في الحرب والقتال فعلاً.

أما عند إجراء تحليل عقائدي إيماني روحاني لقصة عودة جعفر وترحيب النبي به بذلك الشكل المميز فإن هكذا فعل لرسول الله لا يمكن أن يصدر إلا إذا كان هنالك أمراً مقابلاً قد صدر من الجانب الثاني، فجاء موقف النبي تكريماً له. وأنه كان من الأهمية والفائدة لدرجة أن النبي قرنه في الأهمية بفتح خيبر، ذلك الفتح الذي يعد الركن الثاني من أركان الانتصار الإسلامي بعد فتح مكة، ولكنك لا تجد في أي نقل في كتب التاريخ أو الصحاح وكتب الحديث الأخرى ولا في كتب السيرة، حتى ولو إشارة بسيطة لذلك ولا حتى مجرد تنويه بسيط يستدل الباحث من خلاله على أسباب الفرح تلك.

بينما نجد من خلال البحث العقلي أن فرح النبي بعودة جعفر والذين معه بهذا الشكل الغريب يعني أن جعفر لم يكن شخصية عادية، عادت من هجرتها بعد طول غياب، وأن هجرتها شغلته فلم تقدم للإسلام مثلما قدم له الآخرون الذين كانوا يحيطون بالنبي كما أرادت كتب السيرة أن تبين، وإلا ما كان النبي قد إهتم به كل ذلك الإهتمام المبالغ فيه، من دون كل المهاجرين العائدين معه، إذ لم يثبت أن النبي احتضن وقبل أحدا منهم غير جعفر. في وقت يثق المسلمون أجمعهم فيه أنه لم يثبت أن النبي الأكرم ﷺ كان من الذين ينحازون لأقربائهم أكثر من غيرهم.

ولذا أجد إن جعفر مظلوم، وأن ظلمه جاء من قبل الرواة أنفسهم الذين غيبوا أخباره قبل عودته إلى المدينة ثم غيبوها وأغفلوا ذكرها من محرم سنة سبع للهجرة وإلى

تاريخ استشهاده في مؤتة أواسط سنة ثمان للهجرة.

هذا في الوقت الذي نعرف فيه أن النبي الأكرم لم يغفل ترجمة حبه لجعفر على أرض الواقع حتى بعد استشهاده، حيث حمل هذا الحب وذهب إلى أسماء بنت عميس زوجة جعفر بعد أن وصله خبر مقتله وقال لها: (ائتيني ببني جعفر، قالت: فأتيته بهم، فتشمهم وذرفت عيناه). حيث لم يثبت أنه صلى الله عليه وآله ذهب إلى أي بيت من بيوت الشهداء الآخرين من قادة المعركة، زيد بن حارثة وعبد الله بن أبي رواح اللذان قادا جيوش مؤتة قبل وبعد جعفر وقتلا فيها. بل أن عائشة قالت: (لما أتى نعي جعفر عرفنا في وجه رسول الله الحزن)^١ ولو كان الحزن قد بدا على وجه النبي يوم مات الآخرون ما كانت السيدة عائشة قد خصت موت جعفر بهذا الحديث.

إن حقيقة جهاد جعفر الطيار التي أراد بعض المسلمين تغييبها تتبين من خلال معرفتنا أنه لم يكن أحد العاطلين الذين يعيشون على هامش الحياة في المنفى، كما هي حال السياسيين المعارضين في الوقت الراهن وإنما كان امتدادا طبيعيا لأبيه وأخيه علي حيث يتبين من نقول كثيرة أخرى أنه لم يختار البقاء في الحبشة وإنما لبث هناك بأمر من رسول الله، مجاهدا في سبيل الله ورسوله، فقد جاء عن معركة بدر الكبرى أن عليا وحمزة احتملا عبدة بن الحارث بعد إصابته إلى النبي وبه رمق فقال للنبي: (أما لو كان عمك حيا لعلم أنني أولى بما قال منه. فقال رسول الله: وأي أعمامي تعني؟ قال عبدة: أبا طالب حيث يقول

كذبتم - وبيت الله نبي محمد ولما نطاعن دونه ونناضل

ونسلمه حتى نصرع حوله ونذل عن أبنائنا والحلائل

فقال رسول الله: أما ترى ابنه الليث العادي بين يدي الله ورسوله، وابنه الآخر في

١. السيرة ٤ / ١٧.

جهاد الله بأرض الحبشة؟^١ حيث قرن رسول الله جهاد جعفر في الحبشة بجهاد أخيه علي في المعركة وهذه المقارنة ترفع مكوث جعفر إلى درجة الجهاد في الحرب بين يدي النبي. والذي أراه أن موضوع حياة وجهاد جعفر الطيار في الحبشة يحتاج إلى تسليط الضوء عليه ودراسته دراسة علمية مستقلة، لكي نعيد لرموزنا الذين ظلمهم التاريخ احترامهم ومكانتهم الحقيقية، ليصبحوا مشاعل نهدي بنورها ونسير على نهجها، ونقتبس من ضوع عطرها ما يضيفي على حياتنا القاسية نوعاً من الرفاه والعز.

ومن قصص خبير الأخرى أن الصحابي الكبير عمر بن الخطاب دخل على إبنته "حفص" زوج النبي وعندها "أسماء بنت عميس" زوجة جعفر بن أبي طالب التي عادت من الحبشة مع زوجها وباقي المهاجرين، ولا يوضح الخبر فيما إذا كانت هذه الحادثة قد وقعت بعد استشهاد جعفر أم قبله، مع أنني أعتقد أنها حدثت بعده لأنها لو حدثت قبله لكانت ذهبت إلى زوجها تشتكي عمراً وليس إلى النبي. فقال عمر بعد دخوله: (من هذه؟

قالت: أسماء بنت عميس.

فقال عمر: الحبشية هذه، البحرية هذه؟

قالت: نعم.

قال: سبقناكم بالهجرة، فنحن أحق برسول الله منكم. [ولا أدري سبب هذا القول، أو دوافعه، ومدى علاقته بعودة جعفر الميمونة، وترحيب النبي به، وفيما إذا كان هذا القول دليلاً على وجود نوع من المنافسة التي تم تغييب أخبار جعفر بسببها، أو شعور بأن بعض الصحابة ظنوا أن لأل أبي طالب حصة بالنبي أكبر من حصصهم] فغضبت وذهبت إلى النبي تشكو عمر.

١. موسوعة التاريخ الإسلامي، مصدر سابق ٢ / ١٢٨.

فقال ﷺ : ليس بأحق بي منكم ، وله ولأصحابه هجرة واحدة ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان^١

فالظاهر أن بعض الصحابة كانوا يرون أنهم أكثر استحقاقا بالنبي من غيرهم ، لأسباب قد تكون مقنعة بالنسبة لهم ، وهي أمور تخص علم النفس ويمكن لعلمائه معرفة دوافعها الحقيقية. ولكن لم يبادر منهم أحد للكتابة في هذا الموضوع الذي تكرر في أكثر من مناسبة ، وأكثر من مكان ، منها السقيفة التي كرر عمر فيها هذا القول في احتجاجه على الأنصار. وأعتقد أن النبي الأكرم كان يعرف دوافع ذلك كما يتبين من حديثه مع أسماء. وكم من مرة جلست مع نفسي أتساءل عن مصداقية هذا الخبر. وعن الدوافع التي تدفع شخصا بمنزلة عمر بن الخطاب للتصرف بهذا الشكل مع امرأة مهاجرة مجاهدة معروفة في المجتمع مثل أسماء بنت عميس زوجة المجاهد الشهيد جعفر بن أبي طالب. ولكن لم يتسن لي أن أكذبه خوف أن يتهموني بالتحريف في كتاب من اصدق الكتب هو سيرة ابن هشام.

ظاهرة الغل:

ومن قصص غزوة خيبر أيضا قصة ظاهرة الغل من فيء المسلمين والذي لم تشر إليه السيرة من قبل حيث تبين أن بعض الصحابة كانوا يختلسون ويسرقون بعض الأغراض والأدوات والملابس من الفيء قبل تقسيمه على المسلمين المشتركين في الفتح ويحزونها لأنفسهم. وأن النبي كان يعلم بذلك ولا يفضحهم ، إلا بعد أن إستوجب الأمر الإعلان عنه. ومنه عن الصحابي أبي هريرة الذي وصل إلى خيبر بعد أن أفتتحها المسلمون قال : (فلما انصرفنا مع رسول الله من خيبر إلى وادي القرى ونزلنا بها أصيلا مع مغرب

١. البخاري حديث ٤٢٣١ ص ٨٤٨.

الشمس، ومع رسول الله غلام له أهده له "رفاعة بن زيد الجذامي" - والظاهر من الحديث أن رفاعة أهدى الغلام إلى النبي في هذه الغزوة نفسها، وإلا كيف عرف أبو هريرة بالأمر لو كان قد حدث قبل ذلك، وهو الذي وصل خيبر بعد الفتح مباشرة - قال: فوالله إنه ليضع رحل رسول الله إذ أتاه سهم غرب [السهم الذي لا يعرف راميه] فأصابه فقتله، فقلنا: هنيئاً له الجنة، فقال رسول الله: كلا والذي نفس محمد بيده، إن شملته الآن لتحترق عليه في النار، كان غلها من فيء المسلمين.. قال: فسمعتها رجل من أصحاب رسول الله فأتاه فقال: يا رسول الله أصبت شراكين لنعلين لي، قال: يقدر لك مثلهما في النار^١ ومع أني أشكك بهذه الرواية على الأقل نتيجة موقف النبي مع الثاني منهما، فهو قد جاء وأعترف ومع ذلك لم يستغفر له مع إنه (صلى الله عليه وعلى آله) كان يطلب الاستغفار للعاصين والمتشددين، هذا في وقت تقول فيه السيرة أن النبي الأكرم ﷺ قال عن سفيره أبي لبابه الذي كاد أن يتسبب بحرب طاحنة: (إنه لو جاءني لاستغفرت له)^٢ إلا أنه لو تم قبول هذه الرواية على سبيل المجاز، فإنها تدل على وجود حالات خيانة بين صفوف الصحابة كان يمكن لها أن تكبر لتصل إلى درجة الاختلاس والفساد المالي والإداري عند من تولى منهم مناصب قيادية أثناء البعثة وبعدها. وأعتقد أن معاشة الخليفة عمر بن الخطاب لهذه الحالات هي التي دفعته أيام خلافته لمراقبة الولاة مراقبة شديدة، وقيامه بعزلهم عند أدنى شك ومنها قصة عزله لأبي هريرة عن إمارة البحرين ومقاسمته ماله معه، لما وجد أن ماله بدأ يتكاثر بشكل غير طبيعي.

١. السيرة ٣ / ٣١٣.

٢. السيرة ٣ / ٢١٥.

عمرة القضاء:

ولكي يديم رسول الله الروابط بين مكة جغرافيا والمشروع الثوري فكريا، قرر بعد ثمانية أشهر قضاها في المدينة بعد فتح خيبر أن يعتمر. لكي يضع قريش وقيادتها أمام الأمر الواقع، فخرج في ذي القعدة معتمرا. وهي العمرة التي أطلقوا عليها إسم "عمرة القضاء" أي قضاء بدل العمرة التي منعه من أدائها يوم الحديبية، ويسمى بعضها بعض الإخباريين: "عمرة القصاص" لأن النبي أقتص بأدائها من المشركين الذين منعه في المرة الأولى^١.

كانت هذه العمرة سنة سبع للهجرة، ووقعها بين تاريخين مهمين هما سنة (٦) للهجرة حين لم يتسنى للنبي الاعتمار وسنة (٨) للهجرة عام الفتح يوضح الأهداف الحقيقية لها، بمعنى أنها لم تكن عمرة قضاء، ولا عمرة قصاص كما يدعون، وإنما كانت

- عمرة تهيئة نفسية للمهاجرين الذين رافقوه في أدائها بأن أحيا في نفوسهم الشوق للوطن الأول.
- وعمرة تهيئة عسكرية للجند الذين سيشاركون في فتح مكة لاحقا.
- وعمرة استكشاف للطريق.
- وعمرة إطلاع مباشر على الوضع العام للبلد الذي يخطط النبي لتحريره من أيدي المشركين.

وأعتقد أن من المجدي للباحثين التفرغ لدراسة هذه الحركة دراسة علمية لأن نتائج الدراسة سوف تثبت الملكة العلمية في الشؤون العسكرية التي كان النبي يمتلكها.

١. السيرة ٤ / ٥.

غزوة مؤتة:

بعد عودة النبي الأكرم من عمرة القضاء التي جمع من خلالها المعلومات المطلوبة، وأتم عن طريقها إكمال تصوراته العسكرية والاجتماعية لكيفية فتح مكة بأيسر الطرق، وأبسطها، وأقلها تكلفة مادية وبشرية، لبث في المدينة ستة أشهر، ثم بعث سنة ثمان للهجرة الموافق لسنة ٦٢٩ ميلادية جيشاً إلى مؤتة في الشام لمقاتلة الروم. ولأول مرة حدد النبي مقدماً أسماء القادة الذين سيتعاقبون على قيادة الجيش حتى قبل أن يتحركوا، حيث قال لهم: (إن أصيب زيد بن حارثة، فجعفر بن أبي طالب على الناس، فإن أصيب جعفر، فعبد الله بن أبي رواحه على الناس، فإن قتل فليتربص المسلمون برجل من بينهم يجعلونه عليهم)^١ وكأنه كان يعرف عن يقين سير أحداثها ونتائجها... بل ورد في السيرة ما يؤكد أنه كان يعرف نتائجها مقدماً، وكان يرى سير المعارك فيها وكأنه يشاهدها على شاشة تلفزيون وكان ينقل وقائعها للمسلمين أولاً بأول فيقول: (أخذ الراية زيد بن حارثة فقاتل بها حتى قتل شهيداً ثم أخذها جعفر فقاتل حتى قتل شهيداً)^٢

هذه المقدرة الإعجازية الفريدة التي تكرر وقوعها من النبي مرات عديدة، منها إخبار المسلمين في المدينة بموت ملك الحبشة في ساعة موته، وعشرات الحوادث الغيبية الأخرى، تحتاج أيضاً من علماء الباراسيكولوجي وعلماء النفس، أن يهتموا بشأنها ويكشفوا حقائقها للمسلمين المعاصرين وغيرهم، لكي يزدادوا يقيناً.

كان عدد جنود المسلمين في معركة مؤتة بمحدود ثلاثة آلاف مقاتل، مقابل جيش

١. السيرة ٤ / ٩.

٢. السيرة ٤ / ١٦.

الروم الجرار ومن يؤازرهم من العرب وغيرهم الذين كان عددهم يزيد على المائتي ألف منهم مائة ألف من جنود الروم بقيادة هرقل ، ومائة ألف مقاتل من المرتزقة العرب من قبائل "لخم" و"جذام" و"القين" و"بهراء" ^١ وانتهت المعركة بانكسار المسلمين وعودتهم إلى المدينة.. وعند وصول جيش المسلمين المنسحب من المعركة الخاسرة إلى المدينة أستقبلهم أهلها بالتراب يحثوه على رؤوسهم ويقولون: (يا فرار، فررتم في سبيل الله، فيقول رسول الله: ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله تعالى) ^٢

العجيب هنا أن المسلمين لم يأخذوا بقول رسول الله عنهم (ولكنهم الكرار إن شاء الله) فقد جاء في السيرة إن أم المؤمنين أم سلمة قالت لامرأة سلمة بن هشام: (ما لي لا أرى سلمة يحضر الصلاة مع رسول الله ومع المسلمين؟ قالت: والله ما يستطيع أن يخرج، كلما خرج صاح الناس: يا فرار، فررتم في سبيل الله، حتى قعد في بيته فما يخرج) ^٣.

عموماً أجد أن هذه المعركة لم تحض بتحليل موضوعي ولاسيما وأنها تبدو ظاهراً من سنخ تلك المعارك العبثية التي تكلمنا عنها سابقاً، لذا أجد أنها تحتاج إلى عناية خاصة وببحث علمي دقيق لعلنا نكشف بعض أسرارها، فلربما أرادها النبي حجة لتسيير جيش آخر في المستقبل القريب يضم وجوه الصحابة وشيوخهم عسى أن تتحقق أمنيته الكبرى التي يعرف أنها لن تتحقق. ولكنها ستكون حجة وإحتجاجاً بدليل قوله (ولكنهم الكرار إن شاء الله).

ثم إن مشاركة مائة ألف من العرب إلى جانب الروم في التصدي لأقوام عربية

١. السيرة ٤ / ١١.

٢. السيرة ٤ / ١٩.

٣. السيرة ٤ / ١٩.

مثلهم بتلك الروح العدوانية والشراسة المفرطة كان يعني أن أمام النبي مشكلة كبيرة جداً، فهناك الألوف من أبناء عمومته لا زالوا بعيدين عن إخوانهم، وبعيدون عن الدين، وثمة طرق مهمة ممكن لها أن تحفز فيهم روح النخوة، وتدفعهم للتساؤل عن الدوافع التي دفعت المسلمين العرب لقطع كل هذه المسافة لحرب الروم. وربما يعني هذا أن النبي أراد أن يرسل لهم رسالة روحية تدعوهم للإسلام. ولا سيما وأنه يعرف أن ما لديه من وقت لا يكفي لاستعمال الطرائق الروتينية الأخرى.

فقط أقول أنه ومن خلال تعامل المسلمين مع الجيش العائد منكسراً من أرض المعركة، يتضح لنا أنه حتى ذلك التاريخ كان الكثير من الصحابة لا يعرفون حقيقة وجدية المشروع النبوي، ولا يدرون بماذا يفكر النبي وإلام يسعى. إن رسالة النبي أرادت أن تقول للجميع في كل عصر وزمان: إن المشروع العظيم لن ينتصر على الشر في العالم إلا إذا توحد العرب معدن الإسلام وجوهره. وعلى تلك القبائل التي تقاتل إخوانها بمعية الروم وتنصر الروم والفرس ضد أخوانهم العرب أن تلتحق بجيش الإسلام لكي يتحقق السلام في العالم، وتتحقق وحدة الأمة التي كان النبي يجاهد باستماتة لتحقيقها.

فتح مكة:

الذي أراه أنه حتى تلك الساعة من عمر البعثة المشرفة كان المسلمون عامة والرواة خاصة لا يرون إلا جزء الحقيقة الواقع أمام أنظارهم فقط. أما وجوها الأخرى فلا يعرفون عنها شيئاً. بل هم لم يدركوا حتى حقيقة الصورة التي يحتويها القسم الواقع أمامهم بنفس الدرجة والمقدار. ولذا اعتقد أنهم لم يفهموا الغاية التي كان يبتغيها النبي من وراء سعيه الحثيث لفتح مكة المكرمة. فكانوا يرون أن سبب المسير إلى مكة لفتحها إنما كان لأن شحناء كانت قائمة قبل الإسلام بين قبيلتي بكر وخزاعة، ثم لما انضمت

بكر إلى قريش بالتعاقد معها بعد صلح الحديبية، وانضمت خزاعة إلى النبي فعاهدت رسول الله تجددت تلك الشحنة، ثم أن بكر وبدعم من قريش حليفاتها تظاهروا على خزاعة ونقضوا العهد، فجاء عمرو بن سالم الخزاعي إلى النبي يطلب نصرته، وكان ذلك مما هاج فتح مكة فقال النبي: (نصرت يا عمر بن سالم) ^١.

هكذا يصورون فتح مكة. وبهذه البساطة ينظرون للأمور ويستخلصون النتائج حيث يستدلون على كل حدث بحدث من سنخه بعيدا عن كل المؤثرات الأخرى، وبعيدا كل البعد عن حقيقة المشروع النبوي العظيم.

أما واقعا فإن النبي الأكرم وبعد عشرين عاما من عمر البعثة، وانتشار تأثيرات الفكر الإسلامي داخل المجتمع المكي، بل وداخل البيوت المكية، أدرك أن ذلك أوقع تناشزا اجتماعيا بين العادات والتقاليد الموروثة القائمة، وبين الفكر الديني الجديد الذي بدأت مؤثراته تظهر في المجتمع، مما سيسهل على مجتمع مكة تقبل الطروحات الجديدة جراء هذا التناشز، على خلاف ما كانت عليه في الفترة السابقة.

ولذلك فإن فتح مكة كان يعني خاتمة للصراع والحراك المتعب المضني الذي شغل النبي على مدى ثمان سنين من عمر البعثة في طورها المدني، هذا العمر الذي يعلم النبي مبتدأه ومنتهاه، وإنه يأتي في أهم مرحلة من مراحل التاريخ وهي مرحلة البناء الحقيقي للأمة، ذلك البناء الذي شارف على الانتهاء.

لذا قرر النبي سنة ثمان للهجرة الموافق لسنة ٦٢٩ ميلادية أن يُنْقِذَ أهم مراحل المشروع بفتح مكة. فدخلها منتصرا في العشرين من رمضان.

وكان الفتح بداية نشوء القوة الحقيقية للإسلام، ولا سيما وأن المسلمين دخلوها بلا قتال، كما كان يحب النبي أن يكون، بإستثناء ما كاد يقع بسبب تسرع خالد بن الوليد

١. السيرة ٤ / ٣٠.

بالتصدي لبعض القرشيين الذين هاجموا الجيش الإسلامي، وما كاد يقع بسبب زعم (بعض أهل العلم) أن سعد بن عبادة حينما دخلها حاملا الراية قال: (اليوم يوم الملحمة، اليوم تسبى الحرمه، فسمعها عمر بن الخطاب فنقلها إلى النبي قائلا: ما نأمن أن يكون له في قريش صولة. فقال النبي لعلي بن أبي طالب: أدركه فخذ الراية منه فكن أنت من يدخل بها)^١ وأعتقد أن سعدا أكبر من هذا وعمر أكبر من هذا، وأن الصحابة الكرام ما كانوا يقدمون غالبا على أمر - خصوصا في الحرب - إلا بأمر من النبي، وأن هذا التواثق لم يحصل بالأساس، ولكنه أستحدث، وأضيف إلى السيرة بعد الخلاف الذي وقع بين الرجلين في سقيفة بني ساعدة، ذلك الخلاف الذي أفضى إلى القطيعة بينهما، ليكون هذا الاستحداث مقدحة للأول ومنقبة للثاني.

التوظيف التخصصي:

قد يعترض معترض بالقول: أن الحادثة الأولى التي كان بطلها خالد بن الوليد، الذي دخل من "الليط" أسفل مكة وقتل ثلاثة عشر رجلا من قريش ممن كانوا تحت قيادة "عكرمة بن أبي جهل"^٢ تؤكد أن ذلك كان ممكنا، فأقول: من المعروف أن النبي كان قد عهد إلى أمراء جيش المسلمين أن لا يقاتلوا إلا من قاتلهم، وأن هؤلاء حسب بعض الروايات تحركوا لقتال المسلمين فقاتلهم خالد وقتلهم، ثم أن خالد كان بالأساس صاحب رأي خاص يختلف عن باقي الآراء، وأنه تصرف بهذا الأسلوب تبعا لطريقته في الحياة حيث كررها مع "بني جذيمة" يوم أرسل رسول الله السرايا تدعوا المقيمين حول مكة إلى الله بعد الفتح، وأنه أمرهم كذلك أن لا يقاتلوا، وتقول كتب السيرة (إن النبي

١. السيرة ٤ / ٤١ - ٤٢ .

٢. السيرة ٤ / ٤٣ .

بعثه إلى أسفل تهامة داعيا ولم يبعثه مقاتلا^١ وبسبب سوء فهم ربما كان مقصودا كما سيتضح من روايات السيرة سببه أن بني جذيمة حملوا سلاحهم لما رأوا الجيش قادما، لأنهم لم يعرفوا نية الجموع المتجهة نحوهم مشرعة أسلحتها، ومع ذلك نراهم ما إن أمرهم خالد بوضع سلاحهم حتى وضعوا السلاح وأسلموا.

وكان المفروض أن تنتهي المشكلة عند هذا الحد، لكن السيرة تقول: إن خالد أمر بهم فكتفوا ثم عرض عليهم السيف، فقتل منهم من قتل، وقتل جيشه أسراهم بأجمعهم بعد إسلامهم، فلما وصل الخبر إلى رسول الله رفع يديه إلى السماء وقال: اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد، ثم دعا النبي عليا بن أبي طالب فقال: يا علي أخرج إلى هؤلاء القوم فانظر في أمرهم، وأجعل أمر الجاهلية تحت قدميك، ثم قام رسول الله فاستقبل القبلة قائما شاهرا سيفه يقول: (اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد ثلاث مرات)^٢

من خلال النصوص الواردة في كتب السيرة يتضح أن مذبحه بني جذيمة المسلمين على يد جيش المسلمين كانت لها علاقة وثيقة برواسب الجاهلية في نفوس بعض الصحابة، بدليلين قاطعين لا يقبلان التأويل:

الأول: قول النبي لعلي حينما أرسله لترضية بني جذيمة، ودفع ديات القتلى منهم (وأجعل أمر الجاهلية تحت قدميك) بمعنى أن النبي كان يعرف عن يقين أن دوافع هذا الفعل هي دوافع الرواسب الجاهلية بسبب تأخر إسلام البعض، وما رافق هذا التأخير من تأخر إدراك تعاليم الإسلام كلها.

والثاني: أوردته كتب السيرة أيضا وفيه: (إن الصحابي عبد الرحمن بن عوف قال

١. السيرة ٤ / ٦١.

٢. السيرة ٤ / ٦٣.

لخالد: عملت بأمر الجاهلية في الإسلام؟

فقال خالد: تأرت لأبيك

فقال ابن عوف: كذبت فلقد قتلتُ أنا قاتل أبي، ولكنك تأرت لعمك الفاكه بن

المغيرة.

فلما سمع رسول الله ذلك قال: مهلا يا خالد دع عنك أصحابي فوالله لو كان أحد ذهباً ثم أنفقت في سبيل الله ما أدركت غدوة رجل من أصحابي ولا روحته^١ أما قصة هذا الثار الجاهلي الذي أضمره خالد في نفسه إلى أن حانت له الفرصة المناسبة للانتقام به من قوم عزل أعلنوا إسلامهم تَوّاً، ذلك الإعلان الذي يفترض به أن يعصم دمائهم وأموالهم، فهي قصة قديمة سبق وأن إتفقت العشائر على حلها، بل وحلّتها فعلاً، وهي أن الفاكه بن المغيرة عم خالد بن الوليد. وعفان بن أبي العاص وابنه عثمان بن عفان، وعوف أبو عبد الرحمن ومعه ابنه عبد الرحمن، خرجوا تجاراً إلى اليمن، وعند عودتهم ووصولهم إلى أرض بني جذيمة خرج اليهم خالد بن هشام وجماعته من بني جذيمة، على العادة التي كانت متبعة بين العشائر في الغزو والسلب وقطع الطرق، فقتلوا الفاكه عم خالد، وعوف أبو عبد الرحمن وأصابوا مالهما ونجا الباقون ومالهم. وكان عبد الرحمن قد قتل خالداً قاتل أبيه أي أنه أخذ بثأره، ولم يعد بحاجة لمن يأخذ له ثأره بالنيابة. ولما كادت الحرب أن تنشب بين قريش وبني جذيمة نتيجة هذا العدوان، أدت جذيمة دم ومال المقتولين، وقبلت قريش الدية^٢ والمفروض تبعا للأعراف العشائرية التي كانت سائدة والتي لا زال معمولاً بها إلى الآن أن المسألة إنتهت، عن طريق الفصل العشائري عند هذه النقطة. ولم يعد هنالك من ثار بين

١. السيرة ٤٦٣ - ٤٦٤.

٢. السيرة ٤ / ٦٤.

العشيرتين. لكن خالد كان حتى هذه اللحظة يطالب بثأره وهو ما دفعه لقتلهم. الغريب في هذه المسألة أن البعض يعتبرها عملاً جاهلياً مرفوضاً كان على خالد أن لا يقوم به، ويعتبرها البعض الآخر عملاً بطولياً رضي به النبي بدلالة أنه لم يعزل خالد عن القيادة بعده، وأمر علياً بدفع دية المقتولين من بيت المال.

وأجد أن كلا الرأيين ينبعان من مواقف وأحكام مسبقة متأثرة بالحركات السياسية والخلافات العقائدية والفكرية والإرثية، وأنها تنظر للأمر من جهة واحدة. هذه النظرة الضيقة التي كانت سبب الكثير من الإشكالات بين المكونات الدينية منذ الأزل، فلو كانت نظرنا أوسع وأكبر من ذلك لتجاوزنا الكثير من الخلافات التي إعتدنا أن نحكم بها ولاءاتنا وليس عقولنا كما يفعل الآخرون، ولو قدر لنا أن نتبع الطرق العلمية لحلها لعرفنا أن الجماعة تستطيع أن تصل إلى مستوى أعلى من الكفاءة إذا ركزت وظائف القيادة في أدوار قليلة^١ وأن النبي كان مدركاً لهذا الأمر ولذلك ركز على شخصيات معينة كانت تملك دافعاً فطرياً للقيادة وأوكل لها المهام التي تناسب قدراتها لأنه تفهم الروح النزاعية المغامرة التي يحملونها عسى أن يساهموا من خلال هذا الاندفاع في تسريع إنجاز المهام، مع توقع قيامهم بأعمال متهورة، ولذلك ترى خالداً قد تصدى لقيادة جيش المسلمين المهزوم في مؤتة بعد مقتل قاداته الذين نصبهم النبي ونجح في سحبه من أرض المعركة وعاد به إلى المدينة، ومع أن المطلبي يقول: (إن الناس هم الذين اختاروه للإمرة)^٢ إلا أنني أجد هذا الأمر بعيداً عن الحقيقة بسبب الحالة النفسية التي كانوا يكابدونها آنذاك جراء الهزيمة وإحاطة قوات العدو البالغة أكثر من مائتي ألف مقاتل بهم من كل الجهات، والضياع الذي كانوا يشعرون به بعد مقتل قادتهم الواحد

١. ينظر سيكولوجية الجماعات، لويس كامل مليكه، الجزء ١ / ص ٤١.

٢. السيرة ٤ / ٢٠.

تلو الآخر وهم في هذا الخطر الداهم ومن دون قيادة ويحتاجون فعلاً لقيادة ولكنهم يخشون التصدي لها، ولذلك تطوع خالد وقادهم ليس للعودة لقتال العدو بل للانسحاب بعيداً عنه،

أي أن التقسيم الوظيفي وحده وليس أي دافع تفاضلي آخر هو ما كان يستوجب تولي هؤلاء الأشخاص لهذه الأدوار لأنه لا تقوم أي جماعة لفترة من الزمن دون أن تنظم أعضائها في وظائف متدرجة، ويقوم كل عضو من أعضاء الجماعة بدور يحمل معه وظائف معينة^١ ومع تأكيد النبي على الجانب العقائدي وسعيه الحثيث لتطوير القدرات الفكرية للمجتمع، فهو كذلك لم يكن يرغب أن يبقى الدين معزولاً في الرقعة الجغرافية البثرية، ولذلك خصص جماعة من الصحابة الكرام للإهتمام بالعلوم الدينية حيث كانت تأخذ على عاتقها تثقيف الأمة عقائدياً، كما خصص جماعة أخرى للإهتمام بالحروب والعمليات العسكرية، وخالد كان من هذا الصنف الذي كان يتواءم مع طبيعته وقدراته الفكرية والجسدية، ولذلك لا تجد له في كتب الصحاح كلها حديثاً واحداً يرويه عن النبي، رغم أنه أسلم مع عمرو بن العاص سنة ثمان للهجرة قبل فتح مكة^٢، بينما تجده أحد المشاركين بكثرة في المعارك الإسلامية حتى في فترة ما بعد البعثة، وتجده على نفس الدرجة من التهور في الكثير منها، مثل قصته المعروفة مع مالك بن نويرة - رحمه الله - وبالمقابل كان النبي دائم التوجيه والإرشاد له عسى أن يصلح بعض تطرفه غير المحمود، ففي غزوة حنين مر رسول الله بامرأة وقد قتلها خالد بن الوليد (فقال: ما هذا؟ قالوا امرأة قتلها خالد بن الوليد، فقال رسول الله لبعض من معه: أدرك خالد فقل له أن رسول الله ينهك أن تقتل وليداً أو امرأة أو عسفاً [أي عبداً])^٣ وحنين

١. المصدر نفسه، ١ / ٤١.

٢. السيرة ٣ / ٢٥٢.

٣. السيرة ٤ / ٨٨.

وقعت بعد الفتح في أواخر السنة الثامنة للهجرة فهل من المعقول أن خالد لم يعرف من قبل أن النبي ينهى عن قتل هؤلاء؟ أم أن تمرده هو الذي يطغى على نوازه الأخرى فيجعله لا يلتزم بالأوامر و يتمرد عليها، مما يجعله محتاجا باستمرار لمن يذكره بها؟

إن المشكلة لا تكمن في طريقة التوظيف التخصصي التي اتبعها النبي للإستفادة من خصوصياتها وإنما تكمن في العقول التي لم تفهم حقيقة هذا العمل الرائع، ولذلك اعتبرت هذا التوظيف من أسس التقييم والمكانة، فادعت لشاغلي هذه الوظائف فضائل غريبة، وأعطتهم درجات عالية في التقييم العام لم يكونوا يستحقونها بالتأكيد. أو أنها أستغلت هذا التوظيف في حراكها السياسي لخداع العامة من الناس. وقد نجحت في ذلك. ومن قصص الفتح أيضا ما ورد في كتب السيرة من أن العباس بن عبد المطلب عم النبي لقي رسول الله بالجحفة مهاجرا إليه بعياله، وقد كان قبل ذلك مقيما بمكة على سقايته ورسول الله عنه راض. ثم يضيف ابن هشام: (وكان العباس بن عبد المطلب حمل فاطمة وأم كلثوم أبنتي رسول الله من مكة يريد بهما المدينة)^١ بينما نحن جميعا نعلم أن علي بن أبي طالب خرج بالفواطم وفيهن فاطمة الزهراء من مكة مهاجرا إلى المدينة بعد خروج النبي منها بثلاثة أيام. وأم كلثوم هاجرت مع زوجها عثمان بن عفان، فمن أين جاءتا إلى مكة ثانية ليحملهما العباس معه؟

ومن قصص الفتح أيضا أن الأنصار كانوا حتى تلك الساعة يظنون أن النبي مفارقهم وأنه سيبقى في مكة إذا افتتحها، وحينما علم رسول الله بأمرهم قال لهم مطمئناً: (معاذ الله، المحيا محياكم والممات مماتكم)^٢ إذا أين كانوا من الأحكام التي وضعها بشأن الهجرة ومنع التعرب حتى ذلك الوقت؟

١. السيرة ٤ / ٤٥.

٢. السيرة ٤ / ٥١.

إن فتح مكة كان أحد أسرار الرسالة العظمى، وكان نقلة مهمة في التاريخ الإسلامي عامة وتاريخ البعثة خاصة، فالذهاب إلى مكة لفتحها لم يكن تحقيق رغبة بالعودة إلى الوطن الأم، ولا حلما بالسيطرة على تجارتها ومكاسبها المادية، ولا لم شمل المهاجرين بأهاليهم وأقربائهم الأقدمين.

أهل مكة القرشيين كانوا العدو الأكثر قوة وتمرداً وعصيانا ورفضاً للدين الجديد. وكانوا يرون فيه الخطر الحقيقي الذي سيقوض مراكزهم الاجتماعية والسياسية الإقتصادية والدينية. لذلك كانوا يزدادون تطرفاً وعداءً مع مرور الأيام. يدعمهم في ذلك إعدادهم العسكري الجيد، والتمويل الأجود، والتجارة الرائجة، واتفاق الكلمة على حرب الإسلام، ولذلك كانوا يمارسون ضده الحرب الباردة أيضاً. أي أن مكة كانت يومها عاصمة الشرك ومركز العدوان، وتمتلك مقومات شن الحرب، وإدامة زخم المعارك والمطاوله، والعودة مرة وأخرى، إذا ما فشلت إحدى تجاربها الحربية، وعليه كانت تنتقل من بدر إلى أحد إلى الخندق بلا كلل أو ملل، فهي بعد أن خسرت يوم بدر عادت يوم أحد أقوى لتنتقم، وهكذا. وفي يوم الفتح دخلها رسول الله بسهولة غريبة ويسر أغرب، تنسبه كتب السيرة إلى عنصر المباغته لا أكثر. ويوم غادرها النبي ترك عليها "عتاب بن أسيد" المكي أميراً بحاشية من المكين أنفسهم، ولم يترك عليها أحد المسلمين الأوائل من المهاجرين، أو أحد الأنصار المخلصين، مع أن عتاب هذا الشاب العشريني حمد الله من قبل لأن أبوه أسيد مات قبل أن يُصطدم برؤية جيوش المسلمين تحتلها، أو يسمع الآذان للصلاة في أرجائها. كما لم يترك الرسول الأكرم فيها قوة عسكرية لحفظ الأمن والنظام، أو قوات تدخل سريع لضرب أي انتفاضة قد يقوم بها أهلها. ومع ذلك لم يرد أهلها ولم يثوروا على أميرهم، ولم يجمعوا جيشاً جديداً لحرب النبي، وإنما بقيت مسلمة ومسألة فأى سر كبير هذا؟

ولو فرضنا جدلاً أنهم أخذوا على حين غرة، وأخذتهم المباغته فاستسلموا لها وخنعوا من دون حول أو قوة، فرضخوا للأمر الواقع مؤقتاً وعدوا ذلك من خدع الحرب وهم أدري بالحروب وخدعها من غيرهم وأعرف، فلماذا لم يرجعوا بعده كفاراً؟ لماذا أقاموا على إسلامهم؟ هل لأنهم كانوا مجبرين على اتخاذ ذلك الموقف العدائي من الإسلام؟ أم أنهم كانوا يرغبون باعتماد الإسلام ولكن المكابرة كانت تمنعهم من ذلك؟ أم أنهم بعد كل تلك المواقف العدائية وجدوا أنفسهم في ورطة وكانوا يبحثون عن مخرج يحفظ لهم ماء وجوههم فجاء الفتح لإنقاذهم؟.

الفتح نفسه هل كان بسبب المباغته والقوة القتالية الكبيرة التي جاء بها المسلمون، والتي لا قبل لقريش بها لأنها أكبر من طاقتهم؟ أم أن النبي كان قد افتتحها بقوته الأخلاقية ومبادئه السامية العالية حتى قبل أن تدخلها قواته العسكرية؟

نداء الرسول الأكرم: من دخل بيت الله فهو آمن، ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل بيته ولم يخرج فهو آمن، ماذا يعني وماذا كانت نتائجه ومحصلاته؟ هل كانت تكريماً وتفضيلاً لهذه الأماكن دون سواها أم أنه ﷺ كان أحرص على أهل مكة منهم على أنفسهم؟

أوامر النبي لقادة جنده أن لا يقاتلوا أهل مكة، وأن يدفعوا القتال ما استطاعوا وأن يحفظوا لأهل مكة كرامتهم، ماذا تعني؟ هل يعني ذلك أنه كان متحيزاً لقومه وأهله القرشيين الذين أذاقوه المر من قبل؟ أم أنه كان ينظر لمكة ولأهل مكة نظرة تختلف عن نظره لأهل الطائف، لثقيف، لهوازن، وحتى للأعراب المحيطين بمكة والقريين منها؟ وهل هي العنصرية القبلية أم هي شيء أكبر من ذلك بكثير؟

عدم استعادة بيوت المسلمين المهجرين من مكة قسراً لإعادتها لأصحابها رغم أن ذلك حق مشروع ومن المتعارفات الدينية والاجتماعية، ماذا كان يعني، وأي سر منع النبي

من فعل ذلك؟ لماذا أبقاها بيد القرشيين الذين استولوا عليها عنوة، والمسلمون أنفسهم أصحاب الحق الشرعي لماذا لم يطالبوا بها، ولماذا سكتوا عن المطالبة بحقوقهم؟

وحينما طرأت غزوة حنين المفاجئة التي لم تكن في الحسبان وكان النبي لما يزل في مكة، سارع وأشرك ألفين من جيش أهل مكة مع جيشه^١ دون أن يخاف ردود فعلهم، وإمكانية اصطفاقهم مع الأعداء إذا حمى الوطيس وهم الذين كانوا مشهورين بمواقفهم العدوانية التي امتدت على مدى تسعة عشر عاما. فأبي سر يكمن في هذا الفعل؟

بل أنه أعاد مفتاح الكعبة إلى المشرك "عثمان بن طلحة" الذي كان قيما على الكعبة قبل الفتح، حيث قال له: (هاك مفتاحك يا عثمان اليوم يوم بر ووفاء)^٢ وكان قد أخذ المفتاح منه لما خرج إلى البيت بعد نزوله مكة، بمعنى أنه لم يسلبهم من حقوقهم شيئا البتة. بينما المفروض أن يستلم المفتاح أحد المسلمين الفاتحين من المهاجرين أو الأنصار.

ثم أن طريقة تعامله مع المشرك الآخر "صفوان بن أمية" كانت فيها خصوصية فريدة. فصفوان هذا كان سيد قومه، وأحد أكبر تجار السلاح المعروفين. وكان المسئول عن تجهيز آلة الحرب لجيوش الشرك لأن المسلمين قتلوا أباه أمية يوم بدر. هرب صفوان بعد الفتح مباشرة يريد جدة ليركب منها إلى اليمن. فبعث له رسول الله الأمان بيد "عمير بن وهب" فعاد مع أن الشك والخوف كانا يملئان قلبه ووقف على رسول الله وقال له: (إن هذا يزعم أنك قد أمنتني؟ قال: صدق، قال: فاجعلني فيه بالخيار شهرين، قال: أنت فيه بالخيار أربعة أشهر)^٣ فبقي في مكة على شركه، وحينما استجد أمر حنين، أرسل النبي إليه فقال: (يا صفوان أعرنا سلاحك هذا نلق به عدونا غداً حيث أحتاج النبي للسلاح

١. السيرة ٤ / ٧٢.

٢. السيرة ٤ / ٤٧.

٣. السيرة ٤ / ٥٢ - ٥٣.

لتجهيز أهل مكة الذين أخرجهم معه للحرب] فقال: أغصبا يا محمد؟ قال: بل عارية ومضمونة حتى نؤديها إليك^١ بينما المفروض أن يغنم النبي هذا السلاح شرعا، لكنه أبقاها عند صفوان ثم جاء ليستعيره منه يوم حنين، حتى أن الرجل أستغرب هذا التصرف غير المعهود فسأل النبي: أتريد أن تأخذه مني غصبا؟ فقال له النبي: كلا إنما أريد أن أستعيره منك، وبرضاك ثم أعيده لك بعد المعركة. إن إعادة السلاح لصفوان، بل عدم نزع سلاح مكة كلها وتجريدها من السلاح الذي طالما استخدمته ضد المسلمين ودينهم يشكل حسب المفاهيم العسكرية المعروفة خطرا كبيرا، وإمكانية استخدامه ضد الإسلام تبقى احتمالا قائما عند تحليل الأمر بموضوعية. فما هو سر إبقاء سلاحهم معهم يا ترى، لو لم يكن فتح مكة من الأسرار الكبرى؟

بل أن خطبة النبي عند باب الكعبة أول ما دخلها بعد أن طاف بها سبعا على راحلته، تعد من الأسرار العجيبة، فتلك الخطبة التي قال فيها: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج... يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم وآدم من تراب، ثم تلا هذه الآية "" يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ""

ثم قال: يا معشر قريش، ما ترون إني فاعل بكم؟ قالوا: خيرا، أخ كريم وابن أخ كريم، قال: فاذهبوا فأنتم الطلقاء^٢ إنما أراد من خلالها أن يقول لهم: إن فتح مكة، افتتح معه عهدا جديدا، وإن العدوان الذي مارستموه ضدنا من قبل ذهب مع ما ذهب،

١. السيرة ٤ / ٧٢.

٢. السيرة ٤ / ٤٧.

وكل الشحنة والبغضاء والثأر الذي كان بيننا هو تحت قدمي. فلن أطلبكم بشيء حتى بدم عمي الشهيد حمزه!

إن هذا الأسلوب الانتقائي يقع على نحو بارز خارج الميدان التعاملي المعروف والمألوف حين ذاك، ولكنه يتفق حتما مع النهج المحمدي المتفرد في كل شيء، وإذا كنا نجهل كنهه، بل إذا كان الأوائل قد جهلوا كنهه، فذاك لأنه خارج تصنيفهم للقواعد الحربية، والسلوكية، والتعاملية، المتعارف عليها. وهو مع كونه يفرز جملة من المعطيات التي يمكن استقراء النتائج من خلالها، إلا أنه يبقى يتمتع بمنزلة هامشية يجازف كثيرا من يبغي سبر غورها، ولذلك كنا ولا زلنا نعدده من الأسرار الإلهية التي يستعصي علينا فك رموزها.

ولا تجد لهذا الأسلوب متبعا إلا علي بن أبي طالب، لأنك حينما تبحث في طرق تعامله مع أعدائه تجد تواهقا كبيرا بين أسلوبه القيادي وأسلوب النبي، فكما أن رسول الله نعامل في هذه المواقف كذلك تجد عليا يعفو عن أهل الجمل، وأهل النهروان، بل أنه كان إذا أسر أحدا من جند معاوية في حرب صفين جعله يقسم أن لا يعود للحرب ثم يطلق سراحه!

غزوة حنين:

لما سمعت هوازن بالفتح جمعها "مالك بن عوف" مع ثقيف كلها، ونصر، وجشم كلها، وسعد بن بكر، وبني هلال، لحرب الإسلام، ومن يسمع ويعرف أن كل هؤلاء لم يكونوا قد أسلموا بعد يدرك أن وصف الله سبحانه وتعالى لفتح مكة بالنصر وبالفتح ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾. يعني أن الفتح كان أكبر من كل توقعاتنا واحتمالاتنا.

ولما سمع النبي بتجمع هذه القبائل خرج بعشرة لاف من المسلمين وألفين من أهل مكة الذين أسلموا بعد الفتح، وحينما دخل الجيش وادي حنين إنقض عليهم الأعداء الكامنين فأنهزم المسلمون ورسول الله يناديهم: هلموا إلي، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله. ولم يبق معه إلا أهله ليقصدون بأهله علي بن أبي طالب ونفر من المهاجرين، وهنا أظهر أبو سفيان بن حرب ما به من ضغن [عداوة وكره] للإسلام مع أنه كان مسلماً فقال شامتا ومستهزئاً: لا تنتهي هزيمة المسلمين دون البحر، وأن الأزام لمعي في كنانتي^١ أي أنه أراد القول أنه لا زال كافراً، والعقل يقول أنه كان لا يزال كافراً، والقرآن يقول ذلك أيضاً، فعلى أقل تقدير يأتي احتفاظه بالأزام في كنانته وهي رجس دليلاً على الكفر كما في قوله تعالى ﴿إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه﴾ يعني أنه يرفض اجتنبها لأنه يؤمن بها.

ومن قصص الفتح أن "الحارث بن مالك" قال: خرجنا مع رسول الله إلى حنين.. وكانت كفار قريش ومن سواهم من العرب لهم شجرة عظيمة خضراء، يقال لها "ذات أنواط" يأتونها كل سنة فيعلقون أسلحتهم عليها، ويذبحون عندها، ويعكفون عليها يوماً، قال: (فرأينا ونحن نسير مع رسول الله سدرة خضراء عظيمة فتنادينا من جنبات الطريق: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. قال: الله أكبر قلت. والذي نفس محمد بيده. كما قال قوم موسى لموسى ﴿اجعل لنا إلهاً كما...﴾ إنها السنن. لتركبن سنن من كان قبلكم)^٢ فهل يعقل أنهم كانوا حتى تلك الساعة لا يعرفون معنى التوحيد الخالص؟

١. السيرة ٤ / ٧٧.

٢. السيرة ٤ / ٧٤.

ومن قصص الفتح أن المجتمع العربي حتى ذلك التاريخ كان ينظر للمرأة نظرة دونية رغم أنها كانت تبادر لفعل الخير، وتسعى لمشاركة الرجل في الجهاد. ومنها أن ("أم سليم بنت ملحان" كانت مع زوجها "زيد بن سهل" و حازمة وسطها، وإنها لحامل بعبد الله بن أبي طلحة فسألها النبي عن سبب خروجها قالت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، أقتل هؤلاء الذين يهزمون عنك كما تقتل الذين يقاتلونك فإنهم لذلك أهل، فقال رسول الله: أو يكفي الله يا أم سليم؟ قال: ومعها خنجر فقال لها زوجها: ما هذا الخنجر معك؟ قالت: خنجر أخذته إن دنا مني أحد المشركين بعجته، فقال أبو طلحة: ألا تسمع يا رسول الله ما تقول أم سليم الرميضاء^١ والرميضاء كلمة للتصغير والتوهين تقال لمن يملأ القذى عينه نتيجة عدم الاهتمام بالنظافة الشخصية، فلا يكاد يرى بسببه شيئاً

غزوة الطائف:

وهذه الغزوة هي إمتداد لغزوة حنين، فبعد أن أنهزم مالك بن عوف وثقيف، وتحصنوا بالطائف، وغلقوا أبوابها عليهم، سار إليها النبي، وحاصرها بضعا وعشرين ليلة، وأستعمل فيها ولأول مرة الدبابات والمنجنيق، حيث كان قبل ذلك قد أرسل وفدا عسكريا يتألف من شخصين هما "عروة بن مسعود" و"غيلان بن سلمة" إلى جرش، من مخاليف اليمن، من جهة مكة، للتدريب على صناعة الدبابات والمجانيق والضبور^٢ وهذه القصة تدلل على عظيم اهتمام النبي بالشؤون العسكرية.

ومن قصص غزوة الطائف أن أهل الطائف بعد أن آذوا المسلمين بنبالهم وسكك الحديد المحماة بالنار أمر رسول الله بقطع أعناب ثقيف فوقع الناس فيها يقطعون^٣ ويعيدنا

١. السيرة ٤ / ٧٨.

٢. السيرة ٤ / ١٠٣.

٣. السيرة ٤ / ١٠٧.

هذا الأمر إلى المربع الأول الخاص بقطع أشجار نخيل اليهود والذي بينا فساده. بعد زمن يسير من هذه الغزوة، آمنت الجزيرة العربية كلها أن الإسلام أصبح قوة عظمى لا يتسنى لأي قوة أخرى أن تجاريها، ولا سيما وأن الوفود بدأت تتقاطر على المدينة معلنة إسلامها فجاءت هوازن أيضا من الطائف وأسلمت، (فسألهم النبي عن مالك بن عوف ما فعل؟ فقالوا هو بالطائف مع ثقيف فقال: أخبروا مالكا أنه إن أتاني مسلما رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة من الإبل. فجاء إلى النبي وأسلم، ثم أعاد النبي سبايا حنين إلى أهلها)^١ هذا السلوك الفريد سواء بطلب النبي من عدوه القدوم لإعلان إسلامه، أو بإعادة السبي إلى أهلهم، أو بإعطاء مالك مائة من الإبل، يعد حراكا استراتيجيا لا يأتي به إلا من كان على قدر كبير من الفهم السياسي والمجتمعي والنفسي.

الصحة والصحابة:

وفي هذه المرحلة المتقدمة من عمر البعثة تستوقفنا قصة بغاية الحساسية والغرابة والأهمية ندرك من خلالها صدق ما سبق وأن تكلمنا عنه من قبل وهو أن الأمة الإسلامية حتى تلك الساعة لم تكن قد أدركت واستوعبت حقيقة الإسلام وحقيقة شخصية النبي الأكرم، فما أن رد النبي سبايا حنين حتى تبعه الناس يقولون: يا رسول الله أقسم علينا فيئنا من الإبل والغنم لأنهم كانوا يخافون أن يعيدها لأهلها كما أعاد السبايا، حتى أجبروه على اللجوء إلى جذع شجرة، وخطفوا رداءه عنه فقام خطيبا وقال: (ردوا علي ردائي أيها الناس فوالله أن لو كان لكم بعدد شجر تهامة نعماً لقسمته عليكم، ثم ما أفيتموني بخيلا ولا جباناً ولا كذاباً)^٢

١. السيرة ٤ / ١١٤.

٢. السيرة ٤ / ١١٥.

يعني هذا فيما يعنيه أن الصحابة أو من يحمل صفة صحابي هذه الصفة التي تتحقق لمجرد رؤية المسلم للنبي ولو لدقيقة واحدة كما تقول بعض تعريفات الصحبة، لم يكونوا متساوين في الفكر والمدارك والعقيدة والإيمان، وأن هنالك فرقا كبيرا جدا بين المسلمين الأوائل الذين عايشوا الإسلام طويلا وخبروا تعاليمه وإرشاداته وبين أولئك الذين جاءوا إليه حديثا، وأن الذين ارتكبوا هذه الحماقة إنما هم من المسلمين الجدد الذين لم يختمر الإيمان في قلوبهم بعد. مما يعني أن الصحبة مدرسة فكرية عقائدية إيمانية تتحقق فائدتها من كثرة مخالطة ومعايشة وسماع النبي، وليس عن طريق الرؤية الخاطفة المتسعة للحضوية، أي أن الصحابة ليسوا كالنجوم (بأيهم اقتديتم اهتديتم) مع أن هذا التشبيه هو من عقائد مجموعة كبيرة من الأمة الإسلامية. نعم، أقف بإجلال للصحابي الأول الماسك بالخط المحمدي والنهج القويم وأقتدي به، وأعدّه كوكبا دريا وليس نجما عاديا، لكن لا يمكن أن اقتدي بمن سلب رداء النبي في هذه الواقعة، فهذا وذاك لا يتساويان أبدا، ولا يمكن لمنصف أن يساوي بينهما، أما أن تأتي السياسة ويأتي الولاء الطائفي والعشائري ليساوي بينهما فذلك بحث آخر.

ولذا جاء تعريف الصحبة مختلفا في مبانيه التي يذهب بعضها إلى أن الصحبة تتحقق بالرؤية الخاطفة الواحدة، بل أن تعريفها لغويا اختلف عن تعريفها عند أهل الحديث وعند أهل الأصول، ومن تعريفاتها التي أوردها العسقلاني في إصابته

الصحابي لغة: مشتق من الصحبة، وليس مشتق من قدر خاص منها، بل هو جار على كل من صحب غيره قليلا أو كثيرا

وقال السخاوي: الصحابي لغة: يقع على من صحب أقل ما يطلق عليه اسم صحبة، فضلا عما تالت صحبته وكثرت مجالسته.

وقال أبو الحسين في المعتمد: هو من تالت مجالسته له على طريق التبعية والأخذ عنه.

أما من طالت بدون قصد الإتيان أو لم تطل كالوافدين فلا.
وقال سعيد بن المسيب: الصحابي: من أقام مع رسول الله سنة أو سنتين وغزا معه غزوة أو غزوتين.

وقال الواقدي: كل من رأى رسول الله وقد أدرك الحلم فأسلم وعقل أمر الدين ورضيه فهو عندنا ممن صحب النبي ولو ساعة من نهار.
وقال السيوطي: ولا يشترط البلوغ على الصحيح^١

ومن خلاصة هذه التعاريف للصحة يمكن أن تستوعب تأثير الحراك السياسي المخالف للواقع العام والذي أراد أن يخلق طبقة معصومة لا يجوز نقدها أو انتقادها لكي يحتمي الذبول والأذنان بالقمم العالية التي كانت تعرف منزلة الصحة فقدسيتها ولم تأت بما يחדش كرامتها وقدسيتها.

ومن قصص غزوة الطائف الأخرى أن النبي الذي كان يعرف كيف يفكر المسلمون ولا سيما منهم من كان حديث عهد بالإسلام، فقرر أن يعطي المؤلفه قلوبهم مائة بعير لكل واحد منهم ابتداءً بأبي سفيان حتى بلغ عددهم اثنا عشر رجلاً، وأعطى دون المائة الآخرين فوجد الأنصار في أنفسهم، لأنه لم يعطهم وقالوا: (لقد لقي رسول الله قومه). فإذا صدق هذا الخبر فمعناه أنهم حتى تلك الساعة لم يعرفوا النبي على حقيقته، ولذلك تقول كتب السيرة أن رسول الله لما سمع الخبر جمعهم وقام فيهم خطيباً فألقى واحدة من أجمل وأعذب الخطب جاء فيها: (يا معشر الأنصار، ما قاله بلغتنى عنكم وجدة وجدتموها علي في أنفسكم؟ ألم آتكم ضللاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟ قالوا: بلى الله ورسوله آمن وأفضل. ثم قال: ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟ قالوا بماذا نجيبك يا رسول الله. لله ورسوله المن والفضل؟

١. الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، ١ / ٧ - ٨.

قال: أما والله لو شئتم لقلتم فصدقتم وصددقتم: أتيتنا مكذبا فصدقناك ومخذولا فنصرناك وطريدا فأويناك وعائلا فأسيناك.. أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم ولاعة[الشيء التافه القليل] من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ووكلنكم إلى إسلامكم؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلك الناس شعبا وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار. فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا: رضينا برسول الله قسما وحظاً^١

نستخلص من هذه الخلاصة أن السياسة النبوية تمثل خلاصة علم السياسة وفنونه وأنه ﷺ كان على علم كامل بطرائق قيادة الجموع وكيفية توجيهها الوجهة الصحيحة في أصعب المواقف واحلكها ولاسيما منها المواقف التي كان من الممكن أن تؤدي إلى الانقسام والتشطي، كما أنه كان متمكنا من فن الإقناع، ومفاوضا بارعا لا يدنو من خبرته أحد. إن هذه الخطبة الفريدة العصماء تؤكد مجموعة من المعطيات المهمة منها:

- أن النبي كان يتعاهد أصحابه بالرعاية والعناية كما لم يفعل أحد من قبل لأنه يعرف نواياهم ودواخلهم وطريقة تفكير كل واحد منهم ومستواه الفكري والثقافي والعائدي والمعرفي العام.

- أن الرواة نقلوا هذه الواقعة بعمومية مطلقة فبدا وكأن الأنصار كلهم وجدوا وحنقوا لأن النبي لم يعطيهم كما أعطى غيرهم، لكن من خلال تحليل الخطبة وتحليل ردود الأنصار على أسئلة النبي، تلك الردود التي كانت تتصف بالأدب الرفيع والإيمان المنقطع والحب الفياض ندرك أن هذا العتب الممزوج بالزعل قد يكون صدر من بعض

عامة الصحابة من الأنصار وجُهَّالهم وليس منهم كلهم، وأن عدد المعارضين كان قليلاً ولا يشكل نسبة تذكر من مجموع الأنصار الذين شاركوا في هذه الغزوة، وأن هنالك منهم من أعترض عليهم ولم يرضى بقولهم أو يقبله.

وتجد في السيرة بعض المواقف المشابهة تجاه الأنصار بما يؤكد أن الكثير منها قد أدخلت في ثنایا السيرة بعد حين. وفي فترة نشوء الولاءات والتحزبات، وبعد أن تمكن الولاء من فرض سطوته على الرواة والكتاب وهم في الغالب كانوا من المهاجرين ومن عرب قریش على وجه الخصوص أو من مواليتهم المميزين، حيث دفعهم الانحياز لجماعتهم للوقوع في فخ التعميم والشمول دون تحري الحقيقة.

الإمامة والاستخلاف:

أنا لا أريد التقليل من أهمية هذه الاعتراضات سواء كانت صادرة من وجهاء الصحابة ومبرزيتهم أو من عامتهم، مع أنه من غير المعقول أن يعترض أحد أفراد الجيل المثالي، جيل الصفوة، جيل الصديقين المؤمنين المجاهدين الرساليين على فعل أو قول لرسول الله، ولأي سبب كان، أما استمرار هذه الاعتراضات إلى ما قبل وفاة النبي بساعات قليلة فإنما يعني أن الأمة لم تكن قد أدركت بعد روح العرفان وخالص الإيمان، وهذا يعني أنها لا زالت بحاجة إلى لطف الله، وأنها أكثر حاجة لهذا اللطف بعد غياب النبي عنها، وأن الذين يتولون تثبيت وتعميق العرفان بموجب هذا اللطف يجب أن يكونوا من أصل شجرة النبوة الباسق وفرعها الخالد، لكي يتمكنوا من إتمام المشروع الرسالي، والسير به إلى متناه، ولذلك قالت مدرسة أهل البيت: بالإمامة المعصومة، وقالت: إن الإمامة أصل من أصول الدين لا يتم الإيمان إلا بالاعتقاد بها.. كما نعتقد أنها كالنبوة لطف من الله تعالى.. فالإمامة استمرار للنبوة^١ وأعتبر السيد الشيرازي أنها

١. عقائد الإمامية، الشيخ محمد رضا المظفر، ص ٧٣ - ٧٤.

واجبة عقلا لأن الإمامة لطف^١

ونظرا لهذه الأهمية عدت المدرسة الشيعية الإمامة الأصل الرابع من أصول الدين الإسلامي، وذهبت إلى أنه لا يجوز أن يخلو عصر من العصور من إمام مفروض الطاعة. ذلك بعد أن وجدت في الكتاب الكريم وفي سنة النبي وأحاديثه وفي كتب السيرة والتاريخ ما يؤيد هذه الحقيقة الجلية الواضحة التي اختلف قولهم فيها عمن سواهم من المسلمين.

ومن دون الخوض فيما جاءت به هذه المصادر المتنوعة بما يبعدنا عن حدود بحثنا هذا، والاكتفاء بكتاب السيرة النبوية وحده، بل وفي موضوع جزئيات الغزوات في هذا الكتاب بالتحديد - على أساس أن الغزوات كانت تستوجب خروج النبي من المدينة - نجد أن النبي ﷺ لم يترك المدينة في أي مناسبة من المناسبات دون أن يولي عليها أحد الصحابة ليدبر شؤونها حين عودته إليها، نظرا لأهمية وجود هذا الخليفة، بل أنه حتى عند وجوده فيها مع وجود ما يشغله عن قضايا الناس، كان يجعل على الناس أميرا، كما حدث في غزوة الخندق، وهذه الجنبه لم يلتفت إليها الذين ذهبوا إلى أنه ﷺ مات ولم يعين للناس أميرا يسوسهم. إذ كيف يعقل أنه كان يولي أمر الخلافة كل هذا الاهتمام في حياته مع أن أطول مدة غياب له عن المدينة لم تتجاوز الشهرين، ويترك أمته ساعة اقتراب أجله هملا بلا راع يسوسهم وقائد يوجههم وخليفة يرشدهم، وهو الذي يعرفهم حق المعرفة، ويعرف كيف يفكرون وكيف يتصرفون؟

وبالعودة إلى الغزوات التي قاد فيها رسول الله جيوشه خارج المدينة نجد:

- أنه في غزوة ودان وهي أولى الغزوات التي قادها بنفسه إستعمل على المدينة خليفة يدير شؤونها سعد بن عباد^٢

١. المسائل الإسلامية مع المسائل الحديثة، السيد صادق الشيرازي، ص ٤٢.

٢. السيرة، ١١/٢.

- وفي غزوة بواط استعمل على المدينة خليفة عثمان بن مظعون^١
- وفي غزوة العشيرة استعمل عليها أبا أسامة بن عبد الأسد^٢
- وفي غزوة صفوان (بدر الأولى) استعمل زيد بن حارثة^٣
- وفي غزوة بدر الكبرى استعمل ابن أم مكتوم واليا على المدينة^٤
- وفي غزوة بني سليم بالكدر استعمل سباع بن عرفطة الغفاري وقيل ابن أم مكتوم على إختلاف الروايات^٥
- وفي غزوة السويق استعمل أبا لبابه بشر بن المنذر^٦
- وفي غزوة ذي أمر استعمل عثمان بن عفان^٧
- وفي غزوة الفرع من بجران استعمل ابن أم مكتوم^٨
- وفي غزوة أحد استعمل ابن أم مكتوم أيضا^٩
- وفي غزوة ذات الرقاع استعمل أبا ذر الغفاري^{١٠}
- وفي غزوة بدر الثالثة استعمل عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول^{١١}

١. المصدر نفسه ٢ / ١٧ .

٢. المصدر نفسه ٢ / ٢١٧ .

٣. المصدر نفسه ، ٢ / ١٩ .

٤. المصدر نفسه ، ٢ / ٢٣٠ .

٥. المصدر نفسه ، ٣ / ٤ .

٦. المصدر نفسه ، ٣ / ٤١ .

٧. المصدر نفسه ، ٣ / ٤٢ .

٨. المصدر نفسه ، ٣ / ٤٢ .

٩. المصدر نفسه ، ٣ / ٥٨ .

١٠. المصدر نفسه ، ٣ / ١٨٤ .

١١. السيرة النبوية ، ٢ / ١٩٠ .

- وفي غزوة دومة الجندل استعمل سباع بن عرفطة^١
- وحتى في غزوة الخندق التي لم يفارق رسول الله المدينة فيها وإنما بقي داخلها إستعمل ابن أم مكتوم لإدارتها لأنه كان مشغولا بالتصدي للأحزاب^٢
- وفي غزوة بني قريظة استعمل ابن أم مكتوم أيضا^٣
- وفي غزوة بني لحيان استعمل ابن أم مكتوم كذلك^٤
- وحتى في غزوة ذي قرد التي كانت غزوة مفاجئة ومن دون إستعداد مسبق، لأنها جاءت للرد على غارة مفاجئة شنها الأعداء على المدينة، لم يخرج النبي في إثرهم إلا بعد أن إستعمل ابن أم مكتوم أميرا على المدينة المنورة^٥
- وفي غزوة بني المصطلق استعمل أبا ذر الغفاري ويقال نميله بن عبد الله الليثي على إختلاف الروايات^٦
- وفي صلح الحديبية استعمل على المدينة واليا نميله بن عبد الله^٧
- وفي غزوة خيبر التي هي من ضمن الرقعة الجغرافية للمدينة المنورة ولا تبعد عنها كثيرا استعمل نميله بن عبد الله أيضا^٨
- وفي عمرة القضاء استعمل عوف بن الأضبط الدويلي^٩

١. المصدر نفسه، ٣ / ١٩٤.

٢. السيرة ٣ / ٢٠٠.

٣. المصدر نفسه، ٣ / ٢١٢.

٤. المصدر نفسه، ٣ / ٢٥٤.

٥. المصدر نفسه، ٣ / ٢٥٩.

٦. المصدر نفسه، ٣ / ٢٦٤.

٧. المصدر نفسه، ٣ / ٢٨٢.

٨. المصدر نفسه، ٣ / ٣٠٣.

٩. المصدر نفسه، ٤ / ٥.

- وفي فتح مكة استعمل كلثوم بن حصين الغفاري^١
- وحتى في غزوة حنين التي تعتبر غزوة داخل غزوة حيث كان رسول الله حينها في مكة فلما خرج منها استعمل عتاب بن أسيد على مكة أميرا على من تخلف عنه من الناس ثم مضى يريد هوازن^٢ وخلف معه معاذ بن جبل يفقه الناس في الدين ويعلمهم القرآن^٣
- وحينما جاء وفد ثقيف بعد غزوة تبوك وأسلموا وأرادوا العودة إلى ديارهم، أمر عليهم عثمان بن أبي العاص. وكان من أحدثهم سنا، وذلك أنه كان كما يقول كتاب السيرة أحرصهم على التفقه في الإسلام وتعلم القرآن^٤
- وفي غزوة تبوك استعمل محمد بن مسلمة الأنصاري وقيل سباع بن عرفة^٥
- وفي حجة الوداع استعمل أبا دجانة الساعدي وقيل سباع بن عرفة^٦
- نجد في جانب آخر أن رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله ويلى) لم يبعث بعثا أو يسير سرية من شخصين فأكثر إلا جعل عليهم أحدهم أميرا، فعلا سبيل المثال أمر مرثد بن أبي مرثد على الستة الذين أرسلهم مع عضل والقارة يعلمونهم شرائع الإسلام بما يعرف بيوم الرجيع^٧
- وحينما خرجت الخزرج إلى خير قبل فتحها، لقتل عدو الله سلام بن أبي الحقيق

١. المصدر نفسه، ٤ / ٣٥.

٢. المصدر نفسه، ٤ / ٧٢.

٣. المصدر نفسه، ٤ / ١٢٢.

٤. المصدر نفسه، ٤ / ١٥٦.

٥. المصدر نفسه، ٤ / ١٣٤.

٦. المصدر نفسه، ٤ / ٢١٥.

٧. السيرة النبوية، ٣ / ١٥٥.

لأنه كان فيمن حزب الأحزاب على رسول الله، أمر رسول الله عليهم عبد الله بن عتيك، رغم أنهم هم الذين اقترحوا عليه أن يأذن لهم بالخروج لقتله تساوفاً مع أخوانهم الأوس الذين قتلوا من قبل كعب بن الأشرف في عداوته لرسول الله^١

فهل يعقل أنه (ص) مع شديد حرصه هذا على استخلاف من يدير شؤون العاصمة بغيابه، لا يترك على الإسلام والمسلمين أحداً من الصحابة ليدبر شؤونهم وهو مفارقهم من دون رجعة؟ سؤال يحتاج للكثير من العلم، ومن التجرد، ومن المسؤولية، ومن العقائدية والإيمان، ومن الروح الإنسانية، ومن المثالية أيضاً للجواب عليه بصدق وصراحة. ومع أن الكثير من الأجوبة التي جاءت عليه كانت تتصف بهذه الصفات بعضها أو كلها ولمدة تزيد على أربعة عشر قرناً مضت، إلا أنها لم تجد القبول لأسباب جمة. وما نرجوه اليوم هو أن يساعد التطور العلمي والتكنولوجي وتطور منظومة الفكر، وطرائق التفكير عند المجتمع في تقريب وجهات النظر. ليس في هذا الشأن فقط بل وفي كل شؤون خلافنا. التي - وللأسف الشديد - لم يظهر بينها لا في سابق العصور ولا حديثها من يملك الشجاعة للتوفيق بينها بما يرضي الله ورسوله، بل ويرضي الطموح الشخصي على أقل تقدير، بعيداً عن المهاترات السياسية والمذهبية والولائية.

ومع أن الجواب لن ينجح في تبديل ما حدث ولن يعود بالزمان ليضع الأمور في نصابها ولن.. ولن.. لأن تلك أمة خلت، إلا أنه قد يساهم في تبيان أسباب ما نحن عليه من الخلاف، هذا الخلاف الذي ما زلنا عالقين في كماشة تداعياته منذ أن كنا وإلى الآن، والذي ما زال منذ أربعة عشر قرناً ويزيد ينهش في كياننا الواحد ويوهن أركان مجتمعنا الإسلامي الواحد، فتحول إلى معول هدم مضاف لآلاف المعاول التي تسعى إلى تهديم الإسلام لأنها تراه الخطر الأكبر الذي يحول بينها وبين تحقيق أهدافها الدنيئة في السيطرة

على العالم ونهب خيراته ومصادر ثرواته لتتعم بها هي شعوبها وحمير المال فيها دون أن تلتفت للجوع والحرمان والعذاب والتخلف الذي سيصيب باقي البشر من أهلها.

قد يعترض البعض على إثارة هذا الموضوع في هذا الوقت، وفي هذا المكان، وفي هذا البحث بالذات على أساس أنه يساهم في إذكاء نار الخلاف المستعرة بدل إطفائها والتخفيف من وهجها. وأقول جواباً: إن الخلاف ناب متقيح أكله السوس والنخر ولم يبق منه إلا جذوره المتعفنة التي تسبب الرائحة الكريهة للفم، والألم والقلق للنفس، وتهدد مجموع الأسنان الأخرى بالعدوى والمرض، وتحرمنا راحة الجسد والبال وتدفعنا للتصرف بتهور وعدوانية تحت دوافع الألم، وتحت ضغط الأوجاع. ولا سيما وأن صبرنا عليه كل هذه المدة أضنانا وأتعبنا، ولم يعد فينا للصبر منفذاً، وللتحمل طاقة، فلماذا لا نتعاون ونساهم جميعاً بأيدينا نظيفة معقمة وقلوب مخلصنة منزهة وضماير مملوءة بالإيمان وحب الإنسان، مستفيدين من معطيات الحضارة الحديثة وعلومها التكنولوجية والبحثية، وبما نملكه من خزين فكري وعقائدي. وبما معروف عنا من نبل وشرف وطهارة مولد ونسب وحسب وحب للآخر وإيثار وتضحية، للبحث عن الحلول، خاصة وأن الحلول تكون أيسر وأسهل عندما تشتد الأزمات وتتضايق الحال كما هي عليه اليوم بيننا.

غزوة تبوك:

بعد فتح مكة أراد النبي أن يقول للأمة أن عصر التقاتل بين مكوناتها قد انتهى، وأن السيف بين أهلها حرام، وعليها مستقبلاً أن تحل مشاكلها، وما يشجر بين أفرادها، وعشائرها، ونظمها، وكياناتها بالطرق السلمية والشرعية فقط، وأراد أن يقول لها أن الأعداء الحقيقيين هم الروم والفرس ومن على شاكلتهم، فأمر الناس بالتهيؤ لغزو الروم بعد أن بدأت الوفود السلمية تزحف نحو المدينة معلنة إسلامها بلا قتال ولا سفك دم.

وكانت تلك الغزوة في رجب من سنة تسع للهجرة المباركة الموافق لسنة ٦٣٠ ميلادية. والمفروض بغزوة تحدث في هذا الوقت المتأخر من عمر البعثة أن تكون مثالية في كل شيء، لأن الأمة كانت حينها قد وصلت إلى مرحلة متقدمة من الإعداد الفكري والنفسي والعقائدي والعسكري والتدريبي، ولكنها بالمحصلة لم تكن إلا واحدة من تلك الغزوات التي نفذها المسلمون في أيام الأذن بالقتال الأولى، ومن سنخها، وعلى هيئتها سواء من حيث تصرفهم فيها، أو من حيث الحوادث التي وقعت فيها، بل أن بعض ما وقع فيها كان أشد غرابة مما وقع في سابقتها كظاهرة النفاق التي كثر الحديث عنها في هذه الغزوة.

تقع تبوك في الشام وهي من أرض الروم آنذاك، وقد حقق الإسلام فيها نصراً كبيراً نسبة إلى حالة المسلمين النفسية المتردية التي خلفتها هزيمتهم يوم مؤتة أمام جيش الروم

المنافقون والمعترضون:

من قصص تبوك المهمة ما روي عن حراك المنافقين يومها وبشكل علني وسافر في هذا الوقت المتقدم من عمر البعثة لدرجة أنهم كانوا يجتمعون علناً مع اليهود في بيت "سويلم" اليهودي وينشرون القصص والأكاذيب لتشيط عزائم الجيش^١ ومع أنه لم تكن من غزوة إلا وكان للنفاق منها محلاً إلا أنه في هذه الغزوة وكما ورد في الروايات شغل محلاً أوسع كثيراً مما كان عليه من قبل. ففي غزوة يوم الرجيع بعد أحد قال المنافقون: (يا ويح هؤلاء المفتونين الذين هلكوا، لا هم قعدوا في أهليهم، ولا هم أدوا رسالة صاحبهم)^٢ وعند تشييع جنازة سعد بن معاذ بعد غزوة بني قريظة وجدوا جنازة سعد

١. السيرة، ١٣٢٤.

٢. السيرة، ٣ / ١٦٠.

خفيفة فقالوا: (والله إن كان لبادنا وما حملنا من جنازة أخف منه)^١ ويوم حنين بعد أن أنهزم المسلمون قال جبلة بن الحنبل: (ألا بطل السحر)^٢

كان ابن سلول وجيها من وجهاء يثرب وكان قائدا للمنافقين في المدينة، وكان النبي يعرف المنافقين ويعرف أسماءهم، كما كان بعض الصحابة يعرفونهم بل أن الناس كانوا يعرفونهم بالشكل والاسم والصورة (قلت لمحمود: هل كان الناس يعرفون النفاق فيهم؟ قال: نعم والله، إن كان الرجل ليعرف من أخيه ومن أبيه ومن عمه وفي عشيرته)^٣ قضى بعضهم سنينا طويلة وهو على نفاقه يشارك المسلمين في مواقعهم وغزواتهم مثل "الجد بن قيس" الذي كان مع رسول الله والمسلمين في الحديبية سنة ست هجرية وكان مع المسلمين في تبوك سنة تسع هجرية، فلا هو صدق وآمن، ولا هم أقنعوه وكسبوه. وقال محمود: (لقد أخبرني رجال من قومي عن رجل من المنافقين معروف نفاقه، كان يسير مع رسول الله حيث سار)^٤. أي أنهم كانوا طابورا خامسا مخصصا للتخريب، يرقبون كل حركة وموقف ليطلقوا إحدى قذائفهم المدمرة والتشكيكية.

فحينما احتاج المسلمون للماء في إحدى الوقائع، ودعا رسول الله ربه أن يمطرهم، فأرسل الله سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس، أقبل المسلمون على منافق بينهم معروف وقالوا له: (ويحك هل بعد هذا من شيء؟ أي هل تحتاج بعد هذه المعجزة إلى دليل؟ فأجابهم بكل برود: سحابة مارة)^٥

وحينما ضلت ناقة النبي في مسيره إلى تبوك قال المنافق "زيد بن اللصيت

١. السيرة، ٣ / ٢٨٨.

٢. السيرة، ٤ / ٧٥.

٣. السيرة، ٤ / ١٣٧ - ١٣٨.

٤. السيرة، ٤ / ١٣٨.

٥. السيرة، ٤ / ١٣٨.

القينقاعي" : (أليس محمد يزعم أنه نبي ويخبركم عن خبر السماء، فكيف لا يعرف أين هي ناقته)^١

وكان رهط من المنافقين منهم "وديعة بن ثابت" و"مخشن بن حمير" موجودين في الجيش الذاهب للحرب مع الروم يريدون تثبيط عزائم المسلمين السائرين إلى تبوك فيقولون لهم تخويفا وإرعاباً : (أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً؟ والله لكأننا بكم غداً مقرنين في الحبال)^٢

الغريب أن النبي كان يعرف كل صغيرة وكبيرة عن المنافقين ، وكان يعرف ما يقولون دون أن يخبره به أحد، وفي هذه الواقعة بالذات أرسل لهم عمار بن ياسر قائلاً : أدرك القوم فإنهم قد احترقوا... فأتوا رسول الله يعتذرون إليه.

لكن لم يصلنا أي نقل يذكر أن رسول الله منعهم من مرافقة الجيش أو الخروج معه في كل الغزوات التي خرجوا فيها مع المسلمين، فما السر في ذلك؟ وهل كانت غاية ذلك مجرد أمل بهدايتهم مثلاً؟ أو كانت غاية ذلك إشراكهم بالغنائم عسى أن يدفعهم الكسب المادي لاعتناق الإسلام؟

من ناحية أخرى كان ابن سلول شيخ الخزرج وقائدهم ، وقد قادهم في عدة معارك إسلامية ، كان ينسحب منها مع المنافقين من قومه في منتصف الطريق لتثبيط عزيمة المسلمين، ولا سيما وأن عددهم لم يكن قليلاً ، حيث انسحب في الطريق إلى أحد ، وأنسحب مع جماعته المنافقين في تبوك أيضاً، ولكن لم يصلنا ما يثبت أن النبي منعه من الخروج مع جيش المسلمين ، رغم أن مرافقته لجيش المسلمين كانت تجلب لهم الضرر ، وكانوا يمتعضون من وجوده بينهم.

١. المصدر نفسه.

٢. السيرة ، ٤ / ١٤٠.

إن سياسة النبي التعاملية والسلوكية مع المنافقين تحتاج للكثير من الدرس والتحقيق، ومع أن بعض الباحثين كتبوا بشأن النفاق إلا أن تناولهم للموضوع جاء قاصرا عن إدراك هذه الجنبية المهمة، حيث لم يلتفت أي منهم للأسباب التي جعلت النبي يوافق على وجودهم مع الجيش الغازي رغم المشاكل التي يمكن أن يحدثها مثل هذا التواجد.

إن عدم اعتراض النبي على أفعال المنافقين يقودنا للبحث عن أسباب سكوته أيضا عن مجموعة أخرى من المعترضين على سياسته، والمشككين بدعوته، والساعين لتشيط عزائم الناس من حوله، وهم الطلقاء، أو بعضهم من الذين لم تكن فعالهم أقل تدميرا من هؤلاء. فأبو سفيان الذي يترحم عليه بعض المسلمين وتعتقد له كتب الصحاح باباً للفضائل أسوة بالصحابة الكرام الآخرين لم يكن يؤمن بنبوة الرسول باعتراف كتب السيرة، وكان يعدّ نبوة رسول الله ملكا كما هو ملك قيصر وكسرى، فهو بعد أن أسلم بتوسط العباس عم النبي وقبل دخوله إلى مكة وقف مع العباس يرقبان جيش الإسلام، فلما رأى كثرة المسلمين وانضباطهم قال للعباس: (والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما، فقال له العباس: يا أبا سفيان: إنها النبوة)^١

وهو بعد أن أسلم كان في أحد الأيام جالسا بفناء الكعبة مع عتاب بن أسيد والحارث بن هشام ورسول الله داخل الكعبة وبلال يؤذن فقال عتاب: لقد أكرم الله أسيدا ألا يكون سمع هذا فيسمع منه ما يغيبه. فقال الحارث: أما والله لو أعلم أنه لحق لأتبعته. فقال أبو سفيان: لا أقول شيئا، لو تكلمت لأخبرت عني هذه الحصى.. فخرج عليهم النبي، فقال: قد علمت الذي قلت، وذكره لهم. فقال الحارث وعتاب: نشهد أنك رسول الله، ما أطلع على هذا أحد كان معنا. أما هو فلم يشهد للنبي بذلك^٢

١. السيرة، ٤ / ٣٩.

٢. السيرة، ٤ / ٤٨.

العجيب هنا أن النبي عين عتاب بن أسيد الذي كان فرحا لأن الله توفى أباه أسيدا قبل دخول النبي إلى مكة كي لا يسمع الآذان، عينه واليا على مكة بعد أن غادرها ولم يكن عتابا قد تجاوز العشرين من العمر.

وبعد أن أسلم أبو سفيان ومر أكثر من عام على إسلامه، بعثه رسول الله مع المغيرة بن شعبة في سنة تسع للهجرة إلى الطائف بعد فتحها ليهدهما "الطاغية"، وهو اللات صنم ثقيف حتى إذا قدموا الطائف تخلف أبو سفيان بماله بذى الهرم، وصعد المغيرة على الطاغية يضربها بالمعول، ولما حضر ورأى المغيرة يضربها بالفأس قال متحسرا عليها ومتأسفا لمصيرها: واهاً لك [كلمة تقال في معنى التأسف والحزن] آهاً لك [كلمة تقال للتوجع والألم] ^١ ويعني هذا أنه حتى بعد مرور أكثر من عام على إشهاره إسلامه كان لا يزال مخلصا وفيها للأصنام التي كان يعبدها. وحتما كان رسول الله يعرف ذلك، ويعرف كيف يتصرف أبو سفيان، لكن لماذا سكت عنه؟ ذلك هو السؤال الذي يبحث عن جواب!

ومن قصص تبوك أن النبي خلف عليا في عياله في المدينة كما تقول السيرة التي لم تذكر لنا من هم عيال النبي الذين يحتاجون للرعاية كما لم تذكر أسماء الذين كان النبي يخلفهم على عياله في الغزوات التي كان علي يخرج بها معه، وهي مشاركة مستمرة حيث شارك علي في جميع غزوات النبي وحروب الإسلام باستثناء هذه الغزوة. ولماذا خلفه في هذه الغزوة بالذات عليهم؟ ثم من كان الخلف عليهم بعد هذه الغزوة؟

وما يهمننا في هذا الخبر أن المنافقين أنفسهم استغربوا هذا الأمر فاتخذوه فرصة لبث نفاقهم فقال قائلهم (ما خلفه إلا استثقلا له، وتخففا منه) ^٢ فأخذ علي سلاحه ولحق بالنبي وهو نازل بالجرف فشكا له قول المنافقين فقال النبي: (كذبوا ولكنني خلفتك لما

١. السيرة، ٤ / ١٥٧.

٢. السيرة، ٤ / ١٣٥.

تركت ورائي فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك، أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ إلا أنه لا نبي بعدي^١

فلو كان الاستخلاف خاصاً بالأهل لوجب أن يكون في كل غزوة، أو لكان من يقوم به في كل مرة هو بمنزلة علي، فلماذا أحجمت السيرة عن ذكرهم لو كانوا موجودين؟ بمعنى أن الاستخلاف كان لأمر آخر بدلالة قوله (بمنزلة هارون من موسى) فموسى لم يستخلف هارون في عياله حينما ترك بني إسرائيل وإنما استخلفه في كل اليهود وخرج للقاء الله وحده ليس معه أحداً منهم.

ومن قصصها أيضاً قصة تخلف أبي ذر عن الجيش حتى قيل: يا رسول الله قد تخلف أبو ذر وأبطأ به بغيره، فقال: دعوه فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم وإن يك غير ذلك فقد أراحكم منه.. وحينما رآه المسلمون قادماً ماشياً وحده قال رسول الله: رحم الله أبا ذر يمشي وحده ويموت وحده ويبعث وحده. ثم أن ابن هشام قال: قال ابن إسحاق: لما نفى عثمان أبا ذر إلى الربذة، وأصابه بها قدره لم يكن معه إلا امرأته وغلامه فلما مات غسلوه ووضعوه على قارعة الطريق فأقبل عبد الله بن مسعود في رهط فدفنوه^٢ هكذا وبكل اختصار تحدث عن هذا الصحابي المجاهد الجليل، أما لماذا نفى ولماذا غرب بعيداً عن المدينة وعن الناس حتى مات في أرض غير مسكونة وحيداً لا يوجد فيها من يواريه التراب، وكما أخبره رسول الله بالتحديد. فتلك من الممنوعات السياسية التي لا يجوز التحدث بها، ولربما روى المطلبي قصتها كاملة ولكن مقص الرقيب السياسي قطعها فيما بعد وأعاد صياغتها بهذا الشكل لأنها تفضح بعض السياسيين على حقيقتهم، من يدري؟

١. المصدر نفسه.

٢. السيرة، ٤ / ١٤١.

ووضعت الحرب أوزارها:

هذه تقريبا خلاصة وافية بالمعارك الإسلامية كلها وما دار فيها. خصوصا طريقة إدارتها قتاليا وعدد المقتولين فيها من الجانبين، وعدد المعارك التي لم يقع بها قتال أساساً، وموقف النبي من الصحابة الذين كانوا يخرجون على أوامره فيرتكبون حالات قتل لا مبرر لها. وكيف تعامل النبي معها ومعهم. وعند استعمال الطرق الإحصائية نجد واقعا أن عدد الحروب التي وقعت في تلك الفترة كان كبيرا جدا نسبة إلى عدد السنين التي وقعت فيها، فهناك ستة وستون حربا (٢٧ غزوة و٣٩ معركة) إضافة إلى بعوث وسرايا أخرى حيث يبلغ المجموع واقعا ما يقارب المائة في فترة زمنية تمتد من السنة الأولى وإلى السنة التاسعة من الهجرة (٦٢٢ - ٦٣٠ ميلادية) أي بمعدل أكثر من اثنتي عشرة واقعة في العام الواحد، و بمعدل واقعة لكل شهر. ومع أن الرواة أغفلوا ذكر عدد الشهداء من المسلمين والقتلى من المشركين في الكثير منها إلا أن بعض المحققين والمؤرخين ذكروا أن عدد القتلى في كل حروب الرسول من الجانبين - المسلمين والكفار - بلغ ألف وثمانية^١ أي أن مما لا شك فيه أن كل الذين قتلوا فيها من الجانبين لا يتجاوز عدد الشهداء الذين سقطوا على جسر الأئمة الرابط بين الكاظمية والأعظمية، ولا يتجاوز عدد الشهداء الذين سقطوا في العمليتين الإرهابيتين في تلعفر والحلة، بل لا يبلغ نصف عدد القتلى الذين يسقطون في شوارع نيويورك يوميا حسب الإحصاءات الأمريكية بسبب السطو والجرائم المنظمة والإدمان على المخدرات وحوادث الطرق والجرعات الزائدة والانتحار.

فأين تكمن الدموية التي يتهم بها الإسلام؟

١. السبيل إلى إنهاء المسلمين، السيد محمد الحسيني الشيرازي، ص ٢٣٣.

إن ما يمكن استخلاصه من حروب الإسلام كلها، أنها لم تكن حروبا دموية بالمرة. بل كانت بعيدة كل البعد عن النهج الدموي. وإذا كانت الحال كذلك فمن أين إذا جاء اتهام الإسلام بالدموية؟ وفي أي مرحلة من تاريخه الطويل أصبح الإسلام دمويا؟ وبتخصيص أكثر نقول: هل صحيح أن الإسلام دموي أم أنها إحدى التهم الغبية التي يروج لها الأعداء ضده، ونساعدهم نحن في إثبات صحتها؟

يقول عالم النفس "فينيك" عن الحياة: (إنها في أبسط صورها عبارة عن مشكلة يواجهها الإنسان)^١ وارى أنا أن الإنسان هو سبب المشاكل التي تطرأ على مسيرة الحياة والتي يقع فيها نفسه أو غيره من الناس الآخرين. وكانت المشاكل المصطنعة ولا زالت أحد أهم دوافع ومحركات حرف المشاريع الثقافية والتربوية عن مسارها الحقيقي، فثمة الكثير من المعارضين على المشاريع لأنهم يرونها تتعارض مع رغباتهم أو تعجز عن تلبية طلباتهم وإرضاء أمانيتهم التي تبثها روحهم وطبيعتهم والإفتراسية العدوانية المجولين عليها. أو معرقة لمشاريعهم السياسية ورؤاهم المستقبلية، وما من حضارة قامت على وجه الأرض إلا وكان هنالك من يعترض عليها في ذات الوقت الذي يسعى فيه لتجسير مكاسبها إلى مصلحته الخاصة وفائدة أتباعه ومؤيديه ولذلك يرى "ول ديورانت" أن البربرية تحيط على الدوام بالحضارة وتستقر في سطحها ومن تحتها متحفزة لأن تهاجمها بقوة السلاح... وما أشبه البربرية بالغابة المتلبدة في البلاد الاستوائية تحاول أشجارها على الدوام أن تقضي على معالم الإنسان المتحضر وتقاوم جهوده.. حتى تتاح لها الفرصة لاستعادة ما فقدته من أرضين بفعل الإنسان المتحضر^٢

والإسلام بحضارته وقيمه ومعتقداته التي جاء بها لم يكن بدعا من الأمم حيث

١. العقدة النفسية، عباس البلداوي، ص ٤.

٢. قصة الحضارة، ول ديورانت، ٢ / ٢٦٤ - ٢٦٥.

كانت البربرية مستقرة في نفوس عدد لا يستهان به من المحسوبين عليه أو المتواجدين في رقعته الجغرافية، ولما كان الإسلام بعد حجة الوداع قد حقق النصر الناجز وبرز إلى الوجود كقوة فاعلة ومؤثرة، فإن ذلك التاريخ كان بداية ظهور نزاع المصالح، ذلك لأن الجماعة تكون في فترة الكفاح الأولى متكثلة لا خلاف بينها لأن مصلحة الفرد ومصلحة المجموع تكون آنذاك واحدة، أما حين يبدأ النصر، وتنهال الغنائم، وحين يترف بضعة أفراد على حساب الآخرين، فتجد غول التفرقة قد أخذ يكشف عن أنيابه^١ ولذلك يولي علم الاجتماع هذه الجنبه عناية خاصة، ففي هذا العلم هنالك ما يعرف بمبدأ "تحول الحركة إلى نظام"، أي أن الحركات ذات التطلعات والعقائد يدفعها الميل للتغيير إلى النشاط الدائب بغية تحقيق هذه الحركية تدفع الأتباع لتقديم أفضل ما لديهم، لكنها متى تحولت إلى نظام قائم بذاته يصاب أتباعها بالحمول فينسلخون عن طابعهم التجديدي، وينكفئون تنظيمًا جامدًا يجترأجد الماضي وينعم بالمكاسب التي حققها النصر.

وقد استغل هؤلاء الصفوة تمايز الإدراك الفكري لدى أقرانهم الصحابة ليقتنصوا كل شاردة وواردة تخدم خطهم ويوظفونها لتحقيق المكاسب، وقد ساعدهم في مسعاهم ما حدث من خلاف في سقيفة بني ساعدة عام ١١ هجرية، مما مكنهم سنة ٤١ هجرية من تحقيق النصر الناجز حيث تم الاستيلاء على السلطة الدينية عنوة وقسرا وتأسيس مرحلة (العلم) من مراحل التطور المجتمعي الثلاث التي وضعها "جيمس فريزر" وهي: السحر، الدين، العلم، هذه المرحلة التي يصفها بقوله: (وأخيرا جدا أدرك الإنسان أن هذا أيضا [أي الدين] ليس سوى وهم باطل، فدخل في آخر مراحل تطوره)^٢

هنا أريد الإشارة إلى أن المذاهب الإسلامية كلها تعترف واقعا باغتصاب السلطة

١. خوارق اللاشعور، د. علي الوردي، ص ٥٥.

٢. الانثروبولوجيا الاجتماعية، بريشارد، ص ٥٨.

الذي وقع بعد مقتل الإمام الحسن بن علي على يد الأمويين، مع أن هنالك من يحاول شرعنة حكم معاوية وزحزحة تاريخ الاغتصاب إلى ما بعد هذا التاريخ قليلا. كقول الدكتور محمود الخالدي عن بيعة يزيد: (وكان ذلك نتيجة مشورة من المغيرة بن شعبة والي معاوية على الكوفة. فكان بذلك أول من حض على ارتكاب جريمة اغتصاب السلطة في الإسلام لأول مرة)^١ وهذا الرأي مخالف للواقع لأن الاغتصاب الحقيقي وقع بعد مقتل الإمام علي وتم وتكامل بعد مقتل الإمام الحسن المجتبي سنة ٤١ هجرية بإتفاق أقوال المؤرخين وحتى المستشرقين، والباحثين الأجانب.

وهكذا سعت هذه القيادات الجديدة لتسخير الفكر الديني لشرعنه وجودها بغية الاعتراف بهذا الوجود من قبل الأمة التي كانت في عنفوان عقيدتها الدينية بسبب قربها من عصر الرسالة. هذه الشرعنة التي يقول عنها "هابرماس": (هي قدرة نظام سياسي على أن يتم الاعتراف به)^٢ وهو ما أدى إلى قلب المراتبية وإنهاء المرحلة الدينية قسرا، وتأسيس المرحلة المدنية في الإدارة والحكم.

وقد كان رسول الله قد أعطى المقدمات لهذا الانقلاب من خلال منظومة حديثيه تحذيرية تخوف الأمة وتحذرها من الانقلاب وتداعياته. كما جاءت بعض النقول والروايات الصحيحة لتؤكد وقوع الانقلاب فعلا منها ما رواه ابن سعد في طبقاته عن الزهري قال: (دخلت على أنس بن مالك بدمشق وهو وحده يبكي فقلت: ما يبكيك؟ قال لا أعرف شيئا مما أدركت إلا هذه الصلاة وقد ضيعت)

ومنها قول الحسن البصري: (لو خرج عليكم أصحاب رسول الله ما عرفوا منكم

١. معالم الخلافة الإسلامية، د. محمود الخالدي، ص ١٢٦.. ولإتمام الفائدة يراجع الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٥٢/٣ وتاريخ الطبري ٢٢٥/٤ والبداية والنهاية لابن كثير ٧ / ٧٩ والاستيعاب لابن عبد البر، ص ٣٩٣ التي أسهبت في شرح هذا الاغتصاب.

٢. بعد ماركس، هابرماس، ص ١٨٥.

إلا قبلتكم)^١

فإذا أضفنا هذه المساعي إلى طبيعة المجتمع الإسلامي الأول، التي لمسنا مقدار التمايز بين مكوناتها فكريا وعقائديا واجتماعيا من خلال هذا البحث سنجد أن المشروع الإسلامي الذي حقق أعظم الانتصارات في التاريخ البشري، والذي نجح في توحيد أمة لم تعرف الوحدة في حياتها كلها، ثم نجح في توحيد الأمم المختلفة في أمة واحدة تحت عنوان هوية عظيمة هي (الإسلام الواحد)، ثم حول البداوة إلى حضارة سامية، وحول الأعرابي الذي لا يعرف إلا الغزو والحرب والوآد إلى كتلة متقدمة من الفكر والإيمان والعلم في كيان إمبراطورية واحد، ثم حول العلاقة المتشنجة بين الأجناس إلى احترام للآخر واعتراف به وبوجوده. لم يتعرض للإهمال فقط بل وتعرض كذلك للتوهين والتضعيف، فتحول من مشروع ثوري بنائي عظيم، إلى مجرد واجهة تطل منها وجوه لا علاقة لها به، وتتحكم بمساراته شخصيات لم تشارك في بناء مشروعه، توجهه كيفما تشاء وليس كما يريد هو، أو كما كان يخطط لمسيره. أي أن أساس الفرقة كان سياسيا أكثر منه عقائديا، فالجماعة التي استفادت من انتصار الإسلام في بناء مجدها الشخصاني، دفعت تلقائيا مجاميع أخرى لتقليدها، وهكذا بدأ تكاثر الفرق سياسيا بإطار عقيدي، فكانت أعمالهم السياسية تُرى وكأنها أعمال عقائدية

إن موضوع التطفل من المواضيع المهمة التي عانت منها المشاريع العظيمة على مر التاريخ، فما من حضارة قامت، أو ثورة نجحت، أو مشروع انتشر بين الناس، إلا وكان للمتطفلين عليه أثرا بارزا، وتأثيرا أبرز يصل في أغلب الأحيان إلى درجة حرفه عن مساره الصحيح، وتغيير الأفكار والأطروحات التي جاء بها. ومع أنه ليس بالضرورة أن تكون هذه الحالة عامة شاملة، أو أن يكون اثر التطفل بهذا القدر من الفاعلية على كل

١. جامع بيان العلم ٢/٢٤٤.

تغيير. إلا أنه نجح في الحالة الإسلامية بشكل فاق كل التوقعات. حيث نجح المتطفلون في تحييد كل الأطراف الأخرى. الفكر. العقيدة. القيادات الحقيقية التي كان من المفروض أن تستلم القيادة. وحتى الناس العاديين من العامة. وفرضوا أنفسهم وفكرهم وعقيدتهم بدلها. ثم تصدوا للقيادة والإدارة. واقنعوا الناس بأن تأخذ ما جاءوا به وتترك ما كانت تعتقد أنه الصحيح.

عند هذه النقطة واعتباراً من القرن الثاني الهجري أصبحت السيرة النبوية مع كل الاختلاف الموجود في قصصها. والسنة النبوية مع كل ما تعرضت له من التلاعب. والمواريث الأخرى من عصر البعثة والتي كانت على شكل قصص وروايات شخصية رواها أبطالها أو أبنائهم أو من سمعها منهم مع كل المبالغة التي أضيفت إليها والتحريف والتصحيف الذي تعرضت له على مر السنين. هي الأساس الذي تستند إليه المجاميع المذهبية الإسلامية لاستنباط واستخراج النظريات الفقهية. والأساس الذي يستند إليه كل من يبغى الحصول على معلومة ما عن صدر الإسلام الأول سواء من المسلمين أنفسهم. أم من المستشرقين والباحثين والدارسين الآخرين. ومن المخالفين الذين يريدون طعن الإسلام. ولما كانت السياسة قد فرغت من صراعاتها الفكري مع الدين في ذلك التاريخ تحديداً وانتقلت إلى الصراع العسكري العسفي. فأن محصلات هذا الصراع المرير قد دخلت على خط الأساس وتحولت نظرياتها إلى فقه يتدين الناس به. حيث تجدد النفس السياسي طاغياً على بعض الأحكام الدينية المتداولة اليوم بشكل واضح.

ولذا جاءت نظريات الفقه والأحكام مختلفة عند المذاهب بالرغم من كون مصدرها في الظاهر واحد وذلك تبعاً للأصل والأساس الذي اعتمده في استنباط الحكم. ومن ذلك كانت أحكام الحرب والجهاد. حيث جاء بعضها مخالفاً للبعض الآخر. والتي تمايزت في بعدين مختلفين بين تحريم سفك الدم إلا بالمواطن التي تحددها الشريعة ووفق قرار من

السلطة الشرعية العليا، إلى إباحة سفكه لأبسط الأسباب ودون الرجوع إلى أي سلطة تملك بيدها القرار ما دامت له شواهد في كتاب السيرة.

ولما كانت الفئة التي تساهلت في إباحة الدماء هي التي سيطرت على مقاليد حكم الأمة ثم قادتها سياسيا باسم الإسلام طوال التاريخ الإسلامي، فإنها حتما ساهمت بقدر كبير في إضفاء صفة الدموية على الإسلام، وهي الصفة التي تم تعميمها من قبل الأعداء واعتبارها الصفة الوحيدة والنهج الأوحده. بعد أن تركت آثارها في رقعة جغرافية كبيرة جداً شملت الحروب التي قادتها الحضارات المختلفة التي قامت على أرض الإسلام ضد الأمم والشعوب الأخرى في عملية البناء والتأسيس.

ثم أن قيام المخالفين بربط محصلات هذا التاريخ مع النهج الذي اتبعته بعض المجاميع الإرهابية الإسلامية في تنفيذها لعملياتها (الجهادية) ضد العزل والأبرياء من البشر، وتنفيذ طرق الذبح الحيوانية بالمناشير وصفائح الحديد والسكاكين بالمخالفين لها فكراً، عمم صورة الدموية وجعلها العنوان الأوحده للإسلام، وحول رسول الإسلام من قائد ومنقذ للبشرية جمعاء إلى مفكر دموي، فاستسهل المخالفون توجيه الطعون لشخصه الكريم على صفحات جرائدهم، واستباحوا كذلك حرمة الكتاب المقدس الذي جاء به (القرآن الكريم) فحولوه من كتاب مقدس يدعوا للخير والبناء والخلق الحسن واحترام الآخر إلى شاخص للتدريب يطلقون عليه الإطلاقات النارية فيمزقوه ثم يلقون به في سلة القمامة^١

١ . قام جندي أمريكي بوضع القرآن الكريم شاخصاً للتدريب وأطلق عليه عدداً كبيراً من الإطلاقات النارية وبعد أن مزقه ألقى به في القمامة فوجده أحد العراقيين الجياع الذين يبحثون في قمامة جيش الاحتلال عن الفضلات للعيش بها. الحادثة وقعت في ١٩ / ٥ / ٢٠٠٨. وقالت جريدة المواطن الصادرة في هذا التاريخ أن القادة الأمريكيين اعتذروا لشيوخ العراق بسبب خطأ فادح لأحد جنودهم وكفى وأما الجندي فقد عوقب بأن أعيد إلى بلاده علماً أن صفحات القرآن كانت تحتوي على كتابات مسيئة للإسلام وللنبي الأكرم .

إن مجرد النظر إلى موقف المسلمين من هاتين القضيتين المهمتين جداً، قضية الإساءة لشخص الرسول الأكرم، وقضية إستخدام جندي أمريكي للقرآن كشخص تدريب للرمي يؤكد واقعا عدم دموية المسلمين المزعومة، إذ لو قامت أي جهة أخرى بالطعن بنبي الطرف الآخر أو تمزيق كتابه المقدس بالطلقات النارية، لقامت الدنيا وما قعدت، أما نحن فقد اقتصرنا موافقنا على الاستنكار والشجب في القضية الأولى ولم نتجاوزه قيد أنملة، وطلب الاعتذار... مجرد اعتذار بسيط يقدمه السيد الأمريكي المصان الذي مزق جنديه الباسل قرآنا، بين صفوفنا، وعلى أرض الإسلام، في القضية الثانية، ولكن حتى هذا الاعتذار لم نحصل عليه. فسكتنا خوفا من أن يزعل علينا السيد، فنحرم من بركاته ودولاراته ودعمه السياسي المؤثر، مما يعني أن صلتنا بالكثير من المواضيع المهمة بدأت تضعف وتتقلص، لأننا غير وثيقي الصلة بها أساسا بسبب ما بيننا من خلاف، ولكنك مع ذلك تجدنا شديدي الحماس في الدفاع عن معتقداتنا المذهبية والطائفية فيما بيننا، وأنا على إستعداد كامل لمقاتلة المسلم الآخر الذي نختلف معه على أبسط الأمور بكل الوسائل والطرق التي تبيحها الشريعة أو لا تبيحها لكي نحقق الانتصار عليه

وهنا أجد أن بعض الخجل الذي خلفه الموقف الانهزامي للمسلمين تجاه واقعة مماثلة ربما يكون المانع على أساس أنه لماذا نعيب على من يكفر بملتنا وعقيدتنا التطاول على كتاب لا يؤمن به وقد قدمنا له أنموذجا قميئا حقيرا من قبل لم نعترض على فعله أو نعيب عليه جريمته لأنه كان من كبار القوم وساداتهم المنزهين والذي وصل به الأمر كما قال السيوطي وابن قتيبة إلى التفكير ببناء صومعة لشرب الخمر على سطح الكعبة المشرفة، وأقصد بذلك الخليفة الأموي الفاسق الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان الأموي الذي قرأ ذات يوم قوله سبحانه وتعالى ﴿واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد من ورائه جهنم ويستقى من ماء صديد﴾ فدعا بالمصحف فنصبه غرضا للنشاب وأقبل يرميه

وهو يقول :

أتوعد كل جبار عنيد فها أنا ذا جبار عنيد

إذا جئت ربك يوم حشر فقل يا رب خرّقتني الوليد^١

آخر الحديث :

استطاع رسول الله من خلال سيرته العطرة أن يوحد الأمة التي كانت تقودها البداوة وقيم الجاهلية المبنية على الغزو والعدوان والعصبية والظلم ووأد البنات وإجبار الفتيات على البغاء والمؤامرات والأحلاف والركون لسطوة اليهود وجبروت المحتل الفارسي و الروماني. فنجح في صنع مجتمع متماسك حلت فيه الأخوة الإسلامية عوضاً عن كل الارتباطات المتعارف عليها الأخرى، والشيجة الإيمانية بدل الوشائج الجاهلية، فتحول هذا المجتمع بكل سلبياته العبادية والسلوكية والفكرية، وقيمته البدوية والجاهلية إلى مجتمع مثالي بكل ما للكلمة من معنى، متحاب، متعايش، يخدم بعضه بعضاً ويساند بعضه بعضاً ﴿ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطئه فأزره فأستغلاظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار...﴾^٢

ثم بعد حين من الدهر غلبت الحركات السياسية والخلافات العقائدية والتحزبات المذهبية على طباع أفرادهم ونجحت في إحياء الموروث الجاهلي وقيم البداوة فيه وأضافت ذلك كله إلى معطيات التحضر والثقافة التي بثها الإسلام، مما ساعد في تنشيط روح التنافر والتباغض في نفوس أفرادهم من جديد. ثم جاءت سطوة المستعمرين من بويهيين

١. مروج الذهب للمسعودي ٣ / ٢٢٩.

٢. سورة الفتح / آية ٢٩ .

وصفويين وسلاجقة وعثمانيين فقطعت ما بين أهله من مشتركات وخربت ما بينهم من وشائج وعلاقات وأنشأت من كل جماعة مكون جديد لا يربطه بالأصل الباسق ألا الاسم والعمومية، ويختلف عنه واقعا في كل شيء حتى في طرق تعبدته وتدينه.

ثم حدث التنافر الأكبر يوم نجحت هذه التجمعات في إدخال فكرها الديني ومواريتها العقائدية والسياسية والقبائلية إلى أصل العقيدة وجوهر الدين عن طريق إضافتها إلى أحاديث السنة النبوية وسيرة الرسول الكريم المكتوبة، بمساعدة بعض رجال الدين ووعاظ السلاطين، وبتقادم الأيام، والتثقيف المستمر عن طريق الخطب والمحاضرات والدروس الدينية أصبحت تبدو وكأنها من الأصل الذي لا يجوز الاجتهاد قبالة فتحولت إلى مسائل خلافية يجتهد الطرف الأول في البحث عن عيوبها ومخالفاتها للشرع بغية تسقيطها، ويجتهد الطرف الثاني ويستमित في الدفاع عنها لأن تسقيطها يعني بنظره السقوط والنهاية وإذا كان علم الجرح والتعديل قد نجح في تسقيط كم كبير جدا من هذه الأفكار والأقوال الدخيلة، فإنه للأمانة والتاريخ لم ينجح بالقضاء عليها كليا. ويضاف لهذا الكم الكبير كما آخر تساهل معه هذا العلم في الجرح والتعديل أساساً لأنه حسب زعمهم من الفضائل التي لا يؤثر منطوقها ومحتوى نصوصها على الأحكام الفقهية، غافلين عن تأثيراتها على العلاقات الإسلامية البينية. إضافة إلى موقفه المتسامح جداً مع نصوص السيرة المدسوسة، بل ومع الإسرائيليات الموجودة فيها والتي اعترفوا أنها من دخائل اليهود ومن لف لفهم من المسلمين والمنافقين. وقد أدى الاختلاف الموجود فيها إلى الاختلاف بين المسلمين، بعد أن تطورت العلوم والمدارك، وأصبح النقل خاضعا لسلطة التفكيك والاستنطاق لاستقراء الحقائق منه. وعدم الاكتفاء بظاهره فقط لذا أجد أن علينا اليوم بكل مكوناتنا ومذاهبنا ومللنا ونحلنا أن نبحت بعلمية ومنهجية صادقة رصينة محايدة في أصل هذه النقول التي شوّهت صفاء السيرة ونعمل

على استئصالها منها، وذكر الحقائق التي تتماشى مع العقيدة والكتاب الكريم والأحاديث المجمع على صحتها والمتفق عليها، والموثوقة عند الطرفين أو التي نجد لها أصولاً عند كل طرف من الأطراف، وعدم الجمود عند القاعدة التي تقول: (لا يصح الاحتجاج بحديث في غير الصحيحين إلا إذا كان له لأصل فيهما أو في أحدهما) فالصحيحين لم ينزلا كما هما من السماء، واللذين كتبهما ليسا معصومين أو منزهين عن الخطأ، وهناك الكثير من الطعون التي وجهت وتوجه لهما من كل المذاهب بلا استثناء. عسى أن يساهم ذلك في إذكاء روح الحرص في ضمائرنا، ويدفعنا للتسامح مع الآخر واحترامه وقبوله بإعتباره قطعة من الجسد الكبير. لأنه من غير المعقول أن نبقي جامدين على هذه النصوص رغم غرابتها، ورغم علمنا الأكيد بأنها دخيلة على الأصل، في وقت يهاجم فيه عدونا أصدق نصوصنا وأكثرها وثاقة كالقرآن الكريم، ولماذا برأيكم يحدث ذلك؟ إن ذلك يحدث بالتأكيد لأنه آمن جانبنا ولم يعد يخشى جمعنا، فأنظر إلى "جيوم" وهو يتحدث عن غزو أبرهة الحبشي لمكة، ويتحدث عن السورة القرآنية التي توثق هذه الواقعة، كيف يفند حقيقتها ويحولها من نص مقدس إلهي المصدر إلى قصة أسطورية من نسج خيال مجتمع مولع بالقصص والخرافة كالمجتمع العربي فيقول منكراً فعل الطير الأبايل وحجارتها من سجيل: (اجتاح صفوف العدو وباء الجدري فاضطر إلى الانسحاب، ومات المئات من جيش أبرهة، ولكن الأساطير العربية أضافت إلى القصة عنصر المعجزات فقالت أن الله قد أرسل جماعات من الطير تحمل حجارة قتلت الأحباش)^١ وهولا يكتفي بهذا بل يدعي أن العرب أخذوا فكرة هذه الإسطورة من توراة اليهود وحولوها إلى معجزة من نوع جديد فيقول: (ويشبه ذلك من بعض الوجوه ما ورد في التوراة خاصة بتدمير الجيش الآشوري الذي كان يقوده

١. ينظر الإسلام، جيوم، مصدر سابق، ص ٢٢.

سنحاريب للقدس التي تعتبر أيضا بيت الله وفي تلك الليلة جاء ملاك الرب وقضى على (١٨٥٠٠٠) من الآشوريين. ولأن المؤرخ اليوناني "هيرودوت" كان قد قال أن الفئران البرية كانت تقرض أوتار الأقواس ومحامل دروع الجنود خلال الليل، فإن الفئران لدليل على وجود وباء الطاعون^١

هكذا يفكر ويستنتج المخالفون أحكامهم. ولا يوجد من يرد عليهم. لأننا منشغلون أساساً في الرد بعضنا على البعض الآخر بسبب ما بيننا من خلاف أذكاه من أراد الاستفادة الآنية منه في وقته، وندفع نحن اليوم ثمنه الباهظ

إن الذين كتبوا السيرة ليسوا معصومين من الخطأ والزلل، والذين رَووا أخبارها لا يمكن أن يكونوا مجردين عن نوازع النصر والولاء، فقد رأينا كيف أن الذين حضروا الواقعة أنفسهم روى أكل منهم خبرها والقول الذي ورد فيها بشكل فيه الكثير من الاختلاف عن غيره، ليس بداعي الخلاف في أغلب الأحيان وإنما نتيجة المؤثرات النفسية التي يتركها الإشتراك في الواقعة أو الحدث الذي وقع فيه القول كالمسير إلى للحرب مثلاً، وذلك الشد النفسي والضغط التي تخلفها الرؤى والخيالات التي تشغل بال المقاتل وتؤثر بالتالي على طريقة تفكيره، بل وتختصر تفكيره كله بالمصير الذي ممكن أن يلاقه في مسيره هذا، أي أن الفكر يكون منشغلاً بالكامل في هذا الحيز المصيري دون سواه فتصبح عملية الفرز والتشخيص صعبة جداً وربما مستحيلة. أي أنهم لم يكونوا غالباً يملكون الإدراك الكامل للإمام بتفرعات كل ما يقال ويحدث، بل وأغلب ما يقال أيضاً، لدرجة أن بعضهم لم يكن يميز القائل أو يعرف حتى اسمه فكان يخلط بين قول رسول الله وأقوال الصحابة، ففي مسيرهم إلى حنين زعموا أن النبي رأى كثرة ما معه من جند الله فقال: (لن نُغلبَ اليوم من قلةٍ)، ثم عاد ابن إسحاق فقال: (وزعم بعض

١. المصدر نفسه، ص ٢٣.

الناس أن رجلا من بني بكر قالها^١ ولكم أن تتصوروا مقدار الضغط الذي كان مسلطا على عقولهم لدرجة أنهم كانوا يخلطون بين قول النبي وقول البكري وهم متواجدون في المكان نفسه.

أما الذين أخذوا عنهم فلم يكونوا أفضل حالا منهم فالمؤثرات التي وقعوا تحت ضغوطها لا تقل في الأهمية عن تلك المؤثرات، لذا أجد أنه ليس من المعقول أن نأخذ ما يلاءم نهجنا فقط ونضفي عليه القدسية، ونترك ما لا يلائمها، بالرغم من أنه وارد في نفس الكتاب وربما في الصفحة ذاتها ولا يوجد ما يوهنه أو يطعن فيه. بل إن الإنصاف والعقل والنصرة للدين الواحد تدعونا لأخذ كل ما يساهم في لم شمل الأمة وتجاوز كل ما يساهم في تفريقها، بدل أن نشغل أنفسنا في إثبات صحة النقل الذي نعتقد أنه أكثر فائدة لنا وإثبات بطلان النقل الآخر الذي لا يوائم أطروحاتنا، وعلى سبيل المثال وجدت بحوثا طويلة تحاول أن تثبت أن النبي قال عن علي يوم خيبر (يحب الله ورسوله) ولم يزد عليها، وبالمقابل وجدت بحوثا أخرى تحاول إثبات أن النبي قال (يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله) فلو اخترنا من البداية أقرب النقلين للحقيقة وقلنا أن القول الثاني هو الصحيح استنادا لكثير من النقول الصحيحة الموثقة، ما كنا سنشغل أنفسنا كل هذا الوقت في إثبات صحة آرائنا ونحن قبل غيرنا نعلم أن عليا يحب الله ورسوله والله ورسوله يحبانه. لكن جاء من قال: أن قوله الأول هو الصحيح لأن القول الثاني يعني أن عليا يحمل خصيصة لا يحملها غيره من الصحابة كلهم وهي بشهادة الرسول الأكرم له حيازة الحب الأعظم، حب الله ورسوله، وذلك يعني فيما يعنيه أنه أفضل الجميع، إذ لو كان فيهم من يشاركه بهذه الخصيصة لأشار له النبي بما هو معروف عنه من دقة متناهية في القول والفعل وإذا ما تحولت هذه النتيجة إلى نظرية يؤمن بها الناس فإنها ستقلب

المراتبية وتغير السنن والقوانين، قوانين اللعبة التي إشتراك بها الجميع. فلم يقنع الطرف الآخر بهذا القول وأعتبره بخساً لحق علي وتغييباً لفضائله كما ثبت تاريخياً، وتحريفاً لما اعترفت به كتب الصحاح والسيرة، وأن المراتبية إنما قلبت لحظة تم الترويج لرأيهم الذي يخالف العقول والمنقول، فحدث الخلاف،

وهكذا كانت الخلافات تتراكم ويعلموا بعضها فوق بعض، والحلول تُرفض، والآراء لا يؤخذ بها، فقام بين الإثنين حائط عال لا يقدرّون على النفاذ من خلاله، أو العبور من فوقه، أو الالتفاف من حوله، أو رؤية أحدهما الآخر عبره، حتى نسي كل منهما شكل صاحبه، ولم يعد يتذكر ملامح وجهه. وقد قال رسول الله في حجة الوداع: (إن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبداً، ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضي به)^١

هناك جانب مهم لم نتطرق إليه بشكل موسع من قبل، وهو قضية الحكم على الرواة، إذ لا ينكر أن الرواة - الذين يبدوا وكأننا ننتقص عملهم في بحثنا هذا - لهم عظيم الفضل ويستحقون كثير الثناء على جهدهم العظيم الذي لولاه ما كنا سنحظى بفرصة الإطلاع على سيرة نبينا الأكرم وصحابته الكرام، تلك النخبة التي تحدثت كل الدنيا بما فيها تلك التقاليد والأعراف التي كانت تنظم حياتهم، والروابط العشائرية التي ما كان الإنسان قادراً على العيش بدونها، وديانتها التي ورثتها عن الآباء والأجداد، لتعلن ولاءها للدين وإيمانها بالمعتقد الجديد، بكل ذاك التحدي، وأقول لكم صراحة: يكذب من يدعي منا أنه لو كان في زمن البعثة لآمن بالدعوة المحمدية فوراً، فنحن محكومون بنفس الإكراهات التي كانت تحكمهم، وبحال كهذه ما يدرينا أننا سنؤمن بما لم تألفه مداركنا من قبل؟ بل ما يدرينا في أي جانب سنكون؟ فلربما نكون بجانب الأعداء.

١. السيرة ٤ / ٢١٧.

والمتطرفين منهم بالذات، ولذا أجد أن للرواة فضلا لا يمكن لذي لب أن يغمط حقه واستحقاقه. وحتى أولئك الذين سولت لهم أنفسهم أن يتلاعبوا بالنصوص ولأي سبب كان، أرى أنه ليس من حقنا أن نحكم عليهم جراء فعل ارتكبه منذ مئات السنين حكما جسديا.

كما أرى في نفس الوقت أنه لا يمكن السكوت عن هكذا فعل كان له مثل هذا الأثر التدميري على الإسلام والأمة المسلمة. والحيرة التي يضعنا بها موقفنا هذا هي حيرة سرمدية تقاسي ويلاتها الأجيال على مر التاريخ ولذلك قال أحد المختصين في علم الإجرام: (أن معاقبة المجرم ظلم كبير، ولكن في عدم معاقبته ظلم للمجتمع)^١ وأنا أدعوا لمثل هذا الرأي وأطلب بإسم المجتمع الذي تعرض لكل الولايات المعروفة تاريخيا، وبإسم المجتمع الذي تسببت أقوال الرواة في تأخيرهِ وإشغاله في معارك ثانوية بعيدا عن معركته التاريخية العظمى أن يُنصف المجتمع وأن يُحاكم المجرمون وأن نشترك سوية في كشف جرائمهم أمام الأمة لكي تعرف الحق من الباطل.

وأرى أن هذا الفعل لا يخلو من الصحة بحكم طبيعة العقل البشري في أهم واجباته وهي مساعدة الإنسان في تنازع البقاء. فتنازع البقاء هو الذي يقود الإنسان غالبا لسلوك طرق قد تسبب الأذى لغيره من البشر، لأنه يعجز عادة عن رؤية الاتجاهات الأربعة في نفس الوقت ولذلك يرى "مانهايم" أن الحقيقة موجودة في العقل البشري ولها أوجه متعددة، والعقل حين ينظر إليها لا يستطيع في الغالب أن يطلع إلا على وجه واحد منها. ولذا فهو لا يأخذ عنها صورة كاملة. ربما لأن العقل البشري جزئي ومتحيز بطبيعته كما يقول الفيلسوف الأمريكي "وليم جيمس"، ثم أنه كما يقول الوردى لا يكون ذا مقدرة وكفاية إلا بتخيره ما ينتبه إليه، وبتركه ما عداه، أي بتضييقه وجهة نظره، وإلا توزعت

١. حوارات في طبيعة النفس البشرية ، د. علي الوردى ، ص ٣١.

قوته الضئيلة وضل في تفكيره. هذا إضافة إلى أن الإنسان بطبيعته ميال إلى رفض ما يخالف مألوفاته وشديد الحماس والتعلق بما يوافقها^١

ولذا أجد أن القسوة على الرواة الذين رَووا أخبار السيرة فيها ظلم وبخس لمجهودهم الكبير الذي حفظ لنا هذا الذكر العطر. وكذلك السكوت عن الجرائم التي اقترفوها أو اقترفت باسمهم هو ظلم للمجتمع الذي يرى أن من حقه الكامل أن يعرف الحقيقة كما هي وليس كما صورها الرواة. لأنهم أولا وأخيرا أبناء مجتمعهم وعصرهم ولا أثر لأي ثقافة أخرى على مكون فكرهم سوى ثقافة ذلك العصر وإكراهاته، وهي ثقافة متحيزة إكراهية قسرية كانت تريد تسيير الأمة على هواها وبما يخدم توجهاتها السياسية والعقائدية، فكان الناس مجبرون على مسايرتها وتأييدها وإظهار الولاء لها والإيمان بها لكي لا يتهموا بالخروج على الجماعة ويصنفون بجانب الأعداء

ومن أوليات هذه الثقافة كانت محاربة فكر وذكر كل من تراه منافسا لها وهو حق تراه السياسة مشروعا، وتعمل على تطبيقه في العصر الراهن كما كانت تعمل به من قبل، ولما كنا نعلم أن المنافسة كانت حينها محصورة بين بني أمية الذين كانوا يرون أنفسهم أحق من غيرهم بالخلافة من جهة، وعلي بن أبي طالب الذي كان يرى نفسه أحق الناس بها تبعا لمجموعة أحاديث وأخبار مروية في الصحاح متفق على بعضها ومجمع على البعض الآخر. فإن الرواة فتحوا عيونهم على هذه المماحكة وهذا الخلاف ونشأوا على هذه السياسة التي كانت الصورة الوحيدة الماثلة أمامهم. وعاشوا في هذه البيئة وأجوائها. ونهلوا علومهم من فكرها وثقافتها. فلم يعتقدوا أن هنالك صورا أخرى.

ولما كانت الصورة التي نشأوا عليها وفي داخل أطرها ليست هي الأصل المعول عليه، إضافة إلى المبررات الولائية ومحدودية النظرة، وتأثير المجتمع وإكراهاته. فإنهم

١. ينظر المصدر نفسه ، ص ٤٨ - ٤٩.

أعادوا ترتيب الخبر ليصبح أقرب لحقيقة ما يؤمنون به، وهم لا يعرفون أن عملهم هذا أعاد تراتبية تاريخنا كله، وأنشأ تاريخاً فيه الكثير من الغرابة عن الأصل الأول وفيه الكثير من التوائم والتشابه مع العصر الجاهلي قبل الإسلام وهو ما أشار إليه المفكر الفرنسي المهتم بالشؤون الإسلامية "لوي غارديه" في قوله: (إن الإسلام كإسلام يقع بآن واحد وفقاً لجدلية استمرارية وانقطاع تجاه الماضي العربي السابق للإسلام. فالاستمرارية الجاهلية استمرت طيلة الحقبة الأموية ٦٥٠ - ٧٥٠)^١

ومع أن ما حدث كان برأيي نشاطاً فوضوياً في أغلب الأحيان، لكنه وبلا أدنى شك كان غنياً بالبشائر الكبيرة، ولكن الحراك السياسي الذي امتدت تأثيراته إلى كل نواحي المجتمع المادية منها والمعنوية، لم يعط الفرصة للمفكرين لأن يترجموا هذه البشائر إلى واقع معاش وملمس، فأفقدونا فرصة البقاء متحدين كسيفٍ واحد، وفكرٍ واحد، كما كنا في الزمن الأول، ثم أن تطاول الزمان محاً وجه تلك البشائر وقتلها، ولم يبق لنا سوى ذكريات نُجهد أنفسنا لكي نتذكر عن طريقها ملامح تلك البشائر فلا نستطيع

إن السيرة النبوية خزين معرفي عظيم ولكننا لم ننجح في توظيفه واستثماره لتوسيع آفاق فكرنا. واكتفينا منه في توظيف بعض القصص والحكايات لدعم توجهاتنا المذهبية والفئوية والمصلحية الضيقة، ويعني هذا أننا إزاء أنماط من التفكير المصلحي الضيق أحادي الجانب والخالي من الحكمة إذ يرى "تيري دي شارتر" فيلسوف المدرسة الشارترية: (أن الحكمة تكمن في أن نفهم تماماً الأشياء الموجودة)^٢ أما أن نشغل أنفسنا في دراسة الضلال والانعكاسات الصورية ونترك الأصل والجوهر فتلك من أكبر مآسينا

١. الإسلام بين الأمس والغد، لوي غارديه ومحمد أركون، ص ٦٠.

٢. الفلسفة الوسيطية، ص ٨٥.

مقاييس التقييم

وآخر ما أريد الإشارة إليه هو ضرورة وجود مقاييس للتقويم والتقييم تكون مقبولة من الجميع ولها قوة إلزامية على الجميع تقاس بها كل جزئية من جزئيات السيرة لمعرفة حقيقتها واصلها. فبعض ما مر في هذا البحث يؤكد بشكل لا يقبل المساومة أن هناك في سيرة ابن هشام التي ندعي أنها أصح السير أخطاء كبيرة لا يمكن السكوت على وجودها فيها، لكن هل يتفق الجميع على صحة نتائجها واستنتاجاتها؟ الجواب: كلا بالتأكيد، فهناك من يرفض مجرد الخوض في هذه المدونات أو مجرد الحديث عنها، ويعد ذلك خروجاً على المتعارفات الفقهية التي تحرم الخوض فيما شجر بين الصحابة، وتأمّر الناس بإيكال ما شجر بينهم إلى ربهم ليحاسبهم عليه. ومع إيمان هؤلاء القطعي أن هذا الموقف لا يخلو من الازدواجية، إلا أنه يبدو أن العيش وسط أجواء الازدواجية هو قدرنا الذي لا يمكننا الخلاص منه، ولذا أجد أن من أسوأ ما أبتلي به العقل الإسلامي هو مرض الفصام الذي جعله منقسماً على نفسه، ومرض التعميم والمبالغة الذي تعدى الحدود المقبولة، وهو ما دفعه لرفض المحددات التي تسعى إلى إيجاد حالة من التوازن حيال مفاهيم مثل العقل واليقين والحقيقة ولذلك صار يسعى لتغيب البرهان بوصفه حالة إكتشافية والاعتماد على سياسة التأزيم التي خلقت أزماً كبرى أصبحت شغلنا الشاغل

ثم (ماهية) هذه المقاييس، من أين نأخذها؟ وكيف نستخدمها؟ ومن المخول باستخدامها؟ ومن يصادق على نتائجها، ويقر محصلاتها، ويلزم الناس بالأخذ بحقائقها؟

وأخيراً إذا أثبتت هذه المقاييس خطأ بعض المتعارفات الكلية المتداولة منذ مئات السنين والتي تملك قدسية كبيرة لا يمكن الاقتراب من حافاتها الأمامية كيف سيتعامل

معها الناس خصوصا البسطاء منهم؟

وهل سيقبلون التنازل بيسر عن تلك المقدسات والاعتراف بهذه المستجدات؟

أم أنهم سيحاربونها كما حاربوا شبيهاتها على مر التاريخ؟

ومن هذا ندرك أن القضية ليست بالسهولة التي يراها البعض، وأن الأحلام الوردية التي يرى بعض الطيبين المستقبل من خلالها هي مجرد أحلام وقد تكون من الأضغاث، لكن وبما أن ثمة ضوء خافت هناك في الأفق البعيد لا يراه إلا الذين يملكون بصرا حادا وبصيرة نافذة، فإن الأمل شيء جميل جدا، والأجمل منه هو تحقق الآمال نفسها

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١. عبد الباقي، محمد فؤاد؛ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، ترتيب محسن بيدارفر، بيدار، قم، ١٣٨١ هجرية.
٢. المعافري، عبد الملك بن هشام؛ السيرة النبوية، تحقيق الشيخ محمد علي القطب والشيخ محمد الدالي بلطه، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٢، أربعة أجزاء بمجلد واحد.
٣. البخاري، محمد بن إسماعيل؛ الصحيح، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠١.
٤. القشيري، مسلم بن الحجاج؛ الصحيح، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٠.
٥. الطائي، صالح (الشيخ)؛ معالم الإيمان في تفسير القرآن، آية الله العظمى الشيخ صالح الطائي، النجف، - صدر منه لحد الآن ٧٠ جزءاً ولا زال العمل على إتمامه جارياً.
٦. عبد الحميد، محسن (الدكتور)؛ تطور تفسير القرآن، جامعة بغداد، ١٤٠٨ هجرية.
٧. المظفر، محمد رضا (الشيخ)؛ عقائد الإمامية، مركز الأبحاث العقائدية، ط ٢، النجف، ١٤٢٤ هجرية.

٨. الشيرازي، محمد الحسيني (السيد)؛ السبيل إلى إنهاض المسلمين، دار الصادق، كربلاء، ٢٠٠٤ .
٩. الشيرازي، صادق الحسيني (السيد)؛ المسائل الإسلامية المنتخبة، دار الصادق، كربلاء، ط ٢٨، ٢٠٠٥ .
١٠. الدينوري، ابن قتيبة؛ المعارف، قرص مدمج.
١١. ابن خلدون، عبد الرحمن؛ المقدمة، دار الهلال، بيروت، ١٩٨٨ .
١٢. الجزائري، عبد الباقي قرنه؛ معاوية، دار التفسير، قم، ١٤٢٦ هجرية .
١٣. الخالدي، محمود (الدكتور)؛ معالم الخلافة في الفكر السياسي الإسلامي، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٤ .
١٤. الوردی، علي (الدكتور)؛ حوارات في الطبيعة البشرية، مؤسسة المحبين، قم، ط ٢، ٢٠٠٥ .
١٥. الوردی، علي (الدكتور)؛ خوارق اللا شعور، سعيد بن جبیر، قم، ٢٠٠٥ .
١٦. الوردی، علي (الدكتور)؛ دراسة في طبيعة المجتمع العراقي، سعيد بن جبیر، ٢٠٠٥ .
١٧. أركون، محمد؛ الفكر الإسلامي دراسة علمية، ترجمة هاشم صالح، مركز الإنماء القومي، بيروت، ١٩٨٧ .
١٨. ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني؛ الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق الشيخ عادل عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥ هجرية .
١٩. ديورانت، ول؛ قصة الحضارة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٩ .
٢٠. الأثري، عبد الله بن عبد الحميد؛ الوجيز في عقيدة السلف الصالح، الغرباء للنشر، ط ٢ استانبول، تركيا، د.ت.

٢١. غالبرت، بيتر؛ نهاية العراق، ترجمة أياد أحمد، دار الزهراء، بيروت، د. ت .
٢٢. بولك، وليام؛ لكي نفهم العراق، تقديم د. عبد الحي يحيى زلوم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٦ .
٢٣. كوفيليه، أرمان؛ مقدمة في علم الاجتماع، ترجمة السيد محمد بديوي وعباس أحمد الشربيني، دار المعارف، مصر، د. ت .
٢٤. غلاب، محمد السيد؛ السكان ديموغرافيا وجغرافيا، د. محمد السيد غلاب و د. محمد صبحي عبد الحكيم، مكتبة الإنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٣ .
٢٥. فيفيلد، رسل هـ.؛ الجيوبولتيكا، رسل هـ. فيفيلد وإتزل بيرسي، ترجمة يوسف مجلي ولويس إسكندر، مراجعة د. محمد عبد المنعم الشرقاوي، الكرنك، القاهرة، د. ت.
٢٦. جيوم، الفريد؛ الإسلام، ترجمة محمد مصطفى هدارة ود. شوقي اليماني السكري، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٨ .
٢٧. مور، ولبرت؛ التغير الاجتماعي، ترجمة القباني، دار الكرنك، القاهرة، ١٩٦٦ .
٢٨. بنجيت، عبد المنعم (الدكتور)؛ المجتمع العربي والإسلام، دار المعارف، مصر، ١٩٦٥ .
٢٩. ألكعبي، حاتم (الدكتور)؛ السلوك الجمعي، مطبعة الديوانية، القادسية، العراق، ١٩٧٣ .
٣٠. جنزبرج، موريس (الدكتور)؛ علم الاجتماع، ترجمة د. فؤاد زكريا، دار سعد، مصر، د. ت .
٣١. نوتكات، برنار؛ سيكولوجية الشخصية، ترجمة د. صلاح مخيمر، القاهرة، د. ت.
٣٢. إبراهيم، ريكان (الدكتور)؛ النفس والعدوان دراسة نفسية إجتماعية في ظاهرة العدوان البشري، دار الشؤون الثقافية، آفاق عربية، بغداد، ١٩٨٧ .

٣٣. أجليبي، سوسن شاكر (الدكتورة)؛ أثر الحصار الإقتصادي على الجوانب النفسية والاجتماعية والتربوية والصحية، د. سوسن شاكر أجليبي ود. صادق عبد الصاحب التميمي، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٩٤ .
٣٤. الفيل، محمد رشيد (الدكتور)؛ اليهود وعلم الأجناس، مطبعة شفيق، بغداد، د.ت.
٣٥. الداوقوي، حسين علي؛ مبادئ علم الاجتماع، ١٩٥٦ .
٣٦. جميل، مكي؛ البداوة والبدو في البلاد العربية دراسة لأحوالهم الاجتماعية والاقتصادية ووسائل توطئتهم، مركز تنمية المجتمع في العالم العربي، سرس الليان، ١٩٦٢ .
٣٧. مليكه، لويس كامل (الدكتور)؛ سيكولوجية الجماعات والقيادة، مكتبة النهضة المصرية، ط٢، مصر، ١٩٦٣ .
٣٨. هال، لويس؛ الناس والأمم بحث في أصول الفلسفة السياسية، ترجمة د. محمد فتحي الشنيطي، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، ١٩٦٢ .
٣٩. لوبون، غوستاف (الدكتور)؛ حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط٣، ١٩٥٦ .
٤٠. فلهوزن، يوليوس؛ تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية، ترجمة د. محمد عبد الهادي أبو ريده، مراجعة د. حسين مؤنس، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٨ .
٤١. جاد المولى، محمد أحمد؛ أيام العرب في الجاهلية، محمد أحمد جاد المولى و علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، علي ألبابي الحلبي، مصر، د. ت .
٤٢. بريتشارد، إ. إ. إيفانز؛ الأنثربولوجيا الاجتماعية، ترجمة د. أحمد أبوزيد، مطبعة المعارف، مصر، ١٩٥٨ .

٤٣. فروخ، عمر؛ العرب والإسلام في الحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسط منذ الجاهلية إلى سقوط الدولة الأموية، المكتب التجاري، بيروت، ١٩٥٨ .
٤٤. سوسة، أحمد نسيم (الدكتور)؛ حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور، وزارة الإعلام، العراق، بغداد، ١٩٧٩ .
٤٥. جونو، أدوار؛ الفلسفة الوسيطة، ترجمة د. علي زعيور، دار الأندلس، ط٣، بيروت، ١٩٨٢ .
٤٦. هنتغتن، صموئيل؛ من نحن، التحديات التي تواجه الهوية الأمريكية، ترجمة حسام الدين خضور، دار الرأي، دمشق، ٢٠٠٥ .
٤٧. هابرماس، يورغن؛ بعد ماركس، ترجمة محمد ميلاد، دار الحوار، دمشق، ٢٠٠٢ .
٤٨. البلداوي، عباس مهدي؛ العقدة النفسية والشعور بالنقص، مطبعة الزهراء، بغداد، ١٩٧٨ .
٤٩. قبيسي، هادي؛ السياسة الخارجية الأمريكية بين مدرستين المحافظية الجديدة والواقعية، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ٢٠٠٨ .
٥٠. عاشور، سعيد؛ دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية، د. سعيد عاشور و د. سعد زغلول و د. أحمد مختار، ط٢، ذات السلاسل، الكويت، ١٩٨٦ .
٥١. غارديه، لوي؛ الإسلام بين أمس والغد، محمد أركون ولوي غارديه، ترجمة علي المقلد، دار الفارابي، بيروت، ٢٠٠٦ .
٥٢. العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر، المتوفى سنة ٥٨٢ هـ؛ تهذيب التهذيب، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٤ .
٥٣. ألبستي، محمد بن حبان بن أحمد بن أبي حاتم التميمي المتوفى سنة ٣٥٤ هـ؛ كتاب المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين، تحقيق إبراهيم زايد، قرص مدمج.

٥٤. الشافعي، سبط بن العجمي؛ كتاب التبيين لأسماء المدلسين، تحقيق يحيى شفيق، دار الكتب العلمية، بيروت، قرص مدمج.
٥٥. النسائي، أحمد بن علي بن شعيب المتوفى سنة ٣٠٣هـ؛ كتاب الضعفاء والمتروكين، تحقيق محمود إبراهيم زايد، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٦.
٥٦. العقيلي، محمد بن عمرو بن موسى؛ كتاب الضعفاء الكبير، تحقيق. عبد المعطي أمين قلمجي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت.
٥٧. الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان المتوفى سنة ٧٤٨هـ؛ ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تحقيق علي محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت.
٥٨. الحميري، أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب المتوفى سنة ٢١٨هـ؛ كتاب السيرة المعروف بالسيرة الحميرية، تحقيق محي الدين عبد الحميد، مكتبة محمد علي صبيح وأولاده، القاهرة، ١٩٨٤.
٥٩. ابن سعد، محمد؛ الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، قرص مدمج.
٦٠. المسعودي، علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦)؛ مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة الإسلامية، بيروت، د.ت.
٦١. البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر؛ فتوح البلدان، قرص مدمج.
٦٢. أيوب، ب، سعيد؛ زوجات النبي، قراءة في تراجم أمهات المؤمنين في حركة الدعوة، دار الهادي، بيروت، ١٩٩٧.
٦٣. ابن كثير، إسماعيل؛ السيرة النبوية لابن كثير (٧٠١ - ٧٧٤) تحقيق مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧١.
٦٤. مؤسسة الغري للمعارف الإسلامية، طريق النجاة في الرد على الشبهات، إشراق، ٢٠٠٧.

٦٥. سيد، بوبي س.؛ الخوف الأصولي و المركزية الأوربية و بروز الإسلام، ترجمة عبد الرحمن أياس، دار الفارابي، بيروت، ٢٠٠٧.
٦٦. غالبريث، بيتر؛ نهاية العراق، ترجمة أياد أحمد، دار الزهراء، بيروت، د.ت.
٦٧. الغروي، (الشيخ) محمد هادي اليوسفي؛ موسوعة التاريخ الإسلامي، مجمع الفكر الإسلامي، قم، ١٤١٧ هجرية.
٦٨. لويس، جون؛ الإنسان ذلك الكائن الفريد، ترجمة صالح جواد كاظم، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨١.
٦٩. موقع إسلام الالكتروني، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد السعودية.